

حياة تستحق أن تعاش

ألبير كامو والبحث عن المعنى

ترجمة: إبراهيم قيس جركس
مراجعة: سامر حميد البغدادي



حَياة تستحقّ
أن تُعاش

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



روبرت زارِتسكي



حَياة تستحقّ أن تُعاش

ألبير كامو والبحث عن المعنى

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

مراجعة: سامر حميد البغدادي





- حَياة تستحقُ أن تُعاش
- تأليف: روبرت زارِنسكي
- ترجمة: إبراهيم قيس جركس
- مراجعة عامة: سامر حميد البغدادي

- الطبعة الأولى 2023

ISBN: 978-9922-628-86-8

- هام: إن الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، أو محررها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر



دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

07700492567 - 07711002790

Email: bal_alame@yahoo.com



- تصميم الغلاف: ماهر عدنان

الأخراج الفني: آية نبيل



فهرس المحتويات

أفضل ما قيل عن الكتاب ٧

مُقدِّمة ١٣

الفصل الأول: العَبَث ٢٥

الفصل الثاني: الصَّمْت ٨١

الفصل الثالث: القِيَاس ١١٩

الفصل الرابع: الإخْلاص ١٤٧

الفصل الخامس: التَّمرُّد ١٨٣

خَاتمة ٢٢٥

مصادر المقدمة ٢٣٩


MOHAMED KHATAB



أفضل ما قيل عن الكتاب

«كتابٌ تنويريٌّ ... يستكشف زارِتسكي حِسَّ كامو مُتعدِّدَ الأوجه».

~ جون نايلور، ملحق التايمز الأدبي

«يميلُ كتاب [حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش] عن المقاربة الزمنيَّة، وبدلاً من ذلك، يسرد زارِتسكي قصة [كامو] وفقًا للمواضيع الخمسة التي شغلت حياته وعمله: العَبَث، الصَّمْت، الْقِيَاس، الإِخلَاص، والتَّمَرُّد. والنتيجة هي صورة أكثر إنسانيَّة لرجل غالبًا ما تختزل حياته بتأمل كآبة العبثيَّة. فيكشف زارِتسكي أنَّ كامو كان إنسانًا مُفرِطاً في إنسانيَّته: وهي نقطة واضحة تذكِّرنا بأنَّ حاجتنا الماسَّة إلى الأبطال، وبخاصَّةٍ الآن، غالباً ما تُحجَب».

~ ليندا كينستلر، صحيفة New Republic

«مُقدِّمـة رائعـة عـن أفـكار ألبـير كامـو، ونظـرة عامـة لقرَّائـه. يُوضِّـح زارِتسـكي بسـهولة المفاهيـم الصعبـة التـي قـد تبـدو عسـيرة في دراسـة يسـيرة، ويكشـف عـن محادثـة تمزج بـين جوانـب مهمـة مـن حيـاة كامـو - خلفيتـه الجزائريَّـة، الحيـاة في فرنسـا، وأهميَّـة الحـرب والمقاومـة والسُّـلِّ الـذي ابتـلي بـه طـوال حياتـه، لتتوضـح الصـورة أمامنـا لمفـكر مفـرط بالأخـلاق والحـب الدائـم لجـمال الحيـاة».

~ ستيفن كارول، صحيفة **Sydney Morning Herald**

«في العنوان الجميل والمكتوب بشكل جميل[حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى]، يوضح المؤرخ روبرت زارِتسكي سعي كامو طوال حياته في تسليط الضوء على محاولته البائسة لإيجاد الوحدة والمعنى، وإرثها الخالد، بأسلوب رائعٍ ومجملٍ».

~ ماريا بوبوفا، **Brain Pickings**

«بعضُ الكتاب محظوظون بما يكفي لتذكُّرِهم بعد ٥٠ عامًا من وفاتهم، وقليل منهم محبوبون. ولكنَّ ما هو نادر، هو بقاء كاتب مات منذ زمن طويل مثيرا للجدل. ألبير كامو هو أحد هذه النوادر، إذ لا يزال لديه القدرة على إشعال التوجهات السياسيَّة من خلال دمجه العميق لتاريخ القرن العشرين بعمق في كتاباته. سيجد القرَّاء الجدد لكامو في كتاب زارِتسكي مصدرًا مطَّلعا ومثيرا للإعجاب بحرارة».

~ آدم كيرش، موقع **Daily Beast**

«مـن المحـدود للغايـة التفكـير في ألبـير كامـو عـلى أنـه فيلسـوفٌ عبثـيٌّ. فبينـما لم يتـدرب كامـو أبـدًا عـلى أن يكـون فيلسـوفًا، يوضـح زارِتسـكي أن كامـو كان إنسـانًا ذا مبـادئ عاليـة، ومدافعًـا قويًّـا عـن العدالـة، ولا يـزال صـداه يـدوِّي في أرجـاء الفكـر».

~ مجلة **Christian Century**

«بعد أكثر من نصف قرن من وفاته المفاجئة في عام ١٩٦٠ عن عمر ناهز ٤٦ عامًا، لايزال كامو يثيرنا فكريًا. وفي كتاب [حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش] يقدم زارِتسكي اختبارات شاملة وصارمة لحياته وعمله، ويساعدنا أيضًا في فهم قلقه المستمر ونصائحه في الفنِّ والأدب».

~ كيفين رابالي، صحيفة **The Australian**

«للحصـول عـلى دراسـة قصـيرة جيـدة عـن حيـاة [كامـو] وعملـه وفلسـفته، طالـع كتـاب روبـرت زارِتسـكي [حيـاةٌ تسـتحقُّ أن تُعـاش: ألبـير كامـو والبحـث عـن المعنـى]» .

~ ستيفن رومومي، صحيفة **The Australian**

«أثـارت الذكـرى المائويَّـة [لميـلاد كامـو] الكتَّـاب والمؤلفـين لإعـادة النظـر في مسـاهماته في الأدب وعـصره. وروبـرت زارِتسـكي كان

واحـدًا مـن الأفضـل. كتـب الحائـز عـلى جائـزة نوبـل ذو الأصـول الجزائريَّة-الفرنسـيَّة، والمعـروف بروايـات مثـل الغريـب، الطاعـون، أسـطورة سـيزيف، تأمُّـلات المقصلـة، كتـب بشـكل ثاقـب عـن مواجهـة الظلـم، والحاجـة للتمـرُّد، ومواجهـة العبثيَّـة، والبحـث عـن المعنـى. يؤكـد زارِتسـكي أهميَّـة أفـكار كامـو، الـذي تـوفي في حـادث سـيارة عـام ١٩٦٠، حتـى يومنـا».

~ بيتر إم. جيانوتي، صحيفة **Newsday**

«قـدم لنـا زارِتسـكي في كتابـه هـذا، معالجـات موجـزة وبالغـة لحيـاة وعمـل الأخلاقـي الفرنسي-الجزائـري ألبـير كامـو بأسـلوب أقـل مـا يقـال عنـه إنـه كان سـاحرًا».

~ باري لينسر، مجلة **PopMatters**

«يعـرِّف زارِتسـكي كامـو كأخلاقـيٍّ طـارحٍ للأسـئلة بـدلاً مـن الإجابـات. مثـل هـؤلاء الأخلاقيـيِّن الشـجعان مثـل مونتيـن، وفولتير، وهوجـو، وزولا. وسَّـع كامـو بحثـه الخـاص عـن الحقيقـة إلى السـاحة العامـة، وفي كتابـة نثريَّـة بالغـة وجديـرة بموضوعهـا، يذكرنـا زارِتسـكي أنـه في زمـن التفجـيرات الانتحاريَّـة والقتـل المقنَّـن، بأهميـة قـراءة كامـو بتدبـر أكثـر».

~ ستيفن جي كيلمان، موقع **Texas Observer**

«كتاب [حياةٌ تستحقُّ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى] استكشاف رائع وموجز لأفكار كامو، وقدرته المستمرة على إثارة قلقنا وإلهامنا حتى يومنا هذا».

- سارة باكويل، مؤلفة كتاب «كيف تعيش: الحياة»

مُقدِّمة



«حتى موتي سيُطعَنُ فيه. ولكنَّ كلَّ ما أرغب فيه اليوم موتٌ هادئٌ، يجلب السلام والطمأنينة لجميع من أحبُّهم». [1]

تحقَّقت نبوءة كامو، وللأسف الشديد، التي كتبها خلال العقد الأخير من حياته، وربما لم يكن يأمل ذلك. وخلال السنوات الماضية، ثارت الكثير من الجدالات والنقاشات حيال ميراث هذا الكاتب الفرنسي-الجزائري الرائع.

بعد فترة قصيرة من تولِّيه الرئاسة، قام الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بزيارة الجزائر. جذبت زيارته هذه الكثير من الاهتمام، فمن ناحية لأنَّ ساركوزي قد وصل لمنصبه الرئاسي على أساس سمعته وخلفيته كمحافظ وناطق فظٍّ ومتشدِّد محسوب على المحافظين الجدد، وكونه - من ناحية أخرى - لم يكن يرى سبباً يدفع فرنسا أن تعتذر للجزائر عن تاريخها الاستعماري. وإحدى

المحطَّات المدروسة التي خطَّط للوقوف عندها كانت بلدة تيبازة، وهي بلدة جبليَّة تطلُّ على البحر الأبيض المتوسِّط. لكن ما يميِّز تيبازة فعليًّا ليست فقط مجموعة الآثار الرومانيَّة التي تنتشر في أرجائها - وهي دليل آخر على وجود مشروع استعماري قديم - بل المكان الذي تردَّد إليه كامو مرَّات عدَّة خلال حياته القصيرة.

تعبِّر اثنتان من أكثر مقالاته شعريَّة وغنائيَّة، «**أعراس في تيبازة**»، و«**العودة إلى تيبازة**»، عن ارتباطه العميق بهذه القرية. يصف المقال الأوَّل، الذي كتبه عام ١٩٣٦ عندما كان لا يزال شابًّا عاطلًا عن العمل صاحِبَ طموحات كبيرة، تجربته في تيبازة بطريقة إيروتيكيَّة صريحة:

> «كلُّ شيء يبدو لنا باطلاً ما عدا الشَّمس، والقُبَل، والعطور الوحشيَّة...... إنَّني أترك هنا لغيري النِّظام والاعتدال. إنَّه فُجور الطَّبيعة والبحر اللامحدود الذي يأسر خَلايايَ كلَّها».[٢]

بعد ما يقرب من عشرين عاماً، عاد كامو إلى تيبازة، وقد غَدا كاتباً كبيراً ذا شهرة عالميَّة واسعة، ولكنَّ نفسه لا تَخلو من شكوك. عندما يقترب من القرية، يتذكَّر الزِّيارة التي قام بها قبل نهاية الحَرب العالميَّة الثَّانية. كانت الأحداث الأخيرة قد غيَّرت المكان الأصيل: جنود وأسلاك شائكة تحيط بالأعمدة والأقواس حيث وقفَ في يومٍ من الأيَّام عاري الصَّدر مُبتسماً، مُحاطاً بصديقاته الجميلات. خلال تلك الرِّحلة، التي تَلَت الحَرب، بَدَت روح كامو سجينةً أيضاً، كان

العالَمَ يبدو هناك وكأنَّه انهارَ أو أصيبَ بالجنون:

«كانت الإمبراطوريات تتداعى، والأمم والرِّجال يأخذ بعضها بخناق بعضٍ بوحشيَّة، لقد كانت أفواهنا ملَوَّثة، ولكن كان هناك شبابٌ ضائعٌ الآن، وعلى المشى الذي كنتُ أحبُّه فيما مضى، بين أعمدة المَعبد المُتَهدِّم المُبَتَلَّة، كان يُخَيَّل لي أنَّني أقتفي أثَرَ أحدهم، وأنَّني ما أزال أسمع وَقعَ خُطاه على بقايا زخارف الآثار، ولكنَّني كنتُ كَمَن يَتبعه دون أن يصل إليه أبداً».[٣]

لكنَّ هذه الذِّكريات القاتمة تُفسِحُ المجال لشيءٍ أقدم بكثير، ولكنَّه في الوقت نفسه **«أصغَر من أحواضنا الجافَّة وآثارنا»**. يكشف كامو عن العَظَمَة الدَّائمة لتيبازة التي تقاوم بعنادٍ جنونَ العالَمَ الحديث:

«وقد اكتشفتُ هنا أيضاً الجمال القديم، والسَّماء الفَتيَّة، وامتَحَنتُ نصيبي بوعي بعد ذلك، فعَرَفتُ أنَّ ذكرى تلك السَّماء لَم تتخَلَّ عنِّي خلال سنوات جنوننا العصيبة. ولا بدَّ من القول أخيراً بأنَّها هي التي خَلَّصَتني من الشعور باليأس».

كانت الجزائر في ذلك الوقت تتَّجه نحو حَربٍ أهليَّة، وعلى الرَّغم من أنَّ كامو لَم يَذكُر صَراحَةً الأحداث التي كانت قد اندَلَعَت بالفعل، لكنَّه كان يبدو كأنَّه يتجهَّز للمستقبل:

«إنَّني لم أستطع إنكار الضِّياء حيث وُلِدتُ، وفي الوقت نفسه لم أرِد التنكُّرَ لِمُنجَزات هذا العصر».[٤]

وأمامَ حَشدٍ مُتناثِرٍ يُلوِّح بأعلام البَلَدين، حَدَّقَ الرَّئيس الفرنسي ساركوزي في البحر بينما كان يستمع إلى أحد مُضيِّفيه وهو يتلو مَقطَعاً من مقالة «**أعراس في تيبازة**».[٥] ربَّما كانت مقالة «**العودة إلى تيبازة**» مهمَّة إلى حَدٍّ كبير، أو سياسيَّة للغاية. وبطبيعة الحال، عندما انتهى العَرض، عادت الوفود والجماهير إلى سياراتهم، وتابَعَ المَوكب الرِّئاسي إلى مَحطَّته التَّالية، تاركاً خلفه المَعبَدَ المُدَمَّر، والسَّماء الفنيَّة، التي لطالما كانت مُحَصَّنَة ضدَّ التَّسييس، كما كان المعنى المُراوغ، والجمال العميق لمقالات كامو.

بعد ثلاث سنوات، في عام ٢٠١٠، مع اقتراب الذِّكرى الخمسين لوفاة كامو، كان الكاتب من جديد في قلب السِّياسة الفرنسيَّة عندما اقترح ساركوزي نقل رُفاة كامو إلى مَجمَع البانثيون. واجه اقتراح ساركوزي أصواتَ معارَضة شديدة من اليَسار بحجَّة أنَّه يحاول «**استعادة**» إرثِ كامو خِدمَةً لأجندته السياسيَّة. وأصَرُّوا على إبقاء رُفاته في لورمارين، المقاطعة البروفانسيَّة التي اكتشفها بعد الحرب بفترة قصيرة، وحيث انتقل بمساعدة صديقه المُقرَّب والشَّاعر رينيه شار، قبل سنوات قليلة من وفاته. وأعلَنَت أصوات من اليمين، مِنَ الذين يعتبرون كامو من المُحافظين الطَّليعيِّين الجُدُد، صَدْمَتَها من هذه الاتهامات. أدَّى هذا الجَدَل القائم بين الجناحين إلى حدوث شَرخٍ بين توأمَي كامو أيضاً: فبينما استَنكَرَ ابنه جان جهود ساركوزي لتحويل والده إلى أيقونة يمينيَّة مُحافظة، اعتَبَرَت ابنته كاثرين، المُنَفِّذة الشَّرعيَّة والمَسؤولة الرَّسميَّة عن

مُلكيَّـة والدهـا الأدبيَّـة، أنَّ نقـلَ رُفاتـه إلى البانثيـون تتويـج لحُلُـم حياتـه بالتَّحـدُّث باسـم أولئـك الذيـن لا صـوت لهـم.[٦]

وفي حـين أنَّ رُفـاة كامـو لا يَـزال يَرقـد بسَـلام في لورماريـن، لكـنَّ معنـى عملـه وأهميتـه لـن يكونـا كذلـك أبـداً،[٧] ويرجـع ذلـك جزئيًّـا إلى تُراثـه الجزائـري. في روايـة أليكـس دي سـان أندريـه «بابـا في البانثيـون»، تسـعى الحكومـة للتقـرُّب مـن ابنـة كاتـب مشـهور متـوفَّى يُدعـى بيرغـر -وهـو صـورة كاريكاتوريَّـة مقنَّعـة للكاتـب أندريـه مالـرو -حيـث يقـرِّر الرَّئيـس الفرنـسي إدخالـه في البانثيـون. كان الدَّافـع سياسـيًّا بحتـاً. وكـما قـال مديـر البانثيـون للابنـة، «**بعـض الأشـياء أقـلُّ تكلفـةً مـن الدَّفـن في البانثيـون. نحـن نُحضِرُ الطَّلاب، وننـشُرُ الحَـرَس الجمهـوري، ونُصـدِر طابَعـاً بريديًّـا جديـداً، وكلُّ ذلـك لا يكلِّـف الحكومـة شيئـاً**». الدَّعايـة الحكوميَّـة مجَّانيَّـة وتلقائيَّـة وشـاملة. ومـع ذلـك، هنـاك تحذيـر: «**نحـن بحاجـةٍ إلى عَميـلٍ جيِّـد**». بعـض «الكُتَّـاب» كاثوليكيُّـون إلى أبعَـد حَـدٍّ مثـل (تشـارلز بيغـي، وفرانسـوا موريـاك)، وبعضهـم شـيوعيُّون مُتَشَـدِّدون مثـل (لويـس أراغـون، وبـول إلـوار)، وأحدهـم لَم يَكُـن كفـؤاً كمقاتـلٍ ومُقـاوِم (مثـل أندريـه جيـد)، في حـين هنـاك آخـر عديـم الجـدوى تمامـاً مثـل (مارسـيل بروسـت). ومـاذا عـن سـارتر؟ انـسَ الأمـر، يَضحـك المُخـرج: «**مـا زالَ مُخطئـاً كـما كان**». ثـمَّ يذكـر كامـو، ليكتشـف أنَّ الأخـير قـد فَشِـلَ أيضـاً في الاختبـار، لأنَّ الجزائـر فشـلت فيـه.[٨]

قلَّـةٌ مـن الكُتَّـاب فاقـوا كامـو تقديـراً واحترامـاً للهُويَّـة الشَّـخصيَّة والوطنيَّـة. كان هـو مـن ذوي «الأقـدام السـوداء»، اللقـب الـذي أطلِـق

على المهاجرين الذين قَدِموا خلال القرنين التَّاسع عشر والعشرين إلى الجزائر الفرنسيَّة من أصقاع مختلفة من أوروبا، وأصبحوا مواطنين في الأمَّة الفرنسيَّة، التي لا يتكلَّمون لغتها، ولَا يعرفون شيئاً عن تاريخها، وقد لا يَطؤون أرضها أبداً. ولكن ذلك لَم يَكُن مهمّاً في تلك الفترة: لقد اعتُبِرَت الجزائر جزءاً من فرنسا، وليست دولة أجنبيَّة تضمُّ ملايين عدَّة مِنَ العَرَب والأمازيغ المحرومين أصلاً من حقوق المواطَنَة. وبحلول خمسينيات القرن الماضي، كان كامو يُشبه بطله الأسطوري سيزيف، الذي لَم يَكُن يُدَحرج صخرة، بل يحمل على عاتقه المأزق المأساوي للمقاومة الجزائريَّة للاحتلال الفرنسي. فقد جاهَدَ كامو لسنوات عديدة لإيجاد حَل يُلَبِّي مُقتضيات العدالة لكلٍّ مِنَ العَرَب والمُستعمرين على حدٍّ سواء، مُجازفاً بحياته في السَّعي إلى سلامٍ مُستحيل. فشل كامو والتَزَم الصَّمْت -ثمَّ ظلَّ صامتاً حتى وفاته عام ١٩٦٠.

بينما يواصل كامو الجزائري تقسيم الرَّأي العام في فرنسا، إلا أنَّ هناك إجماعا في الجزائر حول كامو؛ حيث يعدُّه عددٌ متزايدٌ من الكتَّاب الجزائريين أنَّه واحد منهم. وكان ذلك صحيحاً إلى حَدٍّ ما منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين وخلال ما يسمَّى بالحرب الجزائريَّة الثانية التي خاضتها الحكومة الجزائريَّة ضدَّ جماعات متطرِّفة إسلاميَّة. قامت الروائيَّة الجزائريَّة ـ وعضوة الأكاديميَّة الجزائريَّة ـ آسيا جِبار بتسجيل كامو ضمن مجموعتها الخاصَّة بالشهداء السياسيِّين الجزائريِّين. فهو، كما تقول آسيا، كان أحد «دُعاة الأدب الجزائري»- روحٌ أخويَّة تدعوها إلى جانبها

مـن أجـل النَّظـر والتأمُّـل والتَّفكـير معـاً في الفـوضى الدّمويّـة لماضي الجزائـر.[٩]

وبالمثـل، خـلال نقـاشٍ أخـير في فرنسـا حـول العَـدد غـير الـكافي للمسـاجد، يتذكَّـر عبـد القـادر جامـي، مؤلِّـف كتـاب «**كامـو في وهـران**» أنَّ كامـو أبـدى إعجابـه بالبسـاطة الجميلـة للمَدافـن العربيَّـة. وخـلال زيـارة قـام بهـا جامـي إلى لورماريـن، اكتشـف أنَّ «**شـاهد قـبره يشـبه شـواهد أسـرَتي المُتَوفِّـين**».[١٠]

مـا يجـذب هـؤلاء الكُتَّـابَ الجزائريـين إلى كامـو ليسـت خصوصيتـه بوصفـه كاتبـاً جزائريًّـا بقَـدر عالميَّـة اهتماماتـه. وهـذا سـببٌ آخـر يَدفعنـا للاسـتمرار في القلـق. وسـواء نظرنـا إليـه مـن تيبـازة أو مـن باريـس، يظـلُّ كامـو الرَّجـل الـذي وقفَـت حياتـه شـاهداً عـلى نـوعٍ مـنَ البطولـة اليائسـة. إنَّ إدانتـه الشـديدة للمعاملـة التـي تتعامـل بهـا الحكومـة الفرنسـيَّة مـع العـرب والأمازيـغ، وإدانتـه للتَّشريعـات المُعاديـة للسَّـاميَّة في حكومـة فيـشي الفرنسـيَّة، ومعارضتـه المسـتمرَّة لعقوبـة الإعـدام، وجهـوده الشُّـجاعة للتَّفـاوض عـلى هدنـة والتَّوصُّـل إلى حَـلٍّ وسـطٍ في الجزائـر التـي مَزَّقَتهـا الحَـرب، كلهـا تعكـس أفعـال رَجـلٍ سـعى لرَبـط حياتـه بفكـره وفلسـفته. لقـد فشـل أحيانـاً في تحقيـق ذلـك. فعـلى سـبيل المثـال، خـلال الفـترة التـي امتـدَّت بـين الأشـهر الأخـيرة مـن الاحتـلال الفرنـسي والأشـهر الأولى مـن التَّحريـر، نجـح كامـو في قمـع كراهيتـه العميقـة لعقوبـة الإعـدام، ليـس فقـط مُـبَرِّراً، بـل مُطالبـاً بإعـدام أولئـك الذيـن أدَّى تعاونهـم مـع المُحتَـلِّ في زمـن الحـرب إلى مَقتـل الفرنسـيِّين. يعكـس موقفـه هـذا مرونـة كامـو

الأخلاقيَّة حتى أنَّه تخلَّى في النهاية عن هذا الموقف، معترفاً على العَلَن بأنَّه كان مُخطئاً، ومع ذلك، فإنَّ إعادة قراءة متأنِّية لمقالاته في زمن الحرب التي دعا فيها إلى تطبيق عدالة سريعة لا تَرحم، يمكن أن تَقشَعِرَّ لها الأبدان.[١١]

تُذَكِّرنا هذه التناقضات، بالطبع، بأنَّ كامو كان إنسانيًّا، مُفرِطاً في إنسانيَّته: وهي نقطة واضحة تذكِّرنا بأنَّ حاجتنا الماسَّة إلى الأبطال، وبخاصَّةٍ الآن، غالباً ما تُحجَب. والأهمُّ من ذلك هو أنَّها تذكِّرنا بأنَّ كامو نفسه كان على دراية تامَّةٍ بهذه التَّناقضات، وسعى من خلال أفعاله وكتاباته إلى شرحها. في حالة موقفه في زمن الحرب من عقوبة الإعدام، ألقى كامو محاضرة رائعة عام ١٩٤٨، عندما اعترف بأنَّه كان على خطأ (سنناقش الأمر لاحقاً). وليس من الصَّعب قراءة روايته القصيرة «**السقطة**» جزئيًّا بوصفها اعترافا ضمنيًّا وصريحًا في آنٍ واحدٍ بخياناته المُتعَدِّدَة في أثناء زواجه من فرانسين كامو (هذا ما فهمته زوجة الكاتب). وهذا ما قالته له عقب الانطلاقة النَّاجحة لكتابه: «**أنتَ مَدينٌ لي بذلك**».[١٢]

هذا القلق المستمرُّ، هذا العَجز التَّعيس عن التَّهدئة من خلال التَّبريرات لتصرُّفاتنا أو تصرُّفات الآخرين، هذه الموهبة اللعينة في إجبار من حولنا ليس فقط على إعادة النَّظر في المعتقدات التي لطالما اعتَقَدَ بها المَرء، واعتبرها أمراً مَفروغاً منه، هي التي تجعل من كامو كاتباً في غاية الأهميَّة. كانت لديه عادة، كما كتب توني جوت، أن يَنظر «**في المرآة بسبب قلقه الأخلاقي**».[١٣] إنَّ عمله

وحياتـه، بدورهـا، حَمَلَا المرآة نفسـها ووضعاهـا أمـام بقيّتنـا. اقـترح جـوت في وقـتٍ مـا أنَّ هنـاك أخلاقيًّـا حقيقيًّـا لم يجعـل الآخريـن يشـعرون بالقلـق وعـدم الارتيـاح فحسـب، بـل تسـبَّب لنفسـه عـلى الأقـل قلقـاً مماثـلاً أيضـاً.[١٤]

الأخلاقـي ليـس شـخصاً واضعـاً للأخـلاق، فالأخـير لديـه جـوابٌ حتـى قبـل أن يُطـرَحَ السُّـؤال، بينـما الأول ـالأخلاقـي- يطـرح الأسـئلة بعـد أن يسـمع الإجابـات المُتاحَـة، وهـذه الأسـئلة ـ كـما يقـول الفرنسـيُّون- تـؤدِّي إلى حالـة «انزعـاج، أو عـدم راحـة» **déranger** ـتُزعِـج، أو بتعبـيرٍ أدَقَّ، تُفَـكِّكُ مـا تَـمَّ ترتيبـه بالفعـل. كان كامـو، في هـذا الصَّـدَد، رجـلاً أخلاقيًّـا **moralist**. لَم تَقـد هـذه الأسـئلة كامـو إلى الانعـزال والعَدَميَّـة، إنَّـما دَفَعَتْـهُ نحـو قِيَـم التَّضامـن والتَّعاضُـد، وشـكل مـن أشـكال الضَّرورة الأخلاقيَّـة. لقـد كان أخلاقيًّـا أصَرَّ عـلى أنَّـه في حـين أنَّ العـالَم عبثـيٌّ وغـير مَعقـول، ولا مجـال فيـه لبارقـة مـن الأمـل، إلا أنَّنـا ليـس محكومـا علينـا باليـأس. كان أخلاقيًّـا ذكَّرنـا بـأنَّ كلَّ مـا لدينـا في النهايـة هـو بعضنـا البعـض في عـالَمٍ صامـتٍ وغـير مُبـالٍ:

> «وفي أكثـر الفـترات العَدَميَّـة سَـواداً بَحَثـتُ فقـط عـن الأسـباب التـي تسـاعد عـلى تجـاوز هـذه العَدَميَّـة. ولم يَكُـن ذلـك منِّـي بدافـع الفضيلـة، وليـس للتَّربيـة الفُضـلى التـي تلقيتهـا، ولكـنَّ الإِخْـلَاص الفطـري لذلـك النُّـور الـذي رأيتـه حيـث وُلِـدت، وحيـث منـذ ألـف سـنة دَرَجَ نـاس تلـك البـلاد عـلى احـترام الحيـاة حتَّـى في الفـترات التـي تسـودها الآلام... وذات الـشيء نـراه عنـد أبنـاء اليونـان ممَّـن هـم أقـلُّ اعتبـاراً

على الرغم من إِخْلَاصهم البَيِّن، والذين لا نَعدم وجودهم في عصرنا الأعجف، إنَّ شُبوبَ النَّار في تاريخنا يبدو صعب التَّحقيق، ولكنَّ هؤلاء لا بدَّ فاعِلون لأنَّهم يريدون فهمه. إنَّ في قلب نتاجنا المُفعَم بالسَّواد شَمساً تشعُّ وليس لضيائها من خُمود، وتلك الشَّمس التي يفيض بهاؤها في هذه الأيام على السَّهل والتِّلال».[١٥]

تعتبر تجربة المُعاناة أساسيَّة وجوهريَّة في حياة الأخلاقي وعمله. لا شكَّ أنَّ هذه القناعة تَدعم الافتتاحية العميقة لمقال كامو المبكِّر «أسطورة سيزيف»:

«[إنَّ] الحكم بأنَّ الحياة تستحقُّ أن تُعاش، يَسمو إلى مَرتبة الجواب على السؤال الأساسي في الفلسفة».[١٦]

بالنَّسبة للكثيرين منَّا - بمن فيهم ممن لَم يُدرِكوا بعد بأنَّهم ينتمون إليهم-يبقى هذا هو السُّؤالَ الفلسفيَّ الأساسيَّ. هل حياتنا، المليئة حتماً بالخسارة والألم والمُعاناة - تستحقُّ منَّا وقتنا؟ لَم يَكُن لدى الإغريق، الذين كانوا مصدر الإلهام الأساسي لكامو، أيُّ شكٍّ: للمُعاناة مَزاياها. وكما أعلَنَ أسخيليوس المحبوب عند كامو عبر جوقته في أوريستيا، «**يجب أن نُعاني، أن نُعاني حقيقةً**». [١٧] تنطبق ملاحظة مارثا نوسباوم على الدَّور التَّربوي للمُعاناة في التِّراجيديا اليونانيَّة أيضاً على كامو:

«هذا نوعٌ من المعرفة يعمل عَمَلَه من خلال المُعاناة، لأنَّ المُعاناة هي الإقرار المناسب بطريقة حياة الإنسان في هذه الحالات».[١٨]

تَكمُـنُ عبقريَّـة المأسـاة اليونانيَّـة في أنَّهـا تَرفـض الإجابـات أو الحلـول. وتكمـن قيمتهـا في:

«وصـف الـصِّراع ورؤيتـه بوضـوح، والاعـتراف بعـدم وجـود مَخرَج واضـح. أفضـل مـا يمكـن أن يَفعلـه الإنسـان هـو أن يكـون لديه معاناتـه، والتَّعبير الطَّبيعـي عـن صَـلاح شـخصيَّته، وألَّا يكبـح هـذه الاسـتجابات بدافـع التَّفـاؤل المُضَلِّـل».[١٩]

تنطبـق هـذه الملاحظـة بالطبـع عـلى أعـمال كامـو وحياتـه، لكنَّنـا يجـب أن نتوخَّـى الحَـذَرَ هنـا. لَم يَكُـن جـواب كامـو عـلى الـشَّرط الإنسـاني هـو المُعانـاة بقَـدرِ مـا كانـت الحالـة العبثيَّـة للعـالم. فكـما جـاء في مقـالات مبكِّـرَة مثـل «**أعـراس في تيبـازة**»، وكذلـك عَملـه الأخـير «**الرَّجـل الأوَّل**»، بوجـود قـوَّة سـاحرة، كان كامـو يحـبُّ العـالَمَ. لكنَّـه لَم يَكُـن مُرتاحـاً مـع أولئـك الذيـن لا يُبالـون بجمالـه، ويشـيحون بأنظارهـم عـن الجاذبيَّـة الحسِّـيَّة للمناظـر الطَّبيعيَّـة لموطنـه المتوسِّـطي، وغـير المُخلصـين لإخوانهـم مـن البـشر. أن تكـون أخلاقيًّـا، كـما فهـم الأبيقوريُّـون، يعنـي أنَّـك يجـب أن تكـون حسِّـيًّا. لَم يَكـن واقـع معاناتـه فقـط، بـل جـذوره الضَّاربـة في عالَمنـا، مـا سَـمَحَ لكامـو أن يُعلِـنَ دون أيِّ تلميـح عاطفـيٍّ أنَّـه عـلى الرَّغـم «**من أنَّ في صميـم الشِّـتاء، يَظَـلُّ في نفـسي صيـفٌ خَفـيٌّ**».[٢٠]

عندمـا أَلَّفـتُ كتـابي الأوَّل عـن كامـو «**ألبير كامـو: عنـاصر حيـاة**» حاولـتُ أن أضَـعَ أفـكاره وكتاباتـه ضمـن سـياق أربـع لحظـاتٍ محوريَّـة في حياتـه، سـاعياً إلى شَرح معانيهـا مـن خـلال السِّـياقات التـي

تَكَشَّفَت عبرها. اعتقدتُ آنذاك، وما زلتُ حتى الآن بصفتي مؤرِّخاً، أنَّ هناك الكثير ممَّا يمكننا قوله لصالح هذا النَّهج. ولكن في الوقت الذي أكمَلتُ فيه الكتاب، لَم يُبارِحني شعوري بعَدَم الرِّضا: فبالنَّظر إلى السِّياق التّاريخي، شعرتُ أنَّني قد أهمَلتُ بعض الموضوعات الفكريَّة أو الأخلاقيَّة التي ارتبطنا بها منذ فترةٍ طويلةٍ مع عملِ كامو. كما هو الحال مع مسألة العَبَث، بعضها عناصر من الحالة الإنسانيَّة، كما هو الحال تماماً مع عناصر مثل الإِخْلَاص أو الْقِيَاس، فهي من الفَضائل التي يجب على البشريَّة أن تسعى من أجلها، أو كما هو الحال مع الصَّمْت أو التَّمَرُّد، وهما وَجهان أساسيَّان وأخلاقيَّان جدًّا في حياتنا. إنَّها، باختصارٍ شديد، ما أعتقد أنَّها عناصر ضروريَّة من جهودنا لعيش حياةٍ تستحقُّ أن تُعاش.

الفصل الأول

العَبَث

«هنالك مشكلة فلسفيَّة مهمة وحيدة، هي الانتحار. فالحكم بأنَّ الحياة تستحقُّ أن تُعاش، يسمو إلى منزلة الجواب عن السؤال الأساسي في الفلسفة. وكل المسائل الباقية - هل أنَّ للعالم ثلاثةَ أبعاد أم لا. هل أنَّ للذهن تسعةَ أصناف أم اثني عشر صنفاً - تأتي بعد ذلك. فهذه هي لعب، وعلى المرء أن يجيب أولاً». [1]

تركت هذه السُّطور الافتتاحيَّة لكتاب ألبير كامو «أسطورة سيزيف» - التي كانت من بين أكثر التَّحدِّيات شهرةً في القرن العشرين - الكاتب المرموق والرَّائد، أندريه مالرو، غير راضٍ تماماً. وبصفته كان مُحَرِّراً في دار غاليمار، دار النشر الأكثر شهرةً في فرنسا، وَجَدَ مالرو، الذي أُعجِبَ أشدَّ الإعجاب بمخطوطة كامو

الأخرى -الغريب- هذا العمل الجديد مُجهِداً ومُلتوياً. فكتب إلى المؤلِّف ناصحاً:

«قد تكون البداية متعثِّرة بعض الشَّيء، وبما أنَّك قد أوضحت أنَّ المقال سيتناول موضوع الانتحار، فلا حاجة لتكرار ذلك كثيراً».[٢]

لكنَّ مالرو كان مُخطئاً: فالمقال لا يتبنَّى مفهوم الانتحار، بل يتناول وضعنا العبثي. فإذا وجدنا أنفسنا ذات يوم «**في عالم جُرِّدَ فجأةً من الأوهام والنُّور**»، إذا كنَّا مصرِّين على إيجاد معنى، لكنَّنا بدلاً من ذلك لا نسمع «**إلَّا صمت العالم المُطبِق واللامعقول**»، وإذا استوعَبنا تماماً عواقب هذا الصَّمْت الرَّهيب، يقول كامو مؤكِّداً، يفرض الانتحار فجأةً نفسه باعتباره الجواب الوحيد لحالتنا.[٣] وعلى الرغم من تضييق مالرو الصَّارم، إلا أنَّ ذلك هو بالضبط السَّبب في أنَّ هذا السَّطر الافتتاحي في المقال يستحقُّ انتباهنا الكامل. فإذا بقيَ السُّؤال مُعَلَّقاً، فذلك لأنَّه أكثر من مجرَّد مسألة تاريخيَّة أو مصلحة شخصيَّة. إنَّ سعينا الدَّؤوب للعثور على معنى، والعواقب التي يجب أن نتوصَّل إليها خاليي الوِفاض، هي مسائل ذات طبيعة أبديَّة ومُلِحَّة.

لكن عندما نواجه السُّؤال، نكتشف أنَّ الفلسفة التَّقليديَّة لا تساعدنا كثيراً، أو ترشدنا إلى الطَّريق القويم. لم يكن لدى الفلاسفة أيُّ اهتمام بهذا الموضوع، كما كتب كامو، وهو سؤالٌ «بسيطٌ ومتواضِعٌ للغاية، ومَشحونٌ بالعاطفة في الوقت نفسه»[٤]. ولهذا السبب، أصَرَّ معظم الفلاسفة المحترفين، وما زال بعضهم

يُصِرُّون على أنَّ هذه مشكلة خاطئة، تلمع بخفوت كتيّار يزداد مُلوحَةً بسبب وجود ارتباك بالفئات الصُّوريَّة أو سوء استخدام للُّغة. ومع ذلك، هناك فلاسفة آخرون ينتقدون الآن فشل جماعتهم في فهم طبيعة الوجود المُعَنَّد للعبث في حياتنا. وكما يُصِرُّ روبرت سولومون، فإنَّ العبث:

«يسمِّم حياتنا اليوميَّة ويُضفي على كل تجاربنا قدراً عظيماً من العبثيَّة واللاجدوى........ إنَّنا نجد أنفسنا في محاولة يائسة للتحرُّك بسرعة أكبر، إلى اللامكان؛ أو أنَّنا نحاول تسلية أنفسنا»[٥].

من ناحية أقلَّ دراماتيكيَّة، لكنَّها بالقدر نفسه من التَّوكيد، يقارن توماس ناجل العبث مع ما يسميه «**نظرة من العَدَم**». هذه النَّظرة تنتزعنا من تجاربنا الذَّاتيَّة اليوميَّة وتجبرنا على تبنِّي وجهة نظر خارجيَّة - نظرة تهزُّ الأفكار والافتراضات المُسبَقَة التي نحتفظ بها حول حياتنا. هذه النَّظرة تفرض علينا حقائق مخيفة وتُصيبنا بالشَّلل - إنَّنا لم نَعِش الحياة على الإطلاق، أو إنَّ العالم والحياة سيستمرَّان بدوننا بعد أن نموت. عندما ننظر إلى أنفسنا من الخارج، يلاحظ ناجل، «**نجد صعوبةً في أخذ حياتنا على محمل الجِدِّ**». في مثل هذه اللحظات، نواجه العبث «**مشكلة حقيقيَّة لا يمكننا تجاهلها**» [٦].

من هنا قرَّر كامو التَّخلِّي عن المفردات والتقنيات التقليديَّة للفلسفة. فبدلاً من خوضها في سلسلة من الحجج، فإنَّ أسطورة سيزيف عبارة عن انفجار من الانطباعات، بعضها حميميٌّ،

وبعضها الآخر أدبيٌّ، وجميعها عاجلة وواضحة. مقالة «**أسطورة سيزيف**»، شبيهة بتلك التي كان يكتبها أحد الفلاسفة الذين اقتدى بهم كامو: ميشيل دي مونتين. يطارد كامو عبر صفحات مقالته فريسة الفلسفة الدَّائمة ـ سؤال «**مَنْ نحن؟، أين يمكننا أن نجد المعنى؟، وما إذا كان ذلك مُمكِناً؟، وماذا يمكن أن نعرف عن أنفسنا وعن العالم من حولنا؟**» ـ بغية الإمساك بها بدلاً من السَّعي وراءها. لم يَعُد كامو قلقاً حيال بقاء «**شيء ما مؤقّت**» لعمله كما فعل مونتين لدرجة أنَّ صورته الذاتيَّة استمرَّت في التغيُّر.[٧] وفي الحقيقة، تمكَّن كامو أن يحقِّق مع أسطورة سيزيف ما زعمه الفيلسوف موريس ميرلوبونتي لمقالات مونتين، فهي تخلُقُ:

«وعياً مندهشاً بذاته وتَضعه في صلب الوجود الإنساني».[٨]

بالنِّسبة لكامو، هذه الدَّهشة ناجمة عن مواجهتنا مع عالمٍ يَرفُضُ التَّخلِّي عن المعنى. ويحدث ذلك عندما تنتفي حاجتنا للمعنى أمام اللامبالاة الرَّاسخة والمُطلقة للعالم. ونتيجة لذلك، فإنَّ العبث ليس حالة مستقلَّة؛ إنَّه حالة غير موجودة في العالم، إنَّما تنبثق من الهاوية التي تفصلنا عن عالمٍ صامت:

«هذا العالم بحَدِّ ذاته غير معقول، هذا كلُّ ما يمكن قوله. لكنَّ الأمر العبثيَّ يتمثَّل في مواجهة هذا التَّوق غير العقلاني والجارِف للوضوح الذي يتردَّد صداه في قلب الإنسان. فالعبث يعتمد على الإنسان بقدر ما يعتمد على العالم. وهذا، في الوقت الحالي، هو كل ما يربطهما ببعضهما».[٩]

يقول كامو، إنَّ الاستدلال العبثي يشتدُّ مع وجود حاجة مُلِحَّة غريبة تفرض نفسها على الفلسفة التَّقليديَّة: لم يسبق أن ماتَ أحدٌ من أجل الجدل الأنطولوجي. حتى أعظم مستكشفي العَبَث من المفكِّرين الذين أعملوا عقولهم للتوصُّل إلى استنتاجات راسخة، قد انحرفوا عن مسارهم، مع وجود استثناءات قليلة، في اللَّحظة الأخيرة من هذه الرِّحلة. يقول كامو إنَّ كيركغارد كان أوَّل من طَرَفَت عيناه عندما واجَهَ النَّظرة الباردة والخالية من المعنى للعَبَث. إنَّ مفهوم «قفزة الإيمان» عند هذا الفيلسوف الدانماركي، بعيداً عن كونها عملاً بطوليًّا يتميَّز بالوضوح والمنطقيَّة، يرقى إلى مفهوم الانتحار الفلسفي. فبدلاً من القَفز نحوَ عالمٍ محكومٍ بالعَبَث، يتقهقر كيركغارد إلى الإله، الذي يُضفي عليه صفات العبث: **غير عادل، غير مترابط، وغير مفهوم**[١٠]. ويقول كيركغارد معترفاً، إنَّ وجود إلهٍ عبثيٍّ أفضل من فراغ لا يمكن سَبرَ أغواره.

وكما كان الحال مع مفكِّر مسيحيٍّ سابق، بليز باسكال، الذي كان مشهوراً بخوفه من «**صمْت هذا الفراغ اللامتناهي**»، كان كيركغارد يشعر بالرُّعب من مجرَّد احتمال حياة تقوم على العبث. لكنَّ كامو يُصِرُّ على أنَّ، بالنسبة إلى الإنسان العبثي، «**فالبحث عن ما هو حقيقي، لا يعني البحث عن ما هو مرغوبٌ فيه**»[١١]. ولكنَّنا لا يجب أن نَكُفَّ عن الاستكشاف، كما يؤكِّد كامو، إلَّا للإصغاء إلى صمْت العالم بحدَّة أكبر. في الواقع، يصبح هذا الصَّمْت مسموعاً عندما يدخل البشر في المعادَلة. إذا كان «**يرغب الصَّمْت بإسماع صوته، فذلك لأنَّ هؤلاء الذين يمكنهم سماعه**

يطالبون بذلك حتماً»[١٢]. وإذا استمرَّ الصَّمْت، فأين نَجِد المعنى؟ ما الذي يجب أن نفعله إذا لم نعثر على المعنى؟ هل يمكننا أن نعيش حياتنا بدون طمأنينة - بمجرَّد أن يوفِّرها الدين - المُبَرِّرات المُتعالية للعالم وقاطنيه؟

ويخلُص كامو إلى أنَّ المسألة هي **«معرفة ما إذا كان من الممكن العيش بدون إمكانيَّة للاستئناف»**[١٣].

*****

يظهر مفهوم العبث لأول مرَّة، كطَريدة فلسفيَّة وأدبيَّة، في مجلَّة كامو في أيار/ مايو ١٩٣٦، أي في الشَّهر نفسه الذي دافع فيه عن أطروحته حول الأفلاطونيَّة الجديدة في جامعة الجزائر **«عَمَلٌ فلسفيٌّ: العَبَث»**، حيث كَرَّسَ نفسه كجزء من خطَّته للدراسة والكتابة[١٤]. وبعد ذلك بعامين، في حزيران/ يونيو ١٩٣٨، يظهر العبث مرةً أخرى في قائمة جدول مهماته، ثمَّ مرَّةً ثالثة في نهاية العام نفسه. وعلى الرَّغم من أنَّ كامو كان ما يزال في مرحلة البحث والتأمُّل، كان قد قرَّر بالفعل أن يقترب من هذا الموضوع من خلال ثلاثة جوانب مختلفة، وفي آنٍ واحد: **كروائيٍّ، وككاتبٍ مسرحيٍّ، وككاتبِ مقال**. كان قد بدأ العمل على مسرحيَّته **«كاليجولا»** عام ١٩٣٨، مع أنَّه لم يتمَّ عَرضها حتَّى عام ١٩٤٥. أمَّا بالنِّسبة لرواية **«الغريب»**، فقد أتمَّ كامو مُسَوَّدتها قبل أيام فقط من اختراق قوَّات الغَزو الألماني غابات الأردين في أيار/ مايو ١٩٤٠. وفي ذلك الوقت، عندما كانت فرنسا تبدو صامدة وآمنة

عـلى الأقـل، إن لم تكـن منيعـة، وَصَـلَ كامـو إلى مـا وصفـه لمعلِّمـه السـابق جـان غرينييـه عـلى أنَّـه: «**مقالـةُ في العبـث**».[15]

وخـلال الفـترة نفسـها، اكتشـف كامـو كاتبـاً فرنسـيًّا آخـر كان لا يـزال مغمـوراً، وكان يتصـارع مـع العَبَـث. في عـام ١٩٣٨، اسـتأجر الصَّحفـي المُخَـضرَم باسـكال بيـا، الـذي أسَّـس صحيفـة مسـتقلَّة، Alger républicain، كامـو للعمـل في صحيفتـه. وبالنَّظـر إلى الوضـع المالي غـير المسـتقرِّ للصَّحيفة، وجـد كامـو نفسـه بسرعـة يقـوم بمهـمات عـدَّة، بـما في ذلـك كمُراجـعٍ للكتـب. وسرعـان مـا لَفَـتَ انتباهـه كتابـان صغـيران مـن تأليـف جـان بـول سـارتر: «**الجـدار**» و«**الغثيـان**». وَصَـفَ سـارتر في هذيـن العملـين الرائعين عالمـاً غارقـاً في محيط الصُّدفـة البحتـة. عـالمٌ عالـقٌ داخـل تيَّـارٍ جـارفٍ مـن الأحـداث التـي تفتقـر لأيِّ مُـبَرِّرٍ نهائـيٍّ أو خارجـيٍّ لهـا، لهـذا يغالبنـا شـعورٌ غامـرٌ بالغثيـان. مـا هـي الاسـتجابة الأخـرى التـي يمكـن أن نشـعر بهـا إزاء اكتشـافنا للأحـداث؟، مـا أن نُضفِـيَ عليهـا المعنـى، هـي أنَّهـا، في الحقيقـة، مجـرَّد أحـداثٍ تعسُّـفيَّة واعتباطيَّـة، وأنَّ أفعالنـا، بمجـرَّد تغليفهـا بالقَصديَّـة، مـا هـي إلا أفعـال ميكانيكيَّـة فقـط؛ وأنَّ العـالم، الـذي كان موطننـا وملجَأنـا منـذ قليـل، بـاتَ عالمـاً غريبـاً وموحِشـاً بـكلِّ بسـاطة.

ومـع ذلـك، عـلى الرَّغـم مـن أنَّ القصَّتـين كانتـا مُقنِعَتـين، إلا أنَّ كامـو خَلُـصَ إلى أنَّهـما لم تقدِّمـا لنـا سـوى نـوع مـن الأنانويـة الوجوديَّة. مـن المؤكَّـد أنَّ «**العـالم الكثيـف والدرامـي**» الـذي يـروي الأحـداث في روايـة «**الجـدار**» كان مُدهِشـاً وصادِمـاً، ولكـن مـاذا سنسـتفيد مـن

شـخصيَّات غـير قـادرة عـلى فعـل أيِّ شيء لـه معنـى مـع حريتهـا؟ وبالمثـل، في روايـة «**الغثيـان**»، تعجَّـب كامـو مـن تصويـر سـارتر للكثافـة الثَّقيلـة والغاشـمة للعـالَم، لكنَّـه أصَرَّ عـلى أنَّـه مـن الخطـأ الاسـتنتاج بـأنَّ «**الحيـاة مأسـاويَّة لأنَّهـا بائسـة**». وبـدلاً مـن ذلـك، يكمـن شـعورنا المأسـاوي بالحيـاة في الطَّبيعـة «**الغامـرة والجميلـة**» للعـالم ـ فبـدون الجـمال، بـدون الحـب، وبـدون الخطـر «**سـتكون الحيـاة سَـهلةً للغايـة**». ومـن عِـزِّ صبـاه، أكَّـد كامـو:

> «إنَّ ملاحظتنـا بـأنَّ الحيـاة عبثيَّـة لا يمكـن أن تكـون النهايـة، ولكنَّهـا مجرَّد بدايـة. ... مـا يهمُّـني هـو ليـس اكتشـاف [السِّـمَة العبثيَّـة للحيـاة]، بـل نتائـج وقواعـد العمـل التـي يجـب أن نسـتخلصها منهـا». [١٦]

عـلى الرغـم مـن حَداثـة سـنِّه، كان كامـو مُخَضرَماً في العبـث. فعندما كان طفلاً صغيراً، فقد والده في خِضَـمِّ الفوضى العبثيَّة في معركة المارن. وعندمـا كان مراهقـاً رياضيًّـا، سَـعَلَ دمـاً في أحـد الأيـام، واكتشـف أنَّـه مصـابٌ بالسُّـلِّ. كـما أنَّـه اكتشـف، عندمـا كان يعمـل مراسِـلاً لصحيفة Alger républicain، فيما وراء القيـم العالميَّة للحرِّيَّة والمسـاواة في الجمهوريَّة الفرنسـيَّة، الواقـع القاتم للسُّـكَّان العـرب والأمازيغ الذين يعيشـون تحت الإدارة الاسـتعماريَّة الفرنسـيَّة. وكَمُحَـرِّرٍ للصَّحيفة، قام بالوقـوف ضـدَّ عبثيَّـة الحرب العالميَّة التـي أصَرَّ ـ بوصفه رافضـاً مُلتزماً للعنـف ـ بطريقـة غـير واقعيَّة عـلى أنَّه كان بالإمـكان تجنُّبهـا. وباعتباره أحد المُسـالمين المَعفوِّين من مذكَّرة التَّجنيد بسـبب مَرَض السُّـلِّ، حاول كامـو جاهداً إدراج اسـمه فيها:

«لم تتوقَّف هذه الحرب عن كونها عبثيَّة، لكن لا يمكن للمرء الانسحاب من اللُّعبة لأنَّها قد تكلِّفك حياتك».[١٧]

وبكلمة واحدة، نشأ كامو على الدَّروس التي يمكن استخلاصها من عالمٍ يحكمه العبث. ولم يتشارك قناعاته هذه مع قرَّائه فقط بل مع خطيبته أيضاً، فرانسين فاور. (كان الزَّوجان ينتظران وضع اللمسات الأخيرة على الطَّلاق بين كامو وزوجته سيمون هاي، وكانت امرأة ساحرة ومغرية، لكنَّ إدمانها على المخدِّرات هزم جهود كامو الحثيثة لعلاجها). أخبر كامو فرانسين أنَّ معظم الناس يرون الحرب عبثيَّة، لكنَّ هذا لا يدلُّ على أيِّ شيء على الإطلاق، حيث أنَّهم يمضون بعد ذلك إلى الحياة التي اعتادوا عليها دوماً. لكن ما أثار اهتمامه كان العواقب الأخلاقيَّة لرؤيته هذه:

«ما أريد الوصول إليه هو طريقة تفكير إنسانيَّة، رؤية واضحة ومتواضعة، نوعٌ محدَّدٌ من السُّلوك الشَّخصي الذي ستواجه فيه الحياة كما هي، وليس مع أحلام يقظة».[١٨]

وفي نهاية المطاف، كان إصرار كامو على العواقب هو ما أدَّى إلى إغلاق الصَّحيفة عام ١٩٤٠. فقد كان مَكروهاً من قبل السُّلطات المَحليَّة بسبب هجماته التي لا هوادة فيها على معاملتهم للسُّكَّان العرب والأمازيغ، وضاعف كامو من حِدَة انتقاداته بعد أن أعلنت فرنسا الحرب في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩. فلأنَّه لم تَكُن لديه أوهامٌ حول ألمانيا الهتلريَّة، «**الدَّولة البهيميَّة التي لا تساوي**

فيها حياة الإنسان أيَّ قيمة»، رفض كامو أيضاً تغذية الأوهام حول نزاهة قادة فرنسا وصدقهم.[١٩] فكانت لديه قناعة بأنَّ هؤلاء الذين لا حول لهم ولا قوَّة - العمّال، والفلّاحين، والتُّجّار الصِّغار، والكَتَبَة - سيَدفعون ثمن هذا المَسير إلى الحرب مثلما فعل والده عام ١٩١٤. (فلم يكن قد فهم بعد أنَّ الضُّعفاء في فرنسا وفي باقي أنحاء العالم، كانوا سيدفعون الثَّمن حتى إن لم يُدفَع النَّازيُّون بالوسائل العسكريَّة). وكان جهاز الرِّقابة، مع عَزمه على الحفاظ على الروح المعنويَّة العامَّة، قد قام بقَمع الكثير من الأعمدة والزَّوايا النَّاشئة على الصَّفحة الأولى للصَّحيفة. أمَّا كامو، الذي كانت لديه النِّيَّة للالتفاف على الرِّقابة وخِداعها، فقد أعاد طبع مقاطع من الأعمال الأدبيَّة الكلاسيكيَّة، كمدخل فولتير عن «الحرب» من قاموسه الفلسفيِّ، لسَدِّ الثَّغرات. ومع ذلك، لَم تَنجُ حتَّى هذه المقاطع من مقصَّات الرِّقابة والمسؤولين.

وفي تشرين الثاني / نوفمبر، أعلن كامو في صحيفته:

«افْهَم هذا: يمكننا أن نَيأس من معنى الحياة بشكلٍ عام، لكن ليس من الأشكال الخاصَّة التي يمكن أن يتَّخذها المعنى؛ يمكننا أن نَيأس من الوجود، لأنَّنا لا نملك القوَّة حيال ذلك، ولكن ليس من التَّاريخ، إذ يمكن للفرد أن يفعل كل شيء. إنَّ الأفراد هم الذين يقتلوننا اليوم. لماذا لا ينجح الأفراد في منح السَّلام العالمي؟ كلُّ ما علينا فعله هو أن نبدأ ببساطة دون التَّفكير في أهداف عظمى كهذه.[٢٠]

والعقيدة نفسها -التي لم تعبِّر فقط عن نفاد صبر كامو من السَّلبيَّة التي تنطوي عليها النَّظرة الوجوديَّة للعالم، بل عَكَسَت أيضاً أخلاقه المهنيَّة الصَّارمة- ظهرت باللحظة نفسها في الصَّفحة الأولى من الصَّحيفة. تحت عنوان: «موقفنا». سعى باسكال بيا، رئيس التَّحرير، ومعه كامو ليشرحا لقرَّائهما سبب ازدياد المساحات البيضاء ضمن عدد من الصَّفحات التي قلَّت أعدادها في الصَّحيفة. لقد استنكرا في البداية وجود الرِّقابة ذاتها، ورفضا «**السَّفسطة القائلة إنَّه يجب قمع حرِّيَّة الأمَّة من أجل الحفاظ على معنويَّاتها**». ثم أكَّدا «**على الحقِّ في الدِّفاع عن تلك الحَقائق الإنسانيَّة التي تتراجع يوماً بعد يوم أمام المُعاناة وتطمح إلى السَّعادة... فالصَّالحون يرفضون اليأس، ويرغبون بدلاً من ذلك في الحفاظ على تلك القِيَم التي تمنَعنا من الانتحار بشكلٍ جماعيٍّ**».[٢١]

*****

وقد اتَّضح فيما بعد أنَّ صَرخة المُحَرِّرَيْنِ لم تلقَ سوى آذان صَمَّاء. وخلال أقلَّ من شهرين بعد ذلك، أغلَقَت السُّلطات الصَّحيفة، وأضحى كامو عاطِلاً عن العمل.

وبفضل بيا، الذي كانت له علاقات وصِلات وثيقة في باريس، سرعان ما وجد كامو له مكاناً في أواخر شهر مارس/ آذار عام ١٩٤٠ في صحيفة «**باريس سوار**» اليوميَّة الضَّخمة، التي يملكها الزَّعيم الصِّناعي جان بروفوس. شعر كامو بالاستياء في هذه

العاصمة الرَّماديَّة والرَّديئة، وانتابه الاشمئزاز من الأسلوب المقنَّن للصَّحيفة. وكتب كامو قائلاً:

«لقد كانت صحيفة باريس سوار متعفِّنة بالعاطفة، والجمال، والانغماس بالذَّات، وجميع المراجع اللاصقة التي يستخدمها المرء للدِّفاع عن نفسه في مدينة قاسية للغاية».

كما أصَرَّ على أنَّ من الأفضل بكثير مواجهة الواقع الكئيب الذي حَجَبَتْه هذه الاستراتيجيَّات الجبانة ـ وهي حقيقة ظهرت من خلال الحياة التي قضاها في الفندق الشَّنيع الذي استأجر فيه غرفة. وذات يوم، قامت إحدى الزَّميلات المُقيمات في الفندق بقتل نفسها بالقفز من نافذة الطَّابق الثَّالث إلى الفِناء. كان عمرها أكثر من ثلاثين سنة: «**كبيرة بما يكفي للعيش، وبما أنَّها عاشت لفترة قصيرة، فهي كبيرة لتموت**». وانتهى أمرها «**مع شَقٍّ بحجم ثلاث بوصات بجبينها. وقبل أن تموت، قالت: وأخيرًا**».[٢٢]

نعم، وأخيراً: كانت فرنسا، في حربٍ لكنَّها لم تكُن تحارب، مستعدَّةً للتَّعبير عن هذه الكلمة نفسها في نهاية آذار/ مارس ١٩٤٠. كانت البلاد في حالة حربٍ مع ألمانيا لأكثر من نصف عام، لكنَّها كانت نوعاً غريباً من الحروب، حربٌ مضحكةٌ بالطبع، بالكاد أطلَقَت خلالها الدَّولتان النَّار على بعضهما. كان الأطفال يذهبون إلى مدارسهم وهم يحملون حقائب مدرسيَّة مُعلَّقة في ظهورهم، وكانت الطاولات ممتلئة في المطاعم والمقاهي، وتحوَّلت النَّوادي الليليَّة والمَسارح إلى منازل مكتظَّة. وفي حين كانت أوبرا

باريس تتدَّرب على العرض الأول لفيلم Dereus Milhaud's Médée، كان الباريسيُّون يُدندنون الأغنية الشَّعبيّة الشَّهيرة «On Ira pendre notre linge sur la ligne Siegfried» (سنعلِّق غسيلنا على خط سيغفريد). وفي هذه الأثناء، أصدر الممثِّل والمُغَنِّي موريس شوفالييه أغنية ناجحة بعنوان Paris Reste Paris (باريس لا تزال في باريس) مع أغنية أخرى (إنَّها تجعل الشَّعب الفرنسي ممتازاً) Ca fait d'excellents français. وبالطبع، كان هؤلاء الفرنسيُّون الممتازون الذين أشاد بهم شوفالييه ـ المصرفيُّون والخبَّازون والشِّيوعيُّون والمحافظون والفلَّاحون والباريسيُّون ـ الذين بدوا الآن متَّحدين ضدَّ ألمانيا، كانوا قبل أشهر فقط يمسكون بحناجر بعضهم بعضًا. انقسم الرَّأي العام حول ما إذا كان شوفالييه، بابتسامته التِّجاريَّة، يتكلَّم عنهم بإِخْلَاص أم بسخرية.[٢٣]

وظلَّ السُّؤال نفسه مُحَلِّقاً فوق الصُّحف. فخلال شتاء وبدايات ربيع عام ١٩٤٠، روَّجَت الصَّفحات الأولى عن ثبات الزُّعماء السِّياسيِّين الفرنسيِّين، وتألُّقِ قادَة فرنسا العسكريين وحِنكتهم القتاليَّة، وشجاعة الجنود، بينما عَكَسَ التَّواترُ المُتَزايدُ للأعمدة الفارغة تصميم المُراقبين الحكوميين على دَفن وإقصاء أي تقارير تتعارض مع هذه التَّصريحات. تمَّ تصوير الانتصارات العسكريَّة الألمانيَّة، كاجتياح النَّرويج خلال فصل الشِّتاء الماضي، كجزء من خطَّة فرنسا الاستراتيجيَّة، في حين أنَّ انعدام الحركة على الجبهة الشَّرقيَّة كان يُعزى إلى وجود خَطِّ ماجينو المنيع. كانت العناوين

التـي اقترحتهـا وزارة الإعـلام المُعَيَّنَة حديثاً ـ عناويـن مثـل «سَـنَفوز لأنَّنا الأقـوى» ـ تُخفـي افتقـار الحكومـة المُرَوِّع للخيال الاسـتراتيجي، وقمعهـا للمعلومـات.[٢٤]

*****

تراجَعَـت العبثيَّـات الهَزليَّـة للحَـرب الزائفـة فجـأةً، وفتَحَـت المَجـال بعنـفٍ أمـام عبثيَّـات ذات حجـمٍ مختلـفٍ جذريًّـا. ففـي منتصـف شـهر أيَّار/ مايـو، شَـنَّت القيـادة العسـكريَّة الألمانيَّـة هجومـاً مُدَرَّعـاً عـبر محوريـن، أحدهمـا كان اجتياحـاً مـن جهـة الغـرب عـبر هولنـدا وبلجيـكا، والثـاني اخـتراق أدغـال آردن، الغابـة التـي تحـدُّ خـطَّ ماجينـو الـذي أصَرَّ القـادَة العسـكريُّون الفرنسـيُّون عـلى منعَتـه وصمـوده وعَـدَم إمكانيَّـة اختراقـه. وبعـد ذلـك بثلاثـة أيَّـام، دَخَلـت فرقـة مـن مُجَنـزرات البانـزر مدينـة سـيدان الشَّـماليَّة، حيـث دفعـت نحـو الجنـوب أوَّل موجـة نـزوح جماعـي لمـا بـاتَ يُعـرَف بأكـبر نـزوح غـير مَسـبوق في تاريـخ البشريَّـة.

وهكذا بدأ «الخروج» كما أشار أحد الكُتَّاب المُعاصرين:

«لا يمكـن سـوى لتجربـة مـن الكتـاب المقـدَّس أن تَصِـفَ هـذا النُّـزوح البـشريَّ؛ هـذا الانتقـال الكبـير مـن جـزءٍ مـن البلـد إلى جـزءٍ آخـر. إنَّـه يشـير إلى عـودة الفـوضى التـي سـادت خـلال الأزمنـة الماضيـة، والـبَراري التَّاريخيَّـة التـي جابَـت بنـات آوى أرجاءهـا».[٢٥]

بحلول أوائل شهر حزيران/ يونيو، تدَفَّقَ أكثر من نحو ستَّة ملايين رجل وامرأة وطفل من بلجيكا وشمال فرنسا وباريس نحو الجنوب الفرنسي. ومع أنَّ كلمة «تَدَفَّقَ» قد تبدو مُضَلِّلَة، إلى أنَّ كلمة «تَجَمَّدَ» تصف بدقَّةٍ أكبر الخطوط الكثيفة والمُتراصَّة للمدنيِّين، التي انضَمَّ إليها عددٌ مُتَزايدٌ من الجنود، الذين أخذوا يتزاحَمون ويتدافعون ضدَّ بعضهم في السَّيارات، والعَرَبات التي تجرُّها الخيل، والدَّرَّاجات الهوائيَّة. عندما كان الوقود يَنفَد من المُحَرِّكات أو الهواء من الإطارات، كان أصحابها يجرونها على جانبي الطَّريق، وينضمُّون إلى قافلة الغالبيَّة من اللاجئين النَّازحين الذين حُكِمَ عليهم بالفَرار سيراً على الأقدام. هذا السَّيل العظيم من البشر لَم يَكُن ضحيَّة فقط لقصف قاذفات القنابل شتوكا، ولكن بسبب الانهيار التَّام للسُّلطة المدنيَّة أيضاً. بالطبع عندما قَرَّرت الحكومة الفرنسيَّة، بعد أسابيع مِنَ التَّرَدُّد، في ٩ حزيران / يونيو، إخلاء مدينة باريس، كان وجودها قد تَبَخَّرَ إلى حَدٍّ كبيرٍ في معظم أنحاء البلد. وبينما انتقلت الحكومة من بوردو إلى كليرمونت-فيران إلى فيتشي، انهارت خطوط الاتصال وبقيَ الممثِّلون المَحَلِّيُّون حَيارى دون أيَّة فكرة عن ما يجري. لقد انهارَ نَمَط الحياة اليوميَّة في فرنسا الجمهوريَّة فجأةً.

ومع ذلك، ظلَّت سلسلة القيادة في صحيفة باريس-سوار سليمة. وببصيرة أعلى وأكبر من بصيرة وتخطيط القيادة الفرنسيَّة العُليا، قام بروفوست قبل أسابيع بتمشيط البلاد طولاً وعرضاً عن مواقع، حيث يمكن لصحيفته متابعة النَّشر في حال تَعَرَّضت

باريس للتَّهديد أو الغَزو. وقد وَقَع اختياره على كليرمونت-فيران، عاصمة إقليم أوفرن وسط فرنسا. لم تَكُن هذه المدينة بعيدة عن الجبهة فحسب، بل كانت مَركزاً لصحيفة «لومونيتور»، التي وافق مُحَرِّرها بيير لافال على مشاركة مطبوعات أعداده مع بروفوست. وفي ١١ حزيران / يونيو، ظهرت «باريس-سوار» للمرَّة الأخيرة في باريس، وقام الموظَّفون المتبقُّون، ومن بينهم كامو، بحَزم حقائبهم بسرعة والانضمام للنُّزوح.

وبحلول ذلك الوقت، سمع الباريسيُّون صدى نيران المدفعيَّة في الشَّمال، واشتمُّوا روائح احتراق احتياطي البترول في الغرب، لكنَّهم لم يتمكَّنوا من العثور على أيِّ مسؤولين في أيِّ مكان للإشراف على عمليَّة الإخلاء. وقد ملأت بسرعة الشائعات والارتباك والخوف الفَراغ الذي خلَّفته الحكومة. توجَّه كامو جنوباً يقود إحدى سيَّارات صحيفة «باريس-سوار» إلى كليرمونت-فيران برفقة مُراجِع يجلس بجانبه، ومُحَرِّر في المقعد الخلفي. وعندما انعَطَفَت السيَّارة أخيراً إلى كليرمونت-فيران في الليلةَ التالية، كان خَزَّان الوقود فارغاً، والدُّخان ينبعث من تحت غطاء المحرِّك، قَفَز كامو من مقعده، وهَرَعَ إلى الصُّندوق، فَتَحَه عنوةً ثمَّ تَنَهَّدَ بارتياح: كانت حقيبته مليئة بمخطوطاته التي كانت لا تزال سليمة.

*****

لاحظ كامو أنَّ:

«العَبَث هو تجربة يجب أن نعيشها ونجرِّبها، نقطة انطلاق، يعادل، في وجوده، شكَّ ديكارت المنهَجيَّ.[٢٦]

إنَّ روايته «**الغريب**»، إحدى المخطوطات التي كانت داخل حقيبته، تعيد صياغة تلك التَّجربة ذاتها. ولكنَّ كامو لَم يتبع ديكارت، الذي انسَحَبَ إلى غرفة ساخنة في ألمانيا المُغَطَّاة بالثلوج لمواجَهَة شيطان الشَّكِّ. وبدلاً من ذلك، أرسل بطل روايته، ميرسو، إلى شواطئ الجزائر المُشمسَة لمواجهة صمْت العالَم. مع أنَّ العديد من القُرَّاء يعرفون القصَّة بالفعل - ففي النهاية، تظلّ رواية «**الغريب**»، بعد مرور أكثر من سبعين عاماً على نشرها سنة ١٩٤٢، إحدى أكثر الكتب مبيعاً في غاليمار - لكنَّها لا تزال تُزَعزِعُ توقُّعاتنا.[٢٧]

وبلغةٍ بيِّنَةٍ كشارع تحت شمس منتصف الظَّهيرة في الجزائر، يخلق كامو شخصيَّة تخلو حياتها من الطَّيف الذي تمنحه عمليَّة التَّأمُّل الذَّاتي للإنسان. عائقٌ غير قادرٍ على الحب، وابنٌ غير قادرٍ على الحِداد على والدته، وقاتلٌ يبحثُ عن أيِّ دافعٍ لجريمته، يعيش ميرسو بدون تفكيرٍ بالماضي أو المستقبل، لكنَّه بدلاً من ذلك ينزلق عبر تيَّارٍ لا نهاية له من لحظاتِ الحاضر. وفي نهاية عطلة الأسبوع التي قضاها مُسافراً إلى دار الرِّعاية حيث توفِّيت والدته، وبعد ممارسة الجنس مع امرأة كان قد التقى بها على الشاطئ، يجلس ميرسو في كرسيِّه على شُرفته المطلَّة على الشَّارع الرئيس في حيِّه. من الظُّهر حتى العشاء، كان يُدَخِّن وهو يُقَلِّب ناظريه بين المارَّة في الشَّارع والسَّماء. هذه اللوحة المتغيِّرة لا تثير لديه لا الذِّكريات

ولا الآمال، ولكنَّها بالكاد ترتقي فوق تجربة الوصف. مع حلول الليل وبرودة الهواء المُنعش، يغلق ميرسو النَّوافذ ويعود إلى غرفته:

«نظرتُ في المرآة ورأيتُ ركناً من طاولتي مع مصباح الكحول بجوار بعض فُتات الخبز. خَطَرَ لي أنَّ يوم أحدٍ آخر قد شارف على نهايته على أي حال، وأنَّ أمِّي مَدفونةٌ الآن، وأنَّني عائدٌ إلى عملي، وأنَّ شيئاً لم يتغيَّرَ في الواقع».[٢٨]

ومع ارتباط الحياة دائماً بالزَّمن الحاضر بحيث لا يبقى هناك مكانٌ لأفعال سابقة أو لاحقة، لا شيء يتغيَّر. أو، بشكلٍ أدَقَّ، لا نرى التغيير إلا مع الانعكاس. علاوة على ذلك، مع التغيير فقط نرى انعكاسنا الخاص. عندما ألقى ميرسو نَظرَةً على انعكاسه في المرآة، لم يَرَ نفسه -وهو مُحِقٌّ في ذلك، إذ لا يوجد حتى الآن ما يمكن رؤيته. هذه هي المفارقة التي يُكسيها ميرسو لَحماً: بالنِّسبة له، لا تُعاش الحياة إلا في هذه اللحظة ـ اللحظة التي تُسَجِّل فيها أجسامنا الأحاسيس التي تجتاحها ـ فهي الوحيدة ذات معنى. ومع أنَّه لا يُبالي بالماضي ولا بالمستقبل، فهو غير قادرٍ على استيعاب أي معنى لوجوده. فعندما تسأله الفتاة التي مارس الجنس معها، ماري، إن كان يحبُّها، يردُّ ميرسو بأنَّ السُّؤال «**لا يعني أي شيء، لكنَّني لا أعتقد ذلك**».[٢٩] ولا أهميَّة حتَّى بالنِّسبة لموت العربي، كلُّ ما يعرفه ميرسو هو أنَّه، عندما سحب زناد مسدَّسه في يومٍ مُشمِسٍ، فقد حَطَّمَ: «**الصَّمت الاستثنائي للشاطئ، حيث كنتُ سعيداً**».[٣٠]

بالطبـع، لا يمكـن إلا لكائـنٍ مفكّـرٍ يُـدركُ انعكاسـه أن يَدَّعـي أنَّـه كان سـعيداً ذات مَـرَّة. إنَّ محاكمـة ميرسـو وسَـجنه ـ الأحـداث القاتلـة التـي دفعتـه لوعـي ذاتـه ـ تشـبه تصويـر جـان جـاك روسـو لإنسـانه الهمجـي l'homme sauvage، أو الإنسـان البدائـي، الطَّبيعـي، الـذي يجـد نفسـه مُقَـدَّراً عليـه السُّـقوط في المجتمـع. مثـل كامـو، وهـو متحـدِّثٌ فرنسـيٌّ لم يشـعر قـطُّ بأنَّـه في موطنـه بفرنسـا، ورجـلٌ كانـت حياتـه مُمزَّقـة بالكامـل بـين التَّجاذبـات المُتعارضـة للعُزلَـة والتَّضامـن، لأكَّـدَ روسـو المولـود في جنيـف أنَّ الإنسـان في حالتـه الطَّبيعيَّـة كان أسـعد الكائنـات لأنَّـه كان، ببسـاطة، أغبـى الحيوانـات. إنَّـه كائـنٌ:

«روحـه، التـي لا يُحرِّكهـا شيء، يتنـازل عـن الشـعور الوحيـد بوجـوده الحـاضر بـدون أيَّـة فكـرةٍ عـن المسـتقبل، مهـما كان قريبـاً، ومشـاريعه، محـدودةٌ كمحدوديَّـة آرائـه ووجهـات نظـره، بالـكاد تمتـدُّ حتَّـى نهايـة يومـه».[31]

وفي حـين أنَّ السِّـجن، بالنِّسـبة إلى روسـو، يرمـزُ إلى مجتمـعٍ يقمـعُ ويخنـقُ طبيعتنـا ويقيِّـد احتياجاتنـا، لأنَّ سـجن ميرسـو عبـارةٌ عـن حديـدٍ وحجـارة، وبعـد حَبسـه، يبـدأ ميرسـو في تحويـل حياتـه إلى قصَّـة، حيـث يلعـب هـو الـدَّور الرَّئيـس فيهـا. وعندهـا فقـط يتذكَّـر «وقتـاً معيَّنـاً كنـتُ فيـه سـعيداً»، ويحـاول الهـرب مـن كلّ مـا مَـرَّ بـه مـن قبـل، دون وعـيٍ منـه ولكـن عـن قصـد، مـن تجربتـه ـ أي زمـن الحـاضر الـذي لا ينتهـي، مُدَّعيـاً أنَّ:

«كلمات مثل البارحة وغداً ما زالت لا تنطوي على أيِّ معنى بالنِّسبة لي».[٣٢]

*****

لَم تَكُن حياته السابقة عبثيَّة أكثر من حياة رجُلٍ روسو الطَّبيعي. فالعَبَث يدخل حياتنا فقط عندما يُغلَقُ باب السجن علينا ـ أو عندما نقيس من مُرتَفَعات المجتمع المَدَى الذي وَصَلنا إليه من الهبوط.

وقبل أسابيع فقط من «**الخروج**»، كان كامو يتصارع مع المخطوطة التي ستصبح فيما بعد تحمل عنوان «**أسطورة سيزيف**». كتب كامو إلى فرانسين من باريس، مُعتَرِفاً بقلقه من محاولته تدوين أفكاره وملاحظاته ضمن مقال:

«أنا خائفٌ من كَم الجهد والاهتمام الذي يتطلَّبه ذلك. أنا غارقٌ بملاحظاتي ووجهات نظري».

وأصبحت الملاحظات أقلَّ أهمِّيَّة مع زيادة أهمِّيَّة وجهات النَّظر التي باتَ بريقها يُعمي الأبصار. ومع أنَّ كامو لا يقدِّم سوى إشارات تاريخيَّة أو سياسيَّة مُحَدَّدَة وصريحة، إلا أنَّ مقاله يُرَدِّدُ صدى دَوِيِّ الكارثة التي حَلَّت بأوروبا. ونتيجة لذلك، سرعان ما تَحَوَّلَ المقال الذي بدأه كامو أوَّلاً كَمَسارٍ عاطفيٍ فكريٍّ خاصٍ به إلى بَحثٍ مُعَمَّقٍ وعنيدٍ عن معنى في عالَمٍ انهارت فيه قيَمُهُ وتوقُّعاتُه تماماً.

وتحوَّلت صحيفة كليرمونت-فيران السَّمِجة، وبشكلٍ غير متوقَّع، إلى ساحَةٍ مُلائِمَةٍ للعَمَل على المقال. وقد صَرَّحَ كامو في رسالةٍ إلى أحد الأصدقاء:

«هذه المدينة لها مَظهَرٌ يَبعَثُ على الغثيان». [٣٣]

وقد غَمَر كامو أيضاً نوعٌ مختلفٌ مِنَ الغثيان، ليس ذلك النَّوع الذي تُثيره عَرَضيَّة الحياة وعبثيَّتها، بل بالأحرى سياسات الحكومة التي وَصَلَت إلى كليرمونت تحت رعاية المارشال فيليب بيتان. وفي رسالةٍ له إلى فرانسين، أفضى لها كامو بهجومه:

«الجبنُ والخَرَفُ والعَجزُ هو كلُّ ما يقدِّمونه. سياسات مؤيِّدَة لألمانيا، ودستورٌ على غرار دساتير الأنظمة الاستبداديَّة، وخوفٌ كبيرٌ مِن ثورةٍ لَن تَندَلِع: وكلُّ ذلك من أجل الخُنوع لعَدُوٍّ قد أخضَعَنَا وسَحَقنا فعلاً، والحفاظ على امتيازات تافِهَة وغير مُهَدَّدَة أصلاً». [٣٤]

وبالنَّظر إلى الزُّعماء السِّياسيِّين والمُتَشَبِّثين بالسُّلطة ومَن دار حولهم، شَعَرَ كامو كأنَّه يختنق. وعندما كَشَفَ النِّظام الجديد عن طابعه المُعادي للسَّاميَّة، طَرَدَت صحيفة باريس-سوار كلَّ موظَّفيها مِنَ اليَهود. أخبَرَ كامو، فرانسين، مُنزَعِجاً بأنَّ أيَّ وظيفة مهما كانت في الجزائر، حتَّى لو كانت في مَزرعة، ستكون أفضل بكثير من العمل بباريس-سوار. وبطبيعة الحال، بَدَت الجزائر الآن بالنِّسبة له المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه حُرًّا، ويقول عنه إنَّه «فرنسيٌّ» حقًّا.

وفي الوقت الحالي، مع ذلك، بقيَ كامو في كليرمونت-فيران. مُكَرِّساً جهده ووقته واهتمامه لكتاباته، وأعادَ تسمية ما أطلَقَ عليه سابقاً عنوان «**مقالٌ في العَبَث**». لقد وَضَعَ له عنواناً مناسباً: أسطورةُ سيزيف»، مع أنَّ الصَّفحات الأربع الأخيرة فقط من المقال هي التي تناولت الأسطورة.

يقول كامو إنَّ العَبَث ابن التَّفاوت. إنَّه يرتفع أمامنا عندما تَقِفُ توقُّعاتنا قاصِرَةً أمام الواقع. من أبسَط حالَة إلى أكثر الحالات تعقيداً، يكتب قائلاً: «**إنَّ مقدارَ العَبَث سيتناسب مباشرةً مع المسافة بين مصطلحين في مقارنتي**». وكمثالٍ على المصطلحات التي يقارن بينها يقترح علينا بعضاً منها: الزَّواج والعَقَبات، الخصومَة والصَّمْت، الحروب ومُعاهدات السَّلام.[٣٥]

عند قراءة هذه السُّطور، قد يعتقد أصدقاءُ كامو المقرَّبون بأنَّه يتحدَّث عن زواجه البائِس بسيمون هاي، ورئتيه اللتين أضعَفَهما مَرَض السُّلِّ، والصِّراعات الطَّبقيَّة التي غَطَّاها في أثناء عمله مُراسلاً في الجزائر، وصمْت أمِّهِ الذي اضطرَّ لتحمُّله والتَّعامل معه طوال حياته. أو قد يتذكَّرون تجربة كامو في العمل بمتجرٍ للخردوات خلال عطلة الصَّيف، وقضاء أيَّامٍ طويلةٍ مُنخَرِطاً «**في عَمَلٍ يأتي مِنَ العَدَم ولا يُفضي إلى أيِّ مكان... مُنتَظِراً الأمر الذي سيجعله يقوم ببعض الأعمال العبثيَّة المُتَسرِّعَة والسخيفة: بروفا في العبثيَّة السيزيفيَّة**». وكانت أيضاً جهوده البائسة والفاشلة كصبيٍّ لترجمة الأفلام الصَّامتة بسرعة حتَّى يتسنَّى لجدَّته مواكبة الفيلم، ولكن بهدوءٍ وصوتٍ خَفيضٍ حتَّى لا يُزعِج المشاهدين الآخرين.[٣٦]

بالنِّسبة لهؤلاء الذين لَم يعرفوا كامو، لكنَّهم كانوا يعرفون الحرب ومُعاهداتها، كانوا يشعرون بالعبثيَّة تمُدُّ أذرعها الأخطبوطيَّة في قلوبهم. على الرَّغم من وجود فصلٍ واحدٍ فقط في دفتر ملاحظات كامو يتناول مسألة النُّزوح الجماعي، إلا أنَّ تجربة فرنسا عام ١٩٤٠ تَطغى على المقال. يعتقد كامو أنَّ هذه الحقيقة في غاية الأهمِّيَّة بما يكفي للتأكيد عليها عند نشر الطَّبعة الأمريكيَّة من كتابه «**أسطورة سيزيف**» سنة ١٩٥٥. في مقدِّمته، طَلَبَ من قرَّائِهِ التَّساهُلَ والفَهمَ. فالكتاب، يقول كامو مُذكِّراً إيّاهُم، «كُتِبَ قبل خمسة عَشَرَ عاماً، سنة ١٩٤٠، في خِضَمِّ الكارثة الفرنسيَّة والأوروبيَّة».[٣٧]

كانت هزيمة فرنسا بمثابة انفصالٍ عنيفٍ بين أمَّةٍ ومؤسَّساتها. لَم تَكُن موارد فرنسا المادِّيَّة والعسكريَّة أدنى بكثيرٍ من موارد ألمانيا: في بعض الحالات كانت متفوِّقة عليها. وقد أدَّى التَّفاوت بين قوَّة فرنسا، نظراً لكميَّة ونوعيَّة مواردها، وسرعة انهيارها، إلى دفع المؤرِّخ والجندي والمُقاوِم مارك بلوك إلى تَعميد الحَدَث باعتباره «**هزيمة غريبة**». ولو أنَّه نجا مِنَ الحرب ـ فقد اغتاله جهاز الغستابو عام ١٩٤٤ ـ ربَّما اتَّفق بلوك أنَّها لَم تَكُن أقلَّ عبثيَّة من الغَرابة.

أمَّا بالنِّسبة للنُّزوح الجماعي، أيُّ تفاوُتٍ عظيمٍ ذلك الذي يمكن أن يَحدث بالنِّسبة للملايين النَّازحين الذين ـ قبل أيَّامٍ فقط من سقوطهم في الدَّوَّامة التي خلقها انقلاب الجمهوريَّة الفرنسيَّة ـ مازالوا يؤمنون وبغباء وعِنادٍ بديمومة مؤسَّساتهم المَدَنيَّة والقانونيَّة والسِّياسيَّة، بالإضافة إلى ثبات ودَوام حيواتهم اليوميَّة:

«ركـوب الـتِّرام، أربـع سـاعاتٍ في المكتـب أو المَصنَـع، وجبـة طعـام، تـرام، أربـع سـاعاتٍ مِـنَ العَمَـل، وجبـة طعـام، نـوم، واثنـين، وثلاثـاء، وأربعـاء، وخميـس، وجمعـة، وسـبت، عـلى المنـوال نفسـه». [٣٨]

هـذا هـو «مـا قبـل» حياتنـا، فغيـاب لحظـات التَّوقُّـف في حياتنـا يعكـس السَّلاسَـة الانسـيابيَّة لأيَّامنـا ـ أي حتَّـى اللحظـة التـي تتفكَّك فيهـا هـذه السَّلاسـة فجـأةً.

تلك اللحظة من التَّفكُّك يمكن أن تكون مُبتَذَلة كمحادثة عامَّة أو تفاعل، أو قد تكون استثنائيَّة وقويَّة كهَجمة من هجمات طائرات شتوكا عليك. إنَّها اللحظة التي يتمُّ فيها إيقاظنا من حياتنا الرُّوتينيَّة بهَمسَة أو بانفجار، وكلاهما يتطلَّب سؤالاً: «لماذا؟» بإصرارٍ متساوٍ وغير متوقَّع. وبتعبٍ تملؤه الدَّهشة، مُحَدِّقاً في السماء الفارغة للحصول على جوابٍ، أو غريبٍ في قمرة قيادة طائرة مُصَمِّم على قتلنا جميعاً، نرى الواجهات والمَظاهر الزَّائفة تنجلي «ويصبح العالَمُ كما هو مَرَّةً أخرى». [٣٩]

ومـع أنَّنـا قـد نحـاول العـودة إلى مـا عرفنـاه وألِفنـاه ذات مَـرَّة، إلا أن غرابـة وضعنا/ مأزقنـا البـشري قـد طَغَـت علينـا. وفي خضـمِّ كلِّ ذلـك، يشـبه ردُّ فعلنا إلى حَـدٍّ كبيرٍ الموظَّـف الـذي شـاهده كامـو ينقـل مصرفـه إلى كليرمونـت:

«إنَّـه يحـاول المحافظـة عـلى عاداتـه نفسـها. ويـكاد ينجـح تقريبـاً. لكنَّـه يشـذُّ خـارج السِّرب قليـلاً». [٤٠]

*****

نقلت باريس- سوار مكاتبها مرَّةً أخرى في شهر أيلول/ سبتمبر كغيرها من العديد من المؤسَّسات الأخرى من كليرمونت-فيران إلى ليون، حيث سكن موظَّفوها في فندقٍ تزيِّن جدرانَهُ لوحاتٌ لنساءٍ عاريات، الأمر الذي ذكَّر كامو بأنَّ المبنى، الموجود في قلب منطقة الأضواء الحمراء، كان في الأصل مَركزاً للدَّعارة. حتى ذلك الوقت تحوَّلت الصَّحيفة، على نحوٍ ملائِم، إلى بوقٍ مُخزٍ للنِّظام الاستبدادي الموجود الآن في موقع السُّلطة، تُرَدِّدُ بببَّغائيَّة ادِّعاءات الرَّجعيَّة، والأبويَّة، ومُعاداة الأجانب التي تخلَّلت خطابات بيتان. كما تمَّ تعزيز خطاباته ونصوصه ورَدفُها بصور أرتالٍ من الكبار في السِّنِّ والصِّبيان -كل ذكر تقريباً كان أسيرَ حَربٍ في ألمانيا- رافعين أيديهم فوق رؤوسهم المُغَطَّاة بالقبَّعات وهم يُحيُّون زعيم البلاد الجديد. وعندما زار بيتان ليون، كان قُدامى المُحاربين في الحرب العالميَّة الأولى يملؤون السَّاحة المركزيَّة في المدينة. حيث تمتمَ أحد الحاضرين من الوفد وهو ينظر إلى الأسفل باتجاه الحشود المُجتمعة أنَّ المشهد يذكِّره «**بمَدفَنٍ مَليءٍ بالعظام الحيَّة**». [٤١]

مع ازدياد سوء حالة الطَّقس، ازداد انزعاج كامو وقلقه حول صحيفة باريس-سوار. وعندما أغلقت الصحيفة في أوائل شهر تشرين الأول/ أكتوبر بعد أوَّل حزمة من تشريعات النِّظام المُناهضة للسَّاميَّة، كتب كامو إلى صديقة يهوديَّة، هي إيرين ديغان، مُعَبِّراً عن عارِهِ واشمئزازه. وقال لها مؤكِّداً:

> «لا يمكن لهذه الرِّيح أن تستمرَّ، إذا أكَّدَ كلُّ واحدٍ منَّا، وكلُّ فردٍ حُرٍّ منَّا بهدوءٍ أنَّ هذه الريح تحمل معها رائحة كريهة». [٤٢]

وقد وَعَدَ بأنَّه سيقف إلى جانبها دوماً ـ وهو بحَدِّ ذاته موقفٌ رائعٌ لأيِّ شخص فرنسي سنة ١٩٤٠ عندما تبنَّت الغالبيَّة العظمى من مواطنيه القوانين الجديدة وخَضَعوا لها. وقد سَجَّلَ في دفتر ملاحظاته عَدَداً من الإشارات التَّاريخيَّة: «**فالقدِّيس توماس اعترف بحَقِّ الرَّعايا بالثَّورة**»، وفي حين أنَّه في عصر النَّهضة تمَّ قتل سيينا كوندوتييري على أيدي سكَّان المدينة التي أنقَذَها، ثمَّ طالبهم بالسُّلطة والطَّاعة المُطلَقَة مقابل ذلك.[٤٣]

انضمَّت فرانسين إلى كامو في أوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر: حيث جرى تثبيت الطَّلاق مع هاي أخيراً، وبات بإمكانهما الزَّواج الآن. وبعد حفل زفافٍ مدنيٍّ في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر، قام الزَّوجان، بصحبة بيا ومنضِّدي الصَّحيفة، باقتراح نخب الزواج في حانة مجاورة. بالنَّظر إلى الأكاذيب التي تمَّ تمريرها حتَّى الآن كحقائق في باريس-سوار، وَجَدَ كامو عزاءه في العمل إلى جانب مُنَضِّدي الحروف المَطبعيَّة: فَهُم يمكنهم، على الأقل، أن يجدوا متعةً مُبَرَّرة في عملهم الماهِر. خلال بقيَّة الشَّهر، عندما لم يكن يعمل خلال النَّوبة الليليَّة في مكاتب الصَّحيفة، عمل كامو على كتابه «**الأسطورة**» مع فرانسين في شقَّته الباردة والخالية من أيِّ وسيلة تدفئة. وعندما عَجِزَ كامو عن إيجاد آلة كاتبة، كَتَبَ نَصَّهُ بأصابع مُتَصَلِّبَة ومُتَقَرِّحَة، بينما قامَت فرانسين ـ مُرتَدِية القفَّازات ـ بإعادة نَسخ النَّصِّ. في تلك الغرفة الجليديَّة والفارغة، كما هو الحال في «**هذا العالَم البائِس والمثير للغثيان حيث الخلد حتَّى يجد لنفسه سبباً للعيش**»، تمسَّك كامو بكتابه والعالَمَ الذي صوَّرَه، إذا لَم يَكُن من أجل الأمَل، فليس

من أجل اليأس على الأقل.[٤٤]

*****

ونحن نعرف كيف تنتهي قصَّة سيزيف: إنَّها لا تنتهي أبداً. إنَّها خُلاصَة لا تُستَخلَص أبداً، تُقاس بالمسافة بين قمَّة الجبل وآخر امتداد للمُنحدَر الذي يجب أن تغطِّيه الصَّخرة الضَّخمة. لكنَّ القليل فقط مَن يعرفون كيف بدأت حكاية سيزيف ومأساته. للحكاية عددٌ من البدايات المختلفة. لقد لَّمح كامو إلى بعض الإصدارات، لكنَّه لَم يتوقَّف عنها كثيراً.

كان سيزيف، ابن أيولوس، إله الرِّيح، وكان محتالاً ومُخادعاً. يحتال على البشر والآلهة مِراراً وتكراراً. ولعلَّ أكبر خدعةٍ قام بها كانت مع الإله هادِس الذي، بأمرٍ من زيوس، قد جاء مزوَّداً بالأصفاد لجَرِّ سيزيف إلى العالَم السُّفلي. ولكن بدلاً من ذلك، قام سيزيف بتقييد هادِس عندما طلب من الإله أن يُريه كيف تَعمل الأصفاد. وتَفاقَمَت عبثيَّة تكبيل إلهٍ بالأصفاد أكثر من جَرَّاء العَواقب التي نَجَمَت عنها: في حين أنَّ هادِس كان مُصَفَّداً، لَم يَعُد يَموت أحد. وقد تمَّ حلُّ هذا المأزق غير المُرضي تماماً عندما أطلَقَ آريس، إله الحرب، هادِس من قيوده، وأمسَكَ بسيزيف، وسَلَّمَه لمصيره.

ومع ذلك، ظلَّ سيزيف يقاوم حتَّى ذلك الحين. فبينما كان آريس يستعدُّ لتَرحيله، همَسَ سيزيف لزوجته، ميروبه، ألا تَدفن جثَّته. وبعدَ تسليمه إلى برسيفونه، أخبَرَ الرَّجل المُخادع مَلِكَة

العالَمَ السُّفلي بأنَّ وجوده هناك غير لائقٍ: فعلى الرغم من أنَّه قد مات، إلا أنَّ جسده لَم يُدفَن. لذلك قال سيزيف مُستَنتجاً، بأنَّه على الجانب الخطأ من نَهر ستيكس. وحين حاوَلَت برسيفونه القائمة استيعاب القصَّة، أضاف سيزيف طالباً منها أن تُمهِلَهُ ثلاثة أيامٍ ليَعود إلى العالَم العلوي، ويُصَحِّحَ الخطأ ثمَّ يعود إلى هادِس. وبعد أن وافَقَت ملِكَة العالَم السُّفلي المَخدوعة، عاد سيزيف إلى عالَم الشَّمس والنُّور، وكما هو مُتَوَقَّعٌ، نَكَثَ بوَعده. تَعَقَّب رسول الآلهة، هرمس، سيزيف وألقى القبض عليه، صَفَّدَهُ -مَرَّةً ثانية- ثمَّ سَلَّمَهُ لهادِس، وعقاباً له على خداعه، كَلَّفَ سيزيف بدَحرَجَة صخرة كبيرة، يَدفعها إلى أعلى الجبل لتَعود وتتدحرَجَ إلى السَّفح، ثمَّ يعود مَرَّةً أخرى ويَدفعها إلى الأعلى لتتدحرج إلى الأسفل على الجانب الآخر، وهكذا إلى الأبد.[٤٥]

أيُّ صفاتٍ أفضل من ذلك بالنِّسبة للبطل العبثيِّ، «**سخريتُه من الآلهة، وكُرهُهُ للموت والفَناء، وشَغَفُه بالحياة، تلك العقوبة التي لا توصَف والتي يكرِّس فيها الكائن كلِّيَّتَهُ، ويبذل كلَّ ما عنده حتَّى لا يحقِّقَ شيئاً**».[٤٦] ولكنَّ كامو لا يذكر شيئاً عن ألاعيب سيزيف وحيَله وأكاذيبه الأخرى -التي كانت مَعروفةً جيداً كالشمس بالنِّسبة للإغريق القدماء. وبدلاً من ذلك، يكتب كامو أنَّ الشاعر هوميروس قال عن سيزيف أنَّه «**الأكثر حكمَةً بين الفانين**».[٤٧]

وفي الواقع لَم يَقُل هوميروس أيَّ شيءٍ من هذا القبيل. بل يصف سيزيف في إلياذته بأنَّه من دُهاة البشر. لم تكُن البصيرة نقطة قوَّته،

في حين أتته الحكمة في وقتٍ متأخِّرٍ جداً. كما أنّ كامو لا يذكر أية نسخة أخرى من الأسطورة: فقد أغوى سيزيف أنتيكليا زوجة لايرتس، ووالدة أدهى وأكبر مخادع في تاريخ البشريّة والأساطير، أوديسيوس، وربَّما كان قد اغتصبها. ولعلَّ كامو لم يَكن على اطِّلاعٍ على هذه النسخة المُغايرة، أو لعلَّه كان يعرفها، لكنَّه خاف من أن يُسقِطَ جميع الصُّور والمفاهيم البطوليَّة عن سيزيف. أو، مرَّةً أخرى، ربَّما فعل كامو بكل بساطة ما كان سيفعله أيُّ مؤرِّخٍ يونانيٍّ أو مَسرحيٍّ أو تراجيدي يوناني قديم: **يخلق لنفسه بطلاً صادقاً وصالحاً لزمانه، وليس للماضي.**

إذا كان الجزء الشِّعري الذي تركه للأجيال القادمة يتضمَّن أيَّ مؤشِّرٍ، فيبدو أنَّ كريتياس قد استفاد من أسطورة سيزيف. لقد قال الفيلسوف والسياسي اليوناني القديم -وعَمُّ أفلاطون- إنَّ البشر الفانين قد خَلَقوا الآلهة لفرض القانون على المجتمع، خوفاً من العقاب الإلهي. وهناك شخصيَّة في مسرحيته «سيزيف» تُعلِنُ أنَّ رجلاً حكيماً «**اختَرَعَ مشاعر الخوف من الآلهة من أجل البشر، حتَّى يكون هناك ما يخشاه الأشرار، حتَّى إن أخفوا أعمالهم أو كلماتهم أو أفكارهم**».[٤٨] فأمَّا ما إذا كان سيزيف إنساناً حكيماً، أو ما إذا كان يتفوَّه بهذه الكلمات قبل أن تعاقبه الآلهة التي كان يُنكِرُ وجودها، أو ما إذا كان ينطقها في عالَمٍ خالٍ من الآلهة، فهو أمرٌ غيرُ واضح تماماً.

هل تغيِّرُ هذه التَّفاصيل -هل يمكن لنظرة أكثر شموليَّة إلى شخصيَّة سيزيف أن تغيِّر- تصوُّرنا للعقاب الذي حَلَّ به؟

ففي النِّهاية، ومن وِجهة نظرنا، أنَّ الاغتصاب والقتل والسلوك الخارج عن القانون، جميعُها أنماطٌ سلوكيَّة تستحقُّ عقاباً أشدَّ بكثيرٍ من الخداع أو الاحتيال. ولكن من وجهة نظرنا أو، بالنِّسبة للإغريق فيما يتعلَّق بهذا الأمر- كانت العدالة أو الأخلاق من أقلِّ الأمور التي يمكن أن يشغلوا بالهم بها. ماذا يهُمُّ، بالنِّهاية، إذا فَعَلَ سيزيف ما فعله في عالَمٍ محكومٍ بآلهة عديدة، أو عالمٍ خالٍ منها أساساً؟ في كلتا الحالتين، لا يوجد أساسٌ مُتَعالٍ، ولا وجود لمعايير مُطلَقَة يمكننا من خلالها معاقبة مَن نعدُّهم خارجين عن القانون.

إنَّه عالَمٌ غيرُ مُبالٍ بأعمال البشر وأفعالهم على وجه التَّحديد، هكذا ينظرُ إليه أحد أحفاد سيزيف، وبطل هوميروس، غلاوكوس. كان غلاوكوس محاربا طَرواديًّا التقى بنظيره ديوميدس في ساحة المعركة تحت أسوار طروادة. وبينما يستعدُّ الرَّجلان للالتحام، يسأل ديوميدس غلاوكوس عن أصله. وفي أحد المقاطع الأكثر تأثيراً، والتي لا تُنسى في الإلياذة، يردُّ الطُّروادي:

لماذا تسأل عن أصلي يا ديوميدس؟

كأوراق الشَّجر على هذه الأرض هي أجيال البشر

أوراقٌ قديمة، تكنسها الريح على الأرض

وأوراق جديدة شابَّة تملأ الغابَةَ الخضراء مع حلول الرَّبيع

وهكذا يمضي الفانون، جيلٌ من الزُّهور يُزهِر حتَّى لو ماتت أجيالٌ قبله.[٤٩]

وعندما يكتشف البطلان أنَّهما مُرتبطان وقريبان من بعضهما أكثر ممَّا يتصوَّران، يشبُكان أيديهما، ويُعلنان نفسيهما صديقين، ويبحثان عن أعداء آخرين. لأنَّهما وجدا، في الواقع، واحداً من أمرين مُؤَكَّدين في عالمٍ خالٍ من التَّعالي، أحدهما: الصَّداقة -وانفصَلا سَعياً خلف الشيء المُؤَكَّد الآخر: المَجد. هل لنا أن نتصوَّر، حسب ما جاء في السَّطر الأخير من القصيدة، أنَّهما سعيدان؟

*****

وبعد فترة قصيرة من عيد الميلاد عام ١٩٤٠، وكانت واحدة من أبرد ليالي الميلاد التي عَرَفَتها فرنسا على الإطلاق، مَنَحَت الصَّحيفة كامو أوراق تسريحه من العمل: فقد عانت حتَّى صحف الدِّعاية والإعلانات المُبوَّبَة أوقاتاً اقتصاديَّةً عصيبة. بمعنى آخر، حقَّقَت الأخبار ما لَم ينجح كامو نفسه في تحقيقه: اترُك الصَّحيفة التي كانت السَّبَب في مَرَضِكَ. لقد حَرَّرَهُ ذلك أيضاً وساعده على ترك المشهد الذي لطالما أثار اشمئزازه: فقد خَسِرَ، بدون أجرٍ، السَّبَبَ الأخير الذي يضطرُّه للبقاء في فرنسا الكبرى. وفي أوائل شهر كانون الثاني/ يناير استقلَّ القطار برفقة فرانسين إلى مرسيليا، ثمَّ أبحرا معاً في النِّهاية إلى الوطن؛ الجزائر. لم يكن لديه أيُّ أملٍ مباشر في الحصول على وظيفة في الجزائر العاصمة، لذلك انتقل الزَّوجان إلى وَهران، المدينة الثَّانية في الجزائر، وقَطَنا في شقَّة تملكها عائلة فاور.

كانت وَهران محطَّةً مناسبة لهذه الفترة الكئيبة من حياة كامو. لَم يَكُن للمدينة أيٌّ من الصِّفات التي تميِّز الجزائر العاصمة المُزدهِرَة:

الالتقاء السَّلِس بين المدينة والبحر، حيويَّة حياة النَّاس في الشَّوارع، ونبض النَّشاط الفكري والفَنِّي. وبخلافها، كانت مدينة وَهران مُصَمِّمَةً على تجاهل البحر. عَبَّر كامو اليائس: «**لا يوجد مكانٌ لَم يُشَوِّهْهُ سكَّان وَهران ببناءٍ إسمنتيٍّ شنيعٍ يُخرِّبُ أيَّة مناظر طبيعيَّة جميلة**».[٥٠]

أمَّا عن المدينة نفسها، فإنَّ: «الشَّوارع موهوبةٌ للغبار والحصى والقَيظ، فإذا ما هطل المطر أحدَثَ طوفاناً، وتحوَّلَت الأرض إلى بحرٍ من الوحول، ولكنَّكَ تدور في شوارع مُلتَهِبَة وقاسية تشعرُ بالاختناق، وفي نهاية الأمر يفترس المينوتور أهلَ وهران، ذلك الوحش هو...... السَّأم».[٥١]

كان السَّأمُ أشَدَّ فَظاعَةً إذا لَم تَكُن تَملُكُ عَمَلاً. وكما قال كامو لأحد أصدقائه، فإنَّ العودة إلى وهران «**في ظلِّ هذه الظُّروف الخاصَّة، بالكاد تشكِّلُ خطوَةً إلى الأمام**».[٥٢] وبصَرف النَّظَر عن بعض أعمال التَّحرير الصَّحفيَّة، أمضى كامو عدَّةَ أسابيع بلا تغييرٍ في المدينة. وأخيراً، حصل على وظيفة ـ وظيفة أنشأتها تشريعات فيشي المُعادِية للسَّاميَّة. عندما تمَّ فَرض حصص تقييديَّة على عدد الأطفال اليهود المَسموح لهم بالالتحاق بالمَدارس العامَّة في فرنسا، نشأت فجأةً مجموعةٌ كبيرةٌ مِنَ الطُّلَّاب الذين كانوا بأمَسِّ الحاجة إلى التَّعليم. كانت وهران على وجه الخصوص، بجاليتها الكبيرة من اليهود، بحاجَةٍ إلى مُدَرِّسين، وبحلول شهر آذار/ مارس، كان كامو يُدَرِّسُ في مَدرستين خاصَّتين إلى جانب أصدقاء يهود طُرِدوا من وظائفهم في المَدارس العامَّة.

أصبح كامو رائداً في جميع الدُّروس مع حصصٍ تتراوح ما بين اللغة الفرنسيَّة والجغرافيا والفلسفة، ومع ذلك لَم يَستَطِع أيٌّ مِنَ الأشخاص تفسير عبثيَّة الموقف. في الوقت نفسه، كان كامو مُدركاً للحاجة إلى استجابة سريعة وتَجاوُز هذا الوضع... نَظَّمَ مع زوجته نشاطات لجمع الأموال، وَوَفَّرَ المأوى للأصدقاء اليهود الذين فقدوا مناصِبَهُم بسبب السياسات المُجحِفَة. دارت أحاديث حَذِرَة وخَجولَة عن مقاوَمَة. وطُرِحَت أسئلة كثيرة حول كيف ومتى وأين جَرَت مناقشتها، ولكن لَم يتغيَّر شيء على أرض الواقع. لقد ظَلَّ جَوُّ وهران مَشحوناً وغليظاً وظالماً. على الرَّغم من ترحيب كامو بالدخل الثَّابت، وبَذَلَ قُصارى جهده من أجل أصدقائه، إلا أنَّه شَعَر بالاشمئزاز من الوضع برمَّتِهِ. فأَسَرَّ إلى أحد الأصدقاء في يومٍ من الأيام: «الأيام طويلةٌ ومُرهِقَة»[٥٣]، وكَتَبَ لصديقٍ آخر: «**أَشعُرُ بالاختناق**». وبالنِّسبة لرجلٍ مُصابٍ بالسُّلِّ، فإنَّ مثل هذا التَّشبيه ما كان ليَصدُرَ عنه بسهولة.

في خِضَمِّ هذه الفترة المُضطربة والمُقلِقة أنهى كامو مخطوطة «**أسطورة سيزيف**». ومع مخطوطة روايته «**الغريب**» ومسرحيَّته «**كاليجولا**» وكانتا جاهزتين مُسبقاً، اكتَمَلَت أعمال «**العَبَث**» الثلاثة. تَنَهَّدَ كامو في النِّهاية: «إنَّها بَشائِرُ الحرِّيَّة».[٥٤] وكما يكشف في إعادة صياغته لأسطورة سيزيف، يمكن العثور على الحرِّيَّة حتَّى في أغرب الأماكن ـ حتَّى في وَهران، أو هادِس.

*****

«لقـد حَكَمَـت الآلهـة عـلى سـيزيف بـأن يَرفَـعَ صَخـرَةً بـلا انقطـاعٍ إلى قمَّـة الجبـل حيـث تسـقط الصَّخـرة بفعـلِ ثقلهـا ثانيـة. لقـد ظنُّـوا لسَـبَبٍ مَعقـولٍ أنَّـه ليـس هنـاك عقـابٌ أشـنَعُ مِـنَ العَمَـل [العَبَثيِّ] التَّافـه الَّـذي لا أمَـلَ منـه».[٥٥] في حـين أنَّ الصُّـورة الأوَّليَّـة التـي رسـمها كامـو لسـيزيف غـير مَذكـورةٍ هنـا، إلا أنَّ كامـو يوَضِّـح الأسـطورة لاحقـاً، حيـث يَصِـفُ سـيزيف بأنَّـه «يَجهَـدُ» لرَفـعِ الصَّخـرة، مُشـيراً إلى حَجـم التَّحَـدِّي، ولكـن عـلى العمـوم، إنَّ الجهـد الجسـديَّ الهائـل الـذي ينطـوي عليـه عَمَـلُ سـيزيف يبـدو كفكـرة لاحقـة لكامـو. يبـدو كأنَّ العـذاب الـذي أنزَلَتـه عليـه الآلهـة ليـس لـه علاقـة بجِسَـدٍ مُجهَـدٍ، بـل بعَقـلٍ يتحَـدَّى العِقـابَ العَبَثـيَّ ذا الطَّابـع المُتكَـرِّر الـذي لا طائـل منـه. وبعـد أن أدانـوه بتكـرار المَهَمَّـة مِـراراً وتكـراراً إلى مـا لا نهايـة، إلى الأبـد ودون توقُّـف أو هَـدَف تحـت أنظـارِ كـونٍ أعمـى ولا مُبـالٍ، إلا أنَّ محيـط صخـرة سـيزيف ووزنهـا غـير مُهمَّـين. بـل يَكمُـنُ العـذاب في التِّكـرار اللامُتَناهـي لعَمَـلٍ روتينـيٍّ وعَبَثـيٍّ لا معنـى لـه.[٥٦]

وسـيكون مـن غـير المُجـدي، إذن، تغيير مَهمَّة سـيزيف أو تحسـينها: سـواءٌ كان ذلـك مـن خـلال دَفع جَزَّازة عُشـب، أو إدخال خَيطٍ في سَـمِّ إبـرة، أو إغـراق كُـرَةٍ سَـلَّةٍ تحت المـاء، أو إخراج القُمامـة، أو إزالة فاصلة ثـمَّ استبدالها. يَكمُـنُ العَـذاب الحقيقـيُّ في تكـرار العمـل العَبَثـيِّ إلى مـا لا نهايـة. إنَّ وَزن العمـل ليـس نتيجـةَ الثِّقَـل أو الجاذبيَّـة، بـل يكمُـنُ في خطـورة طبيعتـه غير المُجدِية. سـيزيف مُرتَبِطٌ بالصَّخـرة بالطبع، ولكنَّ الأهـم مـن ذلك أنَّـه مُلـزَمٌ ومُرتَبِـطٌ بعبثيَّة علاقتـه بالصَّخرة.

ولكـن، يتسـاءل ريتشـارد تايلـور، مـاذا لـو أردنـا تغيـير منظـور سـيزيف، وليـس الصَّخـرَة بحَـدِّ ذاتهـا؟ مـاذا لـو قـرَّرَت الآلهـة بتفكيرهـا المُنحَرِف تخفيـف عقوبـة سـيزيف بمنحـه عقـلاً يجعلـه يحـبُّ عملـه؟ أن يُصبـح دَفـعُ الصَّخـرة إلى الأبـد بالنِّسـبة لـه حُلُـمَ حياتـه ومُنتهـى رغباتـه؟ عندهـا سـيتحرَّر السَّـجين مـن عقوبتـه كـما يسـتنتج تايلـور: «**إذا كانـت لـدى سـيزيف رغبـةٌ شـديدةٌ في أن يفعـل مـا وَجَـدَ نفسـه يَفعَلُـه دومـاً، مـع أنَّ حياتـه لَـن تتغيَّر قَيـدَ أنمُلَـة، ولكـن سيكون لهـا معنـى مـا بالنِّسـبة لـه**». [٥٧] وسـيكون عندئـذٍ مـن السَّـهل تصـوُّر سـيزيف سـعيداً، وذلـك ردًّا عـلى السَّـطر الأخـير مـن مقالـة كامـو: «**ويجـب عـلى المَـرء أن يتصـوَّرَ سـيزيف سـعيداً**». فهـل يمكننـا تخَيُّـل أن يكـون كامـو نفسـه سـعيداً بهـذا السـيناريو؟

*****

قـرب نهايـة شـهر كانـون الثاني/ ينايـر سـنة ١٩٤٢، بـدأ كامـو بالسُّـعال وهـو في منزلـه مـع زوجتـه فرانسـين. وبينـما كانـت تشـنُّجاته تـزداد سـوءاً وعنفـاً، ويختلـط البلغـم بالـدم، هَرَعَـت فرانسـين للبحـث عـن طبيبهـا. هَـدَأت نوبـة السُّـعال في اليـوم التَّـالي، لكـنَّ كامـو كان يعلـم أنَّ هـذا مجـرَّد تأجيـل وليـس حَـلًّا. وصَرَّح معترفـاً لشـقيقة كريسـتيان فـاور: «**اعتقـدتُ أَنَّ الأمـر قـد انتهـى بالنِّسـبة لي هـذه المَرَّة**». [٥٨] وأكَّـدَ تشـخيصُ الطَّـبيب مخـاوف كامـو: حتَّـى ذلـك الحين كانـت رئتـه اليُسـرى مريضـةً فقـط، والآن، بأيَّـة حـال، تأثَّـرت رئتـه اليُمنـى بالقـدر نفسـه. بـدا كامـو الآن يشـعر -أكثـر مـن أيِّ وقـتٍ مـضى- أنَّ الحيـاة يجـب أن تُعـاش بـلا أيِّ شيءٍ نَصبـو إليـه.

كما تَسَلَّلَ مرض السُّلِّ إلى رئة كامو السَّليمة، كذلك تَسَلَّلَت سياسات فيشي العنصريَّة إلى الحياة اليوميَّة في وهران. ففي منتصف عام ١٩٤١، فَرَضَ النِّظام حصَّته، أو قانون مُحاصَصَة على المِهَن: سَمَح لليهود بشغل ٢٪ فقط من العَدَد الإجمالي لأطبَّاء الأسنان والأطبَّاء البشريِّين والمحامين في فرنسا. واضطرَّ هنري كوهين، طبيب كامو الشَّخصي، إلى التَّخلِّي عن ممارسته للطِّبِّ، معتمداً على كَرَم ولطف زُمَلائه الذين أعاروه عياداتهم.

ومن المناسب القول إنَّ كوهين هو الذي نَصَحَ كامو بتأدية نوعٍ مختلفٍ مِنَ المَنفى. خوفاً من أن يؤدِّي صَيفٌ رَطبٌ آخر في وَهران إلى إضعاف رِئتي كامو وأن يشتدَّ عليه مَرَضُه، لذا نَصَحَ الطَّبيب مريضه بقضاء بعض الوقت في مصَحَّة بفرنسا. وبما أنَّه لَم يَكُن قادراً على تحمُّل تكاليف المصَحَّة، استَقَرَّ كامو على الحلِّ الذي عَرَضَه عليه ذووه: مَزرعة يَملكونها بالقرب من شامبون سور لينيون، وهي قرية مَعزولة في جبال سيفين جنوب وسط فرنسا. وفي آب/ أغسطس، استقلَّ ألبير كامو وزوجته فرانسين الباخرة في الجزائر العاصمة.

ما أن وَصَلَ كامو إلى مارسيليا، استَقَلَّ هو وفرانسين سلسلةً من القطارات، أوَّلاً إلى ليون، ثمَّ إلى مدينة سان إيتان الأصغر، وأخيراً إلى شامبون سور لينيون. ومع ذلك، لم يَكُن كامو قد بَلَغَ وِجهَتَهُ بَعد، بعد أن بَدَأ يشعر بالإرهاق، وبضيق في التَّنفُّس. وفي محطَّة القطار الرِّيفيَّة في شامبون، استأجر هو وفرانسين عَرَبَةً تجرُّها الخيل لنقلهما إلى لو بانلير، وهي تجمُّع من بيوت المُزارعين

الحجريَّة المَحصورة داخل سورٍ حجريٍّ كبير، كانت مُلكيَّتُها تعود لعائلتها، وتبعد بضعة كيلومترات عن القرية.

أثبتت نهاية الصَّيف في سيفين أنَّ الإقامَة كانت ذات فائدة للزَّائر. كانت الوديان التي تجري في عروقها الينابيع والجداول، خضراء وذات تأثيرٍ مُهَدِّئ. ومع أنَّه أخبرَ صديقاً له في الجزائر العاصمة أنَّ الأمر **«سيستغرق الكثير من الوقت والسَّير»** قبل أن يَشعُرَ أنَّه في بيته في محيطه الجديد، إلا أنَّه كان أقلَّ حماساً في مُذَكَّراته:

«صوتُ رَقرَقَة الينابيع المُتَدَفِّقَة يجري على طول أيَّامي. إنَّها تتدفَّق من حولي، عبر الحقول المُشمِسَة، ثمَّ تقترب منِّي، وسُرعان ما أجد هذا الصَّوت بداخلي، ذلك الرَّبيع في قلبي، وصوت الينبوع هذا ممزوجاً بكل فكرة: إنَّه النِّسيان». [٥٩]

وفي بعض الأحيان، يبدو أنَّ قوى الطَّبيعة نفسها، قد حَشَدَت كل قواها للمساعدة في مَهمَّة «النِّسيان» ـ الجهد المَبذول للتَّغلُّب على نوبة المَرَض الأخيرة التي ألَمَّت بكامو. قارَنَ كامو تموُّجات أشجار التُّنوب الكثيفة **«بجَحفَلٍ بَربَريٍّ من ضوء النَّهار»** من شأنه أن يَطرُدَ **«الجيوش الهَشَّةَ من الأفكار الليليَّة القاتمة»**. [٦٠]

وفي أوائل شهر تشرين الأوَّل/ أكتوبر، عادَت فرانسين إلى وهران. خَطَّطَ كامو لمتابعة عمله بمجرَّد أن تَجِدَ فرانسين وظيفة، كمدرِّسَيْنِ، لكليهما في الجزائر. بدأ الطَّقس يتحوَّل إلى رَطبٍ وبارد، وكان معظم السُّيَّاح الآخرين في المَزرعة، الذين نادراً ما تحدَّث معهم كامو، قد غادروا، واستقلُّوا جميعهم القطار إلى سان إيتان من أجل

حقن الاسترواح الصَّدري الذي ظلَّت صلته الوحيدة التي تربطه بالعالم الخارجي ـ لقد وَفَّرَت لهم حرفيًّا نافذة تطلُّ على فرنسا. كان كامو، وهو جالسٌ خلفَ اللوح الزجاجي للمَقصورة، يتأمَّل وجوه القرويِّين الذين ينتظرون قطارات أخرى ويَدرسها، في تلك المحطَّات التي توقَّف فيها قطاره، شاهد زملاءه المسافرين وهم يتجوَّلون على المِنَصَّة. وفي محطَّة سان إيتان، لاحظ أنَّ المسافرين يأكلون بصمْت «طَعاماً رديئاً، ثمَّ يخرجون إلى المدينة المُظلمة [و] تحتَكُّ مرافقهم بعضهم دون أن يختلطوا. إنَّها الحياة البائسة والصَّامتة التي تعيشها فرنسا بكاملها في أثناء انتظارها». [٦١]

تساءَل كامو كيف يمكن للمَرء أن يَفهم فرنسا بعد سنوات من الآن، دون الخوض في هذه المشاهد؟ لقد تأمَّلَ كثيراً في الوجوه التي رآها:

«مُحتَشدَةً أمام محطَّاتٍ صغيرة... صورة ظليلة لَن أنساها ما حَييت: زوجٌ من الفلاحين كبيرين في السِّنِّ ـ كان وجهاهما مملَوحين، أمَّا وجهه فكان ناعماً مُضاءً بعينين شرقيَّتين وشاربٍ أبيض، صورة ظليلة لشتاءٍ كاملٍ مِنَ العَذاب والحرمان... لقد هَجَرَت الأناقة هؤلاء النَّاس، الذين يسكنهم الفقر الآن. تبدو حقائبهم في القطارات بالية ومُهتَرِئة، مَربوطة بخيوط وحِبال متآكلة، ومُغَطَّاة بالكرتون. جميع الفرنسيِّين يبدون كمُهاجرين». [٦٢]

وفي يوم الحادي عشر من شهر تشرين الثَّاني/ نوفمبر ١٩٤٢، بدا الانتظار فجأةً أقصر، وأكثر كآبَةً. رَدَّ الألمان على إنزال الحُلَفاء في

شمال أفريقيا بعبور خَطِّ التَّرسيم الذي وُضِعَ عام ١٩٤٠، والذي يفصل بين المناطق الحُرَّة والمُحتَلَّة، وطالبوا ببقيّة فرنسا كاملةً. في اليوم نفسه، كتب كامو في دفتر مذكِّراته: «مَسجونون مثل فئران!» ظَهَرَ فجأةً جدارٌ عازِلٌ بين كامو والجزائر: لَمْ يَعُد بإمكانه العودة إلى أسرَته وأصدقائه، والمناظر الطَّبيعيَّة المألوفة والغالية على قلبه. كانت حالُهُ لا تختلف عن حال الرَّجل العبثي: الرَّجل الذي لا يملكُ إلا «**وعيَهُ وإدراكه الواضح بالأسوار التي تحيط به من كلِّ جانب**». [٦٣]

*****

في الشَّهر نفسه الذي وجد فيه كامو نفسه مُحاصراً في فرنسا، عَلِمَ أنَّ مبيعات «الغريب»، التي نشرتها دار غاليمار في وقتٍ سابقٍ من ذلك العام، توجِبُ إصدار طبعة ثانية من ٤٤٠٠ نسخة». [٦٤] ولَقِيَت إقبالاً وترحيباً كبيرين. ومع ذلك، شَعَرَ كامو، الذي كان مسروراً بالنَّجاح التِّجاري النِّسبي للكتاب، بخَيبة أملٍ بسبب الاستجابة النَّقديَّة. وقد رفض في رسالةٍ إلى صديقه في المدرسة الثانويَّة كلود دي فرينفيل، كُلًّا من التَّقييمات الجيِّدة والمتوسِّطة، لأنَّها كانت جميعها «**مبنيَّة على سوء فهم**» للكتاب. واختتم رسالته قائلاً: «**من الأفضل أن أُصَمَّ أذنيَّ، وأواصل العمل**». [٦٥]

غير أنَّ إحدى المراجعات للكتاب، التي نُشِرَت في مجلَّة Cahiers du Sud المرموقة في أوائل سنة ١٩٤٣، اخترقت مزيج كامو من الإحباط واللامبالاة. في مراجعة من عشرين

صفحة ـ مساحة أكبر بكثير ممَّا أعطِيَت لمراجعات سابقة لكُتَّاب مثل ويليام فولكنر أو جان جيرودو ـ عَلَّق جان بول سارتر الصَّاعد على الكتاب بوضوحٍ لافتٍ للنظر.[٦٦] وفي مراجعته بعنوان «شرح للغريب»، قام سارتر بتصفية رواية كامو من خلال رؤى المقال الفلسفي.

وبطبيعة الحال، يفعل سارتر هذا من منطلق موقف مفكِّر باريسي يتفحَّص قطعة أثريَّة غريبة من منطقة بعيدة. ولكنَّ ذلك لا يقلِّل من بصيرته. إلى جانب ذلك، الغريب هو كائنٌ فضوليٌّ جدًّا؛ بعيدٌ عن مقاهي الضِّفَّة اليُسرى. إنَّ قصَّة ميرسو، الرَّجل الذي كانت أيَّامه عبارة عن تعاقبٍ نادرٍ ومُتباينٍ للأصوات، والمشاهد، والأحاسيس؛ سلسلة من الأحداث المنفصلة التي يرويها بصوتٍ متصنِّعٍ وبتفسيرٍ ضحل، حتَّى عندما يقتل عربيًّا على أحد شواطئ الجزائر العاصمة، وهو بدوره على استعداد للموت إعداماً من قِبَل الدَّولة بسبب جريمته ـ وهما فعلان لا معنى لهما إطلاقاً ـ أمرٌ محَيِّرٌ. كيف لنا أن نفهم هذه القصَّة؟

يردُّ سارتر أنَّ ذلك يعتمد على ما نقصده بالفهم. ليس المطلوب مِنَّا أَنْ نستخلص مَعْنَى من هذِهِ الرِّوَاية؛ دعونا نفهم أنَّه لا يوجد شيء لنفهمه أساساً، وهنا تكمن الفضيحة في هذا الكتاب، وكذلك معنى عنوانه: الغريب الذي يريد تصويره هو بالضبط واحدٌ من هؤلاء «الحمقى» الفظيعين الذين يَصدِمُون المجتمع بعدم قبولهم لقواعد لعبته. إنَّه يعيش وسط غرباء، ولكنَّه بالنِّسبة لهم، هو غريبٌ أيضاً... ونحن أنفسنا، الذين لم نتعرَّف بعد، عند افتتاح

الكتاب، إلى شعور العَبَث، نحاول عَبَثاً الحكم عليه وفقاً لمعاييرنا المعتادة. إنَّه غريبٌ بالنِّسبة لنا أيضاً، هو غريب.[٦٧]

ولعلَّ أشهر صورة استخدمها كامو في أسطورة سيزيف لسَبر الأعماق العَبَثِيَّة الكامِنة مباشرةً تحت القشرة الهَشَّة لمعتقداتنا وتقاليدنا هي صورة رجل، خلف حاجزٍ زجاجيٍّ، يتحدَّث عبر الهاتف. «**لا يمكنك سماعه، ولكنَّك تشاهد حركاته الغبيَّة غير المفهومة: وتتساءل لماذا هو على قيد الحياة**».[٦٨] وبطريقةٍ ما، كثَّف كامو العَرض الأنطولوجي: هذا العَرض الغبيُّ والعَبَثيُّ سوف ينهار بكامله إذا سمعنا المحادثة، أو حتَّى جانبا واحدا منها. بمعنى أنَّه سيعيد تثبيت نفسه في عالمٍ بدا للحظةٍ أنَّه محرومٌ منه. ولهذا السَّبب، رفض الفيلسوف كولن ويلسون صورة كامو ووصفها بأنَّها مُضَلِّلَة: «**فقد جُرِّدَ الرَّجل على الهاتف من بعض الأدلَّة الأساسيَّة التي من شأنها أن تمكِّنكَ من إكمال الصُّورة**».[٦٩]

وجد سارتر، في مراجعته، هذه الصُّورة الُمعية للسَّبب نفسه:

«إنَّ إيماءات الرَّجل وحركاته على الهاتف -الذي لا يمكنك سماعه- تبدو عبثيَّة نسبيًّا وخالية من أيِّ معنى، لأنَّها جزء من دائرة غير مُكتَمِلَة. ولكن إذا فتحت باب الكابينة ثمَّ وضعتَ أذنكَ على جهاز الاستقبال، فستكتمل الدَّائرة، وسيَغدو النَّشاط البشري مفهوماً مَرَّةً أخرى».[٧٠]

وبعَكس ويلسون، يدرك سارتر أنَّ كامو لا يقدِّم حجَّة، بل وسيلة - فنحن نتعامل مع مسألة لا تتعلَّق بالنَّزاهة والصِّدق،

بـل بالفَـنِّ ـ لجعـل العـالم شـفَّافاً ومُعتـماً في الوقـت نفسـه. وبالمقابـل، تكشـف هـذه الخاصيَّـة الجماليَّـة عـن حقيقـة حـول الحالـة الإنسـانيَّة لا يمكـن للحجـج الرَّسـميَّة أن تكشـفها ببسـاطة: نحـن نعيـش في عـالم يَرفـض الدَّلالـة، وبالتَّـالي يخاطـر بتحويـل أفعالنـا وكلماتنـا إلى مجـرَّد تشـنُّجات مـن الإيـماءات التَّعسُّـفيَّة الخَرقـاء والعَبَثيَّـة.

وطبقـاً لتعبير سـارتر فإنَّ هـذه الأنشـطة لا تَقـلُّ هـولاً وعَبَثـاً عـن الجـولات المَحمومَـة التـي يضـع فيهـا فولتير شـخصيَّاته في قصصـه القصـيرة والموجَـزَة. ربَّـما. ذلك أنَّ الحاجـز الزَّجاجي، بوسـائل أخرى، يطلُّ على المَشـهد مـن العَدَم. يخلص بطل روايـة فولتير «ميكروميغاس» Micromégas، وهـو زائـرٌ مـن كوكـبٍ بعيـدٍ، يبلغ طولـه ٢٠٠٠٠ قَـدَم، ولا يمكنـه سـماع البـشر أو رؤيتهـم، إلى نتيجة مَفادهـا أنَّ الأرض هامـدة وخاليـة مـن الحيـاة. حتَّـى لـو كان بإمكانـه رؤيتنـا، هل سـيكون لحركاتنـا أيُّ معنـى بالنِّسـبة لـه أساسـاً؟ لكـنَّ العَبَـث الـذي يغمـر عوالم «كانديـد» Candide أو ميكروميغـاس سـاخرة وتهكُّميَّـة: حيـث تطيـح ضحكاتنـا بالبُنيـة المُتَهالكـة للقيَـم السِّياسـيَّة والدِّينيَّـة الرَّجعيَّـة التـي أفسَـدَت عـصر فولتير التَّنويـري. ومـع ذلـك، مـع الغريـب، ليس هنـاك أي دليـلٍ عـلى أنَّ التَّنوير سـيؤدِّي إلى الفهـم ـ أو عـلى الأقـل إلى شـكل مـن أشـكال الفهـم التـي يمكـن أن يتعـرَّف إليهـا فولتير.

بالطبـع، قليلـةٌ هـي الأشـياء التـي تسـاعد بشـكلٍ أفضـل عـلى تركيـز العقـل، مـن احتـمال شَـنق المَـرء لنفسـه في اليـوم التَّـالي. وَلكِـنْ فِي حَـالِ ميرسـو، يَلْـزَمُ أوَّلًا أَنْ نتحـدَّث عـن تكويـن رأي. نلاحـظ تنامـي الوعـي الـذَّاتي لـدى ميرسـو بعـد سَـجنه ومحاكمتـه بتهمـة قتـل العربيِّ.

أصبح يميل أكثر نحو التَّأمُّل، لكنَّ هذا التأمُّل يقدّمه مجتمعٌ ينبذه أساساً: إنَّه غريبٌ فَقَدَ حَقَّه في العيش بين الرِّجال والنِّساء. فقد أعلَنَ قاضي الادِّعاء، الذي أطَلَّ على روح ميرسو، أمام هيأة المُحَلَّفين مذهولاً أنَّه «لَمْ يَجِد شيئاً بشريًّا فيه». [٧١] وفي الواقع، كان الأمر كما لو أنَّ حاجزاً زجاجيًّا وُضِعَ بين القاضي وميرسو.

يرجع ميرسو في زنزانته المُنعَزِلَة إلى نفسه. ينامُ على سريره بعد مشاجرة عنيفة مع كاهِنٍ زائر، ثمَّ يستيقظ ويتحوَّل وجهه إلى نافذة تطلُّ على سماء الليل. «**لأوَّل مَرَّةٍ، في تلك الليلة التي أحيا فيها مع الأبراج والنُّجوم، انفَتَحتُ على اللامبالاة اللَّطيفة للعالم**». [٧٢] ويُعيد هذا المشهد الأيَّام الأخيرة لجوليان سوريل، بطل ستيندال في رائعته «**الأحمر والأسود**». وتكثر الإشارات إلى الرِّوائي من القرن التَّاسع عشر في دفتر كامو، ويعبِّرُ في الكثير منها عن دهشته من أسلوب ستيندال الإبداعي، وأفكاره الثَّاقبة في الطَّبيعة البشريَّة. لكنَّ كامو تأثَّر بالقدر نفسه بصراع سوريل ضدَّ مستنقع النِّفاق والمظاهِر الذي نسمِّيه «**المجتمع**». وكما أدرَكَ ميرسو المحبوس في زنزانته عشيَّة إعدامه، يُدرِكُ جوليان أنَّه لم يكن يعرف السَّعادة الحقيقيَّة إلا كشابٍ شجاع؛ وأنَّه هو أيضاً، بعد أن طَرَد كاهناً مُلِحًّا من زَنزانته، يسلِّم نفسه لتأمُّلاته النهائيَّة؛ إنَّه هو أيضاً، في محاولته البائسة لإيجاد الوحدة والمعنى، يواجه العَبَث بدلاً من ذلك:

> «تولَد ذبابة مايو في السَّاعة التَّاسعة من صباح يومٍ صيفيٍّ طويلٍ، لتموت في الخامسة بعد الظهر -كيف يمكن لهذه الذُّبابة أن تفهم معنى كلمة ليل؟». [٧٣]

ممَّـا لا شَـكَّ فيـه أنّنـا نجـازف بالوقـوع في فَـخِّ اللا-تاريخيَّـة مـن خـلال الرَّبـط بـين العبـث واسـتعادة فرنسـا. كأيِّ مفهـومٍ فلسـفيٍّ، ولـد العَبَـث في زمـانٍ ومـكانٍ محدَّديـن. وكـما أشـار تـيري إيغلتـون مؤخَّـراً، بينـما يفكِّـر جميـع الرِّجـال والنِّسـاء في معنـى الحيـاة، «فـإن **البعـض، لأسـباب تاريخيَّـة وجيهـة، ينجذبـون إلى التَّأمُّـل فيهـا بشـكلٍ أكثَرَ إلحاحـاً مـن غيرهـم**».[٧٤] وكـما رأينـا، كان هـذا هـو الحـال مـع فرنسـا -وكامـو- في عـام ١٩٤٠.

وفي وقـتٍ مبكِّـرٍ مـن عـام ١٩٤٦، أي بالـكاد بعـد أربـع سـنوات مـن نـشر روايـة «**الغريـب**» و«**أسـطورة سـيزيف**»، بـدأ الفيلسـوف أ. ج. آيـر، الـذي كان يعمـل في السّـفارة البريطانيّـة في باريـس المُحـرَّرة حديثـاً، بـالإصرار عـلى حـدود مصطلـح «**العبـث**» ومعنـاه. وفي مقـالٍ لـه عـن كامـو، رفـض الرَّسـول الإنكليـزي للوضعيَّـة المنطقيَّـة هـذا المفهـوم، بمعنـاه الحَـرفيِّ، مُعتَـبِراً أنَّـه لا معنـى لـه. وأشـار آيـر أنَّ الفلاسـفة الأنجلو-أمير كيـين لم يَفطُنـوا للطَّريقـة التـي اسـتخدم بهـا كامـو مصطلحـات مثـل «**المنطـق**» و«**العقـل**». وكتـب أنَّ مصطلـح العَبَـث انـدَرَجَ في «مـا يُطلـق عليـه فلاسـفة كامبريـدج الحداثيـون «**رثـاءً لا معنـى لـه**».[٧٥] ومـع ذلـك، اعـترف آيـر بوجـود نقطـة، قـد تكـون مُربِكـة ومُحرِجـة، كامنـة تحـت سـطح النثـر الـذي قدَّمـه كامـو. ولا يمكـن إنـكار «**الأهمِّيَّـة العاطفيَّـة**» التـي تتخلَّـل المقـال، يقـول آيـر معترفـاً:

> «شـخصيًّا، لـديَّ تعاطـفٌ كبـيرٌ مـع معايـير القيمـة التـي يقرنهـا كامـو هنـاك بمذهبـه عـن العبـث».[٧٦]

وعـلاوةً عـلى ذلـك، كان يعتقـد أنَّ هنـاك مصداقيّـةً ميتافيزيقيَّـةً للأسـئلة التـي طرحهـا كامـو. لكـنَّ ذلـك، بالنِّسـبة لآيـر، مجـرَّد ثنـاءٍ خافِـت:

«إنَّهـا ميتافيزيقيَّـة لأنَّهـا غـير قابلـة للإجابـة عليهـا بالرُّجـوع إلى أيِّ تجربـة ممكنـة». [٧٧]

بعـد سـنواتٍ عديـدة، أعـرَبَ آيـر في سـيرته الذَّاتيَّـة عـن إعجابـه بكتابـات كامـو وشـخصيَّته، وذكـر أنَّ الفرنـسيَّ كان «**رجـلاً يتمتَّـع بقـدرٍ عظيـمٍ مـن النَّزاهَـة والشَّـجاعةِ الأخلاقيَّة**». ويبـدو أنَّ اسـتقامته كانـت كبـيرةً لدرجـة أنَّـه في اجتـماع بـين الرَّجلـين، وافـق كامـو عـلى وجهـة نظـر آيـر القائمـة في تفكـيره الفلسـفيِّ. وحسـب روايـة آيـر، «**لَم يعـترض كامـو إلا عـلى وصفي بأنَّه مُدَرِّسٌ للفلسـفة في شـبابه في الجزائر العاصمـة، في حـين أنَّـه كان في الواقـع لاعـبَ كـرةِ قـدمٍ محترفًا**». وكَـون كامـو لم يَلعَـب الكُـرَةَ بشـكلٍ احـترافيٍّ يشـير إلى أنَّ آيـر فشـل في فهـم لغـة كامـو الفرنسـيَّة، أو حسِّـهِ الفكاهـي، أو ربَّـما كليهـما. [٧٨] وبشـكلٍ أكثـر وضوحـاً، فشـل آيـر أيضـاً في فهـم رسـالة كامـو الأساسـيَّة في «**أسـطورة سـيزيف**». وفي نهايـة المَطـاف، فـإن اسـتنتاجه الـرَّاضي عـن الـذات بعَـدَم وجـود إجابـة لمثـل هـذه المخـاوف «**الميتافيزيقيَّة**» يؤكِّـد ببسـاطة عـلى أيِّ شيءٍ مـا عـدا «**الرِّثـاء**» الـذي يشـعر بـه كامـو.

وفي أوائـل السـبعينيَّات، أعـرَبَ الفيلسـوف تومـاس ناجِـل عـن مزيـجٍ مماثِـلٍ مـن التَّسـامح والتَّنـازل. وذكـر أنَّ معظـم النَّـاس «**يشـعرون أحيانـاً بـأنَّ الحيـاة عبثيَّـة، وبعضهـم يشـعرون بعبثيَّتهـا**

بوضوح وباستمرار». ومع ذلك، فإنَّ الأسباب التي قدمت لتبرير هذا الإحساس «**غير كافية أو وافية**».[٧٩] وادَّعى ناجِل، مُرَدِّداً نفاد صبر آير الشَّكليّ، أنَّ «**الحجج المعياريَّة للعَبَث فاشلة، وغير صالحة كحجَج**».[٨٠] ومع ذلك، يشعر ناجِل بوطأة الحقائق التي لا يمكن للقِيَاس المنطقي بلوغها. فعلى الرَّغم من أنَّ هذه الحجج متهافتة منطقيًّا، إلا أنَّها مع ذلك «**تحاول التَّعبير عن شيءٍ يَصعب ذكره، ولكنَّه واقعيٌّ بشكلٍ أساسيٍّ**».[٨١] وهو يسمح باستمرار هذه الحجج الفاشلة لأنَّها تعكس شيئاً حقيقيًّا ودائِماً في حياتنا: الصَّدمة التي نشعر بها عندما نخرج من أنفسنا ونتجاوزها ونتبنَّى «**وجهة النَّظر من العَدَم**»، ثمَّ نواجه فجأةً التَّناقض بين الأهمِّيَّة الكبيرة التي نُضفيها على أنشطتنا اليوميَّة، وانعدام أهميتها ومعناها في نهاية المطاف. إنَّ الأسباب التي افترضنا أنَّها أسباب كافية لا تبدو أقلَّ اعتباطيَّة وعشوائيَّة من الإعصار الذي يدمِّرُ مَنزلاً معيَّناً دون أن يمسَّ المنزل المجاور. وعند هذه النُّقطة، يعلن ناجِل:

«هنا نرى أنفسنا من الخارج، وكلّ ما تتضمَّنه أهدافنا ومساعينا من خصوصيَّة واحتمال واضح. ومع ذلك، عندما نأخذ هذا الرَّأي في عين الاعتبار ونعترف بأنَّ ما نفعله عَمَلٌ تعسُّفيٌّ، فإنَّه لا يفصلنا عن الحياة، وهنا تكمن عبثيَّتنا».[٨٢]

وهذه القدرة على «**النَّظر من العدم**»، تتفرَّد بها البشريَّة ومنسوجة في نسيج تفكيرنا، هي نعمة وجودنا ونقمته. وبدلاً من أن تكون نتيجة تصادم بين حاجتنا للعقل وصمْت العالم، يضع ناجِل إحساسنا بالعَبَث في «**التَّصادم بداخلنا**».[٨٣] ومع ذلك، فهذه الحالة

ليست سبباً للموقف «الرُّومانسي والمثير للشَّفقة» الذي يربطه بكامو. وبمجرَّد أن نفهم حقيقة تفاهَة وضعنا بالنِّسبة للعالم والكون، يَخلص ناجِل إلى أنَّنا يجب أن نتبنَّى موقفاً تهكُّميًّا ساخراً بالنِّسبة لوضعنا.[٨٤]

وبعد مرور ربع قرنٍ آخر، تبنَّى تيري إيغلتون بدوره التَّحضُّر الهادئ الذي أظهره كلٌّ من آير وناجِل:

«فالتَّحدِّي المأساوي لألبير كامو، عندما يواجه عالماً يفترض أنَّه بلا معنى، هو في الحقيقة جزءٌ من المشكلة التي يمثِّل رَدًّا عليها. من المُحتمل فقط أن تشعر بأنَّ العالم عديم الجدوى والمعنى بشكلٍ مُقَزِّز، على عكس العالَم القديم والبسيط وعديم الجدوى، إذا كنتَ قد ضخَّمتَ توقُّعاتك منه في المقام الأوَّل».[٨٥]

ولعلَّ المفارقة تبدو أسهل في عيون هؤلاء الذين عاشوا غالباً في أعقاب الحرب العالميَّة الثانية مقارنةً بأولئك الذين عايشوها. لكنَّ الفَرق بين آير، وناجِل، وإيغلتون من ناحية، وكامو من ناحية أخرى، ليس مجرَّد مسألة أسلوب. بل إنَّ الاستجابة السَّاخرة تتلخَّص في المرض الذي يُزعَم بأنَّه العلاج. وكما يقترح جيفري غوردون، فإنَّ علاج ناجِل «يؤخَذ كعلامة على مرحلة جديدة من أزمَتنا الرُّوحيَّة، وهي المرحلة التي نحاول فيها، بعد أن سَئِمنا حزننا، إقناع أنفسنا بعدم أهميَّة المفجوع».[٨٦]

إنَّ إلحاح كامو عند مواجهته سؤال المعنى، بعيداً عن كونه مسرحيًّا، هو الإقرار العميق بأبعاد المُشكلة. إنَّ الانفصال السَّاخِر

يرقى إلى مستوى ارتداء عمامة فلسفيَّة. ولكن بالنِّسبة للفَرد الذي يضعها جانباً، يكتب كامو:

«ليس هناك مَشهَدٌ أدَقُّ من مَشهد الذَّكاء القادر على الإمساك بواقع يتجاوزه... إنَّ تعرية ذلك الواقع الذي تشكِّل لا-إنسانيَّته عظمة الإنسان يعادل تعريته هو نفسه. عندها أفهم لماذا تلك العقائد التي تفسِّر كلَّ شيءٍ لي، تُضعفني أيضاً في الوقت نفسه. لقد خَلَّصَتني من عبء حياتي».[٨٧]

في الواقع، إنَّ الفلاسفة -سواءٌ كانوا من اللاهوتيين أو الإيديولوجيين على أقلِّ تقدير - مذنبون في هذا النَّشاط. ولكن في حين تقدِّم فئة معيَّنة من الفلاسفة المُحترفين في هيأة عقيدة، فإنَّ نوعاً آخر من الفلاسفة، أقرب إلى الفلاسفة الأخلاقيِّين، يطرحون أسئلة فقط. لاحَظَ روبرت سولومون أنَّ الحجج في «**أسطورة سيزيف**» غير صحيحة ومتخبِّطَة. ولكن هل يجب أن نصرَّ على تفسير هذه الحجج من منظور فلسفيٍّ مَحض؟. ومن هذا المنظور، فإنَّ ادِّعاءات كامو ليست أكثر صرامةً أو منطقيَّة من ادِّعاءات أفلاطون. ولكن هل يمكننا، بالتَّالي، أن نستبعد أفلاطون، أو كامو؟ وإن فعلنا ذلك، أوَليس القارئ، وليس المفكِّر، هو الذي يخون السبب الذي وُجِدَت الفلسفة من أجله؟. اقترح سولومون أنَّ هذا الرَّفض للجَدَل بمثل هذه المصطلحات المنطقيَّة الضَّيِّقة هو ما يجعل بعض الفلاسفة عظماء: «**قد يحاولون القيام بشيءٍ آخر: لجعلنا نفكر، لإعطائنا رؤية، ولإلهامنا لتغيير نمط حياتنا عن طريق العديد من الأدوات المختلفة، واحدة منها فقط هي الحجَّة**».[٨٨]

وهناك طريقة أخرى؛ من خلال تصوُّر شخصيات أسطوريَّة أو معاصرة: سيزيف من ناحية، أو قروي من شامبون من ناحية أخرى. اكتشف كامو أنَّ العبور من أحدهما إلى الآخر هو العبور من التَمَرُّد الفَردي ضدَّ عبثيَّة العالم، إلى التَمَرُّد الجماعي ضدَّ وحشيَّة الإنسان تجاه الإنسان.

*****

وبحلول أواخر عام ١٩٤٢، كان القرويُّون في شامبون المجاورة قد تحمَّلوا ثِقَلَ حياتهم الخاصَّة من خلال قبول عبء حياة الآخرين. وتحت قيادة قسِّيسهم أندريه تروكمي، كان أهالي شامبون على علمٍ تامٍّ بالمستقبل الذي كانت حكومة فيشي تعدُّه لليهود. وفي وقتٍ مبكِّرٍ من عام ١٩٤٠، عندما احتَضَنَت أمَّة مُحبَطَة المارشال فيليب بيتان، رئيس حكومة فيشي، حافظ تروكمي على مسافة، ورفض في عام ١٩٤٠ التَّوقيع على يمين الوَلاء لبيتان أو قَرع أجراس الكنيسة في عام ١٩٤١ للاحتفال بعيد ميلاده. في هذه الحالات وما شابَهَها، تجنَّب تروكمي مواجهة السُّلطات بشكلٍ مباشر: تمسَّكَ بمعتقداته، ولكن دون تعريض كنيسته للخطر.

ولكنَّ كلَّ ذلك قد تغيَّر عندما تَزايدت أعداد اليهود الذين وضعوا نجمة سداسيَّة صفراء على ملابسهم الخارجيَّة سنة ١٩٤١، وخرجوا من المنطقة المُحتَلَّة وبدؤوا يشقُّون طريقهم إلى شامبون. ومن أجل إيواء هؤلاء اللاجئين، أدرك تروكمي الحاجة إلى مقاومة أكثر منهجيَّة وخطورة. وقد أكَّدَ الفيلسوف فيليب هالي أنَّ

تروكمي وزملاءه القرويِّين كانوا هُواةً. ولم يكن هناك معلِّمون، أو كتيِّبات تمهيديَّة، أو حتَّى كتيِّبات مقاومة يمكنهم الرُّجوع إليها. إنَّ إقامة خطوط اتِّصال مع الجماعات السِّريَّة الأخرى، وإيجاد منازِل إيواء آمنة، واستحداث أسماء مُستعارَة للاجئين، وتزوير أوراق وبطاقات هُويَّة، كلّها أمور تتطلَّب درجة استثنائيَّة من التَّخطيط والرِّعاية. ومع ذلك، ظلَّت الجوانب العمليَّاتيَّة والتنظيميَّة للعمل على إنقاذ أرواح الآخرين مستمرَّةً.

وبالقدر نفسه من الأهميَّة، كانت عناصر المقاومة أقلَّ عمليَّاتيَّةً. وفيما كان القرويُّون يتلمَّسون طريق تأسيس منظَّمَة فعَّالة، لم يترددوا في مقاوَمة الحاجة إلى المقاومة. وقد نتجت وضوح رؤيتهم جزئيًّا عن التَّجربة التَّاريخيَّة لمجتمع الهوغونوتيين، ولكنَّها لا تقلُّ أهميَّة عن ذلك، إنَّها تعكس موقفاً أخلاقيًّا مارسه تروكمي طوال حياته كبالغ. فالمقاوَمة، أوَّلاً وقبل كلِّ شيء، طريقة لرؤية العالم، طريقة تبرز الواجب الأخلاقي المُتَمثِّل في الاعتراف بكرامة كلِّ فردٍ من أفراد الجنس البشري واحترامها.

نتيجةً لهذا، بحلول الوقت الذي بدأ فيه مواطنوهم الفرنسيُّون من الرِّجال والنِّساء في إدراك طبيعة حكومة فيشي الوحشيَّة، كان أهل شامبون يدركون بالفعل ماذا يتعيَّن عليهم أن يفعلوه. وهذا ينطبق على شيء يبدو بسيطاً مثل رفض التَّوقيع على قَسَم الوَلاء، أو على شيء أكبر بكثير ـ عندما سَلَّمَ شباب القريَّة رسالة إلى وزير حكومي زائر، معلنين أنَّهم لن يقبلوا أبداً طريقة تعامل النظام ضدَّ اليهود. وذلك ينطبق، بطبيعة الحال، على إنقاذ أرواح أكثر من ثلاثة

آلاف من البالغين والأطفال اليهود بإلحاقهم مع أسرهم، أو إخفائهم في المنطقة، أو إخراجهم من البلاد. وكما كتبت أيريس مردوخ، فإنَّ رؤية العالم بوضوحٍ ثابتٍ تعني أنَّه عندما يحين الوقت لاتِّخاذ خيارٍ أخلاقي، يكون الخيار قد تمَّ اتِّخاذه بالفعل.[٨٩]

*****

ربما لَم يَعف الزَّمن على العبث على الإطلاق. خُذ أيُّوبَ مثلاً. جميعنا نعتقد أنَّنا نعرف القصَّة التَّوراتيَّة ـ حتى نتذكَّر القصَّة المحصورة بين بدايتها ونهايتها. إذا قرأنا فقط الإصحاحين الأوَّل والأخير، نلتقي بالرَّجل الذي نعرفه جميعاً: ذلك الرَّجل في أرض أوز الذي يُكافَأ على مخزونه اللامتناهي من الصَّبر والإيمان بإله. إذا قرأنا الفصول الأربعين بينهما ـ المقاطع التي يعتقد العلماء أنَّها أقدم من الفصلين الافتتاحي والختامي ـ نقابل رجلاً في مواجهة نظامٍ كونيٍّ يمحو كل اعتقادٍ كان لديه بشأنه.

تذكَّروا ماذا حدث: عندما يُثني الرَّبُّ على خادمه أيُّوب ويمتدحهُ، يراهن خَصمُهُ ـ الاسم الذي يطلقه روبرت ألتر على الشيطان في ترجمته للكتاب المقدَّس[٩٠] ـ قائلاً: إذا أخذت كل ما أعطيته للرجل منه، أراهن أنَّه سيلعنك ويتبرَّأ منك. يقبل الرَّبُّ رهان الخَصم، ويتنزَّل كلّ الجحيم في حياة أيُّوب الأرضيَّة. فقد خسر قطعانه، وخُدَّامه، والأهمُّ من ذلك، أولاده. وكَركلة أخيرة لجسم أيُّوب المُنهار، قام الخَصم ـ بموافقة الرَّبِّ بالطبع ـ بإصابته بدمامل متقرِّحة من باطن قدمه إلى تاجه. وعلى غرار الأصدقاء

الثَّلاثـة الذيـن يجتمعـون ليندبـوا مـع أيُّـوب، يرغـب القـرَّاء أيضـاً في البـكاء، حتَّـى أنَّهـم قـد يُمَزِّقـون ثيابهـم، ويـذرون الـتُّراب عـلى رؤوسـهم، ثـم يجلسـون في صمـت سبعة أيَّامٍ. يبـدو أنَّنا نحتاج على الأقـل إلى ذلـك القـدر مـن الوقـت لمحاولـة فهـم الأبعـاد الأخلاقيَّة والفلسـفيَّة لهـذه القصَّـة. أيـن تـترك سلسـلة الكـوارث ـ التـي لا يمكـن تفسيرهـا ـ هـذه أيُّـوب الـذي لا يسـتحقُّها؟ إنَّهـا تتركـه، بـكلِّ بسـاطة، جالسـاً فـوق كومـةٍ مـن الرَّمـاد، يكشـط الدَّمامـل المُتَقَرِّحـة بقطعـةٍ مـن الفَخَّـار، وهـو يبحـث عـن إجابـة شـافية لَمـا أَلَمَّ بـه.

يلجـأ أيُّـوب أوَّلاً لأصدقائـه ليحصـل منهـم على إجابة، وجميعهـم يُصِرُّونَ ـ كلٌّ حسـب طريقتـه ـ على أنَّ عقـاب أيُّـوب لا بـدَّ أن يكون عـادلاً، نَظَرًا لطبيعـة الـرَّبِّ. لكـنَّ هـذا الجـواب في نَظَـر أيُّـوب ليـس مجرَّد افـتراء ـ فهـو يعـرف أنَّـه لم يَفعـل شـيئاً خاطئـاً ليسـتحقَّ غَضَبَ إلهـه ـ لكنَّـه فَشِـلَ أيضـاً في الخيـال الأخلاقـي. يتمسَّـك الأصدقـاء بموقـفٍ معيَّنٍ ـ أي إيمانهـم بعـالمٍ تحكمـه العدالـة الإلهيَّـة ـ مكتشـفين بيـأسٍ، مـن خـلال كلماتـه وتجاربـه، الفَـراغ المُطلَـق لقناعتـه هـذه. في منتصـف القصَّـة، يرفـض أيُّـوب إمكانيَّـة المُواسـاة، ناهيـكَ عـن التَّفَهُّـم، مـن أصدقائِـه. وبـدلاً مـن ذلـك، جعلـوه «غريبـاً في نظرهـم».

ومـن المؤسـف أنَّ السَّـماوات لا تبـدو أقـلَّ تصميـماً عـلى إبعـاد أيُّـوب وإقصائـه. فبينـما هـو يتابـع سلسـلة تسـاؤلاته تبقـى السَّـماء صامتـة. «هـا إنِّي أصرُخُ ظُلْـماً فَـلا أُسـتجابُ. أدعـو وليـس حُكْـمٌ. قـد حَـوَّطَ طريقـي فـلا أعبُر، وعـلى سُبُلي جَعَـلَ ظلامـاً. أزالَ عنِّـي كَرامتـي ونَـزَعَ تـاج رأسـي». في الواقـع، يُصبِـحُ صمْـت العـالَمِ صمْتـاً

فقط عندما يدخل البشر في المعادلة. إنَّ أيُّوب يبحث عن إجابةٍ أو مَعنًى، لا يقلُّ عبثيَّة عن أن يَسأل نفسه ماذا عليه أن يفعل إذا لَمَ يَعثر على معنى؟ فما هي خطوته التَّالية إذا لم يظهر المعنى في الموعد المُحَدَّد «لكن أين نَجِدُ الحكمة؟ / وأينَ مكان الفَهم؟».

من عجيب المفارقات أنَّ المشكلة التي تواجه أيُّوب تكمن بالنِّهاية في صمْت الرَّبِّ أكثر من ما تكمُن في كلماته. وأخيراً، يستيقظ الرَّبُّ ويتكلَّم من خلال زوبعَة، مطالباً «مَنْ هـذَا الَّـذِي يُظْلِمُ الْقَضَاءَ بِكَلامٍ بِلا مَعْرِفَةٍ؟ اُشْدُدِ الآنَ حَقْوَيْكَ كَرَجُلٍ، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي. أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ». يُطلق صوت الزَّوبعَة عشرات الأسئلة المُشابهة، وجميعها لا تمتُّ بصلةٍ إلى بحث أيُّوب عن المعنى. وبعد انتهاء هذا الامتحان، يعترف أيُّوب أنَّه لم يكن يملك الحقَّ في أن يطالِبَ بمعرفة أسباب معاناته. ويبدو أنَّ عدم التَّناسب المُطلق بين نظرة الرَّبِّ ونظرة أيُّوب سَبَبٌ وجيهٌ وكافٍ.

وفي نهاية المطاف، يكتشف أيُّوب أنَّه يعيش في عالمٍ مُجَرَّدٍ وخالٍ حيث تستنزف غرابته ولامبالاته أيَّ مُحاوَلَةٍ للفَهم. واستجابةً لَمطلبه بالحصول على أجوبة، يَصمْت في البداية، ثمّ يَلي الصَّمْتَ كلماتٌ تنكر إمكانيَّة وجود معنى. هنا، يُذعِنُ أيُّوب بالطبع. وهنا يَكمُن العَبَث. ولكن هل هناك، في النِّهاية، فرقٌ بين صمْت كَونِ كامو، وصوت جواب الرَّبِّ وغضبه؟ إنَّ الكلمات التي تدور وتخرج من زَوبعَة الغضب والعِناد، ولكن لا يحتاج المَرء أن يكون مارتن بوبر ليُدرك أنَّ الرَّبَّ لا يستجيب أبداً لإصرار أيُّوب على

أن يكـون لـكلِّ ما حَـدَثَ معنـى مـا. يتركنـا مؤلِّـف كتـاب أيُّـوب مـع الشُّـعور نفسـه الـذي يشـعر بـه مؤلِّـف أسـطورة سـيزيف: لا معنـى لوجودنـا. فَعِوَضـاً عـن أن نتنفَّـس الصُّعَـداء مـع أيُّـوب الـذي كافـأه الإلـه عـلى ولائِـهِ، علينـا أن نواجِـه أيُّـوب الـذي يسـتجيب لجهـود الـرَّبِّ الصَّامتـة والمُخَيِّـة للآمـال في تبريـر الـذَّات بصمْـت.

وفي الحقيقـة، يقـترح مارتـن بوبـر أنَّ أيُّـوب، بعـد أن فشـل في سـعيه لتحقيـق العدالـة في العـالَم، لا يجدهـا إلا في داخلـه. فمـع قصَّـة أيُّـوب، يتابـع بوبـر، «**نَشـهَدُ أولى تباشـير المَسـعى البشـري في شـكل كلام**».[٩١] فأيُّـوب الصَّامـت، وليـس أيُّـوبُ المُتَذَلِّـل، هـو أيُّـوب كامـو –وربَّـما كان أيُّـوب المؤلِّـف الأصـلي أيضـاً. وكـما يشـير جـاك مايلـز، بعـد هـذا الكتـاب، لم يتحـدَّث الـرَّبُّ مَـرَّةً أخـرى في الكتـاب المقـدَّس. ويشـير أنَّ كلـمات الإلـه الأخـيرة، كـما يقـول:

> «هـي تلـك التـي يتحـدَّث بهـا الـرَّبُّ إلى أيُّـوب، الإنسـان الـذي لا يَجْرُؤ على تحدِّي قوَّتـه الجسـديَّة فقـط، ولكـن سـلطته الأخلاقيَّـة...... وبقـراءة كتـاب أيُّـوب مـن نهايتـه فصاعـداً، نجـد أنَّ أيُّـوب هـو الـذي أسـكَتَ الـرَّب بشـكلٍ مـا».[٩٢]

وفي النِّهايـة، لدينـا كتابـان مختلفـان للحكمـة، ومؤلِّفـان مختلفـان، لكنَّهـما ربَّـما يقدِّمـان الـدَّرس نفسـه.

*****

ولكـن مـا مـدى أهمِّيَّـة هـذا الـدَّرس في فرنسـا في زمـن الحـرب؟ في عزلـة لـو بانيلييـه، بـدا كامـو محميًّـا مـن الأحـداث غـير العاديَّـة

التـي تتكشَّـف ببـطءٍ في شـامبون. ليـس هنـاك أيُّ أثـرٍ مبـاشرٍ في مُذكِّراتـه أو مُراسـلاته التـي تكشـف عـن معلومـات حـول أنشـطة الإنقـاذ عـلى الطَّريـق مـن المزرعـة. ولعـلَّ ذلـك أمـرٌ طبيعـيٌّ: فـإذا لم يَكُـن كامـو عـلى علـم بهـذه الأنشـطة، فلـن يتمكَّـن مـن سَردهـا؛ وإذا كان يعلـم بهـا، فَلَـن يَسرُدهـا لأسـبابٍ أمنيَّـة. في حـين أنَّ أفـراد العائلـة لا يتذكَّـرون أي سَردٍ للأحـداث مـن قِبَـل كامـو في شـامبون، يدَّعـي عـددٌ مـن المعاصريـن أنَّ كامـو كان عـلى علـمٍ بهـذا المـشروع عـلى أقـلِّ تقديـر. ذلـك أنَّ بعـض المتقاعديـن في لـو بانيلييـه كانـوا هـم أنفسـهم لاجئـين يهـوداً. وهـذا أحـد الأسـباب التـي دفعـت أندريـه شـوراك، دليـل كامـو للكتـاب المقـدَّس العـبريِّ، إلى الإصرار عـلى أنَّ صديقـه «كان **عـلى علـمٍ دائـماً بالمقاومـة التـي أنشـأها القسيسـان تروكمـي وثيـس في لـو شـامبون سـور لينيـون**».[٩٣] وهنـاك سـببٌ آخـر هـو أنَّ أسـماء العديـد مـن الشَّـخصيات في الرِّوايـة التـي كان يقـوم بصياغتهـا الآن، الطاعـون، كانـت متوازيـة مـع أسـماء شـخصيَّات محليَّـة. وعـلى الأخـصِّ، يبـدو أنَّ راوي القصَّـة (وبطـل) الرِّوايـة، الدكتـور ريـو Dr. Rieux، مسـتوحى مـن شـخصيَّة الطَّبيـب في شـامبون، د. ريـو Dr. Riou.

ولكـن في النهايـة، تُطـرح أسـئلة عـلى غـرار «مـاذا كان يعـرف، ومتـى كان يعـرف؟»، وهـي أسـئلة ببسـاطة غـير ذات صلـة. لأيِّ سـببٍ كان، بحلـول أواخـر عـام ١٩٤٢ كان كامـو قـد بـدأ في إعـادة النَّظر في حـدود العَبَـث. وقـد تسـاءل في مذكِّراتـه مـاذا سـيكون العـالم بالنِّسـبة لمفكِّـرٍ أعلَـنَ فجـأةً:

«كنتُ حتى الآن أسير في الاتجاه الخاطئ. سأبدأ من جديد. سيضحك عليه العالَمُ بالطبع. ولكن لا ينبغي لذلك أن يثني المُفَكِّرَ النَّزيه عن ذلك. وهو دليل إضافي على أنَّه يستحقُّ التَّفكير».[٩٤]

وقد تقبَّلت هذه المرحلة الجديدة من التأمُّل والتَّفكير حقيقة أنَّ العالم عَبَثيٌّ -تشخيصٌ لا مَفَرَّ منه للحالة البشريَّة. ولكن في الوقت نفسه، أدركَ كامو أنَّه لم يكن أكثر من مجرَّد تشخيص. ومن ثمَّ اعترف في مقدِّمة الطَّبعة الأمريكيَّة من الأسطورة أنَّ المخاوف الأساسيَّة التي دفعته إلى كتابة أسطورة سيزيف ما زالت موجودة. على الرغم من أنَّه «تجاوزَ العديد من المواقف المُحَدَّدة» في الكتاب، كتب كامو: «إلا أنِّي بَقيتُ مخلصاً، كما يبدو لي، للضَّرورة التي حفَّزتها».[٩٥]

وفي عام ١٩٤٢، كتب كامو في كتابه أنَّ العَبَث: «لا يُعَلِّمُ شيئاً».[٩٦] وبدلاً من النَّظر إلى أنفسنا، كما فعل سيزيف أو ميرسو أو حتى أيُّوب، يجب أن ننظر إلى الآخرين: نحن، يقرُّ كامو، محكومٌ علينا بالعيش معاً في هذا العالم الصَّامت. وعندما أمَرَ مسؤولٌ في حكومة فيشي أندريه تروكمي بإخباره عن مكان وجود اللاجئين اليهود، أجاب القسُّ: «نحن لا نعرف ما هو اليهودي. نحن نعرف النَّاس فقط».[٩٧] في الفترة نفسها، رَدَّدَ كامو صدى هذا الشُّعور: «بؤس هذا العالَم وعظمته: إنَّه لا يقدِّم حقائق، بل مجرَّد مواضيع للحُبِّ. العَبَث مَلِك، والحُبُّ ينقذنا منه».[٩٨]

الفصل الثاني

الصَّمْت

في البداية كان هناك صمْت. وفي نهاية رحلة ليليَّة بالقطار في مَقصورة من الدَّرجة الثَّالثة من العاصمة الجزائر، وصل الزَّوج والزَّوجة، الحامل منذ أشهر عدَّة، إلى بون، وهي مدينة صغيرة تقع على السَّاحل الشَّمالي الشَّرقي للجزائر. وبينما كانت الزوجة تراقب، ساعد الرَّجل سائقاً عربيًّا في تحميل حقائبهما القليلة في عربة تجرُّها الخيل في انتظار نقلهما إلى المزرعة التي عُيِّنَ الزَّوج لإدارتها. أدَّت الرِّحلة المُزعجة على الطرقات المَليئة بالحُفَر والموحِلَة إلى تسريع الولادة، لأنَّ الزوجة بدأت تعاني من آلام المخاض في العربة. وعندما وصل المسافران إلى وجهتهما، كانت المرأة «تبكي بصمْت» من الألم. وَصَلَ الطَّبيب المَحَلِّي، ووضع سريراً مؤقَّتاً أمام الموقد، ووُلِدَ صبيٌّ. وفيما كان المطر يَنهَمر،

نـام الرَّضيـع ووالـداه في صمْـت منزلهـم الجديـد.

أو، ربَّـما، كانـت البداية كلمـة. يبـدو أنَّ رواية كامـو عـن ولادتـه، التـي تبـدأ بهـا روايتـه الأخـيرة وغـير المكتملـة **«الرَّجـل الأوَّل»**، تسـتند إلى قصَّـة عائليَّـة. كيـف يمكـن أن يكـون خـلاف ذلـك؟ ليـس هنـاك شـاهدٌ عـلى ولادتـه. يبـدأ القدِّيـس أوغسـطين، الـذي أنهـى حياتـه كأسـقف لهيبـو (كـما كانـت بـون معروفـة آنـذاك)، **اعترافاتـه** بسَـرد قصَّـة ولادتـه. ولكـن كـما أشـار عـلى الفـور، لا يمكنـه أن يشـهد عـلى ذلـك بنفسـه. وبـدلاً مـن ذلـك، وَجَـبَ أن يعتمـد عـلى روايـات الآخريـن:

«قـد سـمعت مـن والـدَي جسـدي، مـن أيـن وممـن صنعتـماني في الوقـت المناسـب؛ لأنِّي أنـا نفسـي لا أتذكَّـر».[1]

في **الاعترافـات**، يحـاول **«الشَّـمال الأفريقـي الآخـر»**، كـما أشـار كامـو بتلطُّـف إلى أوغسـطين، فَهـم أصولـه. وكذلـك فعـل كامـو في عملـه الأخـير. يَسـتجوب أوغسـطين الإلـه عـن العـالم وعـن نفسـه، لكنَّـه لا يتلقَّـى سـوى الصَّمْـت في المقابـل. وعـلى المنـوال نفسـه، يُسـائل بطـل روايـة كامـو، جـاك كورمـيري، ماضيـه ولا يجـد سـوى الصَّمْـت. ومـن الصمْـت الـذي يغلِّـف حادثـة ولادتـه، ينتقـل كورمـيري إلى الصمْـت الـذي يحيـط بوفـاة والـده. قُتِـلَ عـام ١٩١٤ في معركـة المـارن عندمـا كان ابنـه الأصغـر بالـكاد يبلـغ مـن العمـر سـنةً واحـدةً، ولم يـترك لوسـيان كامـو وراءه سـوى القليـل. شـظايا مـن القذيفـة التـي أزيلَـت مـن جمجمتـه؛ وصليـب الحَـرب؛ ورسـالة رسـميَّة تُعلِـن وفاتـه؛

وصورة غير واضحة لشاب بعينين لوزيَّتين: القطع التي خلَّفتها حياة والده.

وعلى غرار العديد من ذوي الأقدام السُّود، دُفن لوسيان كامو في تراب فرنسا؛ في حالته، بمقبرة عسكريَّة في سان بريك، وهي مدينة صغيرة في بريتاني. في عام ١٩٤٧، زار كامو المقبرة بصحبة الرِّوائي لويس غيو، الذي كان يعيش خارج المدينة. اصطحبَ الكاتب الأقدم كامو إلى المنطقة المحجوزة للجيش، وبقي هناك فيما سار كامو الى لوحٍ حجريٍّ بسيط محفور عليه اسم أبيه وتاريخ ولادته ووفاته. وعندما عاد إلى غيو، لم ينطق كامو بكلمة واحدة. في رواية **الرجل الأول**، يعيد كامو هذه الزِّيارة: بينما كان كورميري يحدِّق «بفراغٍ» في الحجر، لاحظ سُحُباً تَعدو فوقه. وفي كلِّ مكان، **«ساد الصَّمْتُ في حقل الموتى الشَّاسع. لا شيء سوى همس مكتوم من البلدة جاء فوق الجدران العالية»**. وعندما يسمع كورميري **«قَعقَعَة دلوٍ على رخام شاهدة قبرٍ»**، ينقطع شروده. ثمَّ يرى لأوَّل مرَّة التَّاريخ تحت اسم والده: «١٨٨٥-١٩١٤». ويتعمَّق صمْته مع إدراك حقيقة أنَّ **«الرَّجل المَدفون تحت ذلك اللوح، الذي كان والده، كان أصغَرَ منه سنًّا»**.

تؤدِّي هذه الصَّدمة إلى تحرير مَوجَة عارِمَة من الذِّكريات، التي يغمر معظمها الصمت. وكان شبابه **«يَجهَدُ دوماً نحو هذا الهدف الذي لا يعرف عنه شيئاً»**؛ وفجأة، كل شيء يبدو مرتبطاً بهذا الرَّجل الذي يعرف فقط أنَّه يشبهه، ولكن ماذا عساه أن يفعل **«في عائلة لا يتكلَّمون فيها إلَّا قليلاً، حيث لا أحد يقرأ أو يكتب، مع أم تعيسةٍ**

وباردة، مَن كان سيخبره عن هذا الأب الشَّاب المُثير للشفقة».[٢]

*****

يصرُّ ماكس بيكارد في عمله المتميِّز والمُقنِع غالباً «**عالَمَ الصَّمْت**» على أنَّ الصَّمْت ليس مجَّرد أمرٍ سلبيٍّ ببساطة ـ مجرَّد غيابٍ للكلام أو ما لا نسمعه عندما يتوقف الآخرون عن الكلام، وتتوقَّف الآلات عن الطَّنين، وتتوقَّف أجهزة الرَّاديو والشَّاشات عن إصدار ضوضاء. بل على العكس، إنَّه موجودٌ بمَعزلٍ عن اللغة والضَّوضاء؛ إنَّه «**عالمٌ كاملٌ في حَدِّ ذاته. للصَّمْت عظمةٌ فقط لأنَّه كذلك ببساطة. تلك هي عظمته البحتة بكل صفائها ونَقائِها**».[٣]

إنَّ ملاحظة بيكارد أنَّ الصَّمْت، مع أنَّه ليس مرئيًّا ولا مُحَدَّداً، له حضورٌ واضحٌ ومُحَدَّدٌ في العالَم، يغمرُ ذكريات كامو عن طفولته. كانت جدَّة كامو، كاثرين ماري كاردونا سينتيس، قد اعتنت بوالدته وشقيقه الأكبر عندما مضى لوسيان إلى الحرب. وبموته، أصبحَ مكان إقامتهم المؤقَّت في حَيِّ الطَّبقة العاملة في بيلكورت، دائماً. كانت (كاثرين سينتيس) أرملةً، وأمًّا خشنة، وأمِّيَّة ومُباشَرة. فَبَدَل أن تتكلَّم أو تصيح، كانت أحياناً تصفع كامو وأخاه الأكبر لوسيان، أو تجلدهما.

وكان أحد إخوَة الجدَّة، إتيان، يقيم أيضاً في الشَّقَّة. وكان هذا الرَّجل القويُّ البنية، على غرار ابنة أخته كاثرين، غير قادرٍ على السَمع أو التَّكلُّم إلَّا بصعوبة. وبما أنَّ إتيان كان تاجر براميل، كان يصطحب كامو الى ورشة صُنع البراميل، أو إلى الرِّيف للقيام

برحلة صيدٍ في يوم الأحد. فيما يتعلَّق بماضيه، كل ما تعلَّمه كامو من إتيان هو أنَّ الابن لديه «**رأسٌ صلبٌ**» مثل والده: «**كان يفعل ما يريد، دائماً**». ونظراً لعدم قدرته على التَّعبير عن نفسه بالكلام، كان إتيان بدلاً من ذلك» **يُصدِرُ مجموعةً متنوِّعةً من الأصوات ليُعَبِّرَ عن ما يَجول في خاطره**».[٤]

كان إتيان يؤدِّي أيضاً إيماءات متقنة، شكلا صامتا من السَّرد الرِّوائي لا يقتصر على شقَّة العائلة. بعد ظهر يوم الأحد، كان كامو الشَّاب يصطحب جدَّته إلى دار السينما المحلِّيَّة. كانت الأفلام صامتة، ولكنها لم تكن خالية مِنَ الكلمات: حيث حَمَلت عديد من الإطارات حواراتٍ أو تعليقات توضيحيَّة. كانت الجدَّة غير قادرةٍ على القراءة، وتوقَّعت من كامو أن يقرأ بصوتٍ عالٍ في هذه اللحظات ـ وهي مَهمَّةٌ صعبة: فعندما يتحدَّث بصوتٍ عالٍ كان ذلك يُزعج روَّاد السِّينما الآخرين، ولكنَّ التَّحدُّث بصوتٍ خفيضٍ كان يزعج جدَّته. وبين فكَّي هذه الكمَّاشة المتضاربة، يصمُت الولد أحياناً. وهذه المرَّة أشعَلَت غضب جدَّته. ولمَّا كانت غير قادرة على فهم الفيلم، خرجت من السينما، وتَبِعَها كامو باكياً، «**مُنزَعجاً من فكرة أنَّه أفسد واحدة من مَلَذَّات تلك المرأة المسكينة النَّادرة، وأنَّه قد تمَّ دفع ثمن ذلك من أموالهم الشَّحيحة**».[٥]

ولكنَّ كاثرين سينتيس كانت أعمق مَصدرٍ للصمْت في حياة كامو، على الرغم من أنَّه كان قَصِيًّا وبعيد المنال. عندما عاد الشَّاب كامو إلى الشَّقَّة، كانت والدته هناك معظم الأحيان. ومع ذلك، لم تكن حاضِرَة. كانت تجلس على كرسي قرب النافذة

وتُحـدِّقُ إلى الخـارج بصمْـت. كان النَّـاس يسـألونها أحيانـاً: «بـماذا تفكِّرين؟»، وكانت تجيب: «**لا شـيء**». وكان ذلك صحيحاً. إنَّها لا تفكِّر بشيء. في الخـارج، كان هنـاك الضَّـوء، والضَّوضـاء؛ هنـا، كان صمْت الليـل.[٦] وفي هـذه المَقالـة المبكـرة، التـي تحمـل عنـوان «**بين نعـم ولا**»، يعترف كامـو بأنَّ «**صمْـتَ والدتـه الحيـوانيَّ يجعلـه يرغـب في البـكاء مـن شـدَّة الألم**». الشّـفقة تغمـر قلبـه، ولكـن هـل هكـذا هـو الحُـبُّ؟ هـل يمكنـه أن يحبَّ شـخصاً لم يسـبق لـه أن قبَّلَـهُ أو عانَقَـه مـن قبـل؟ يَقِـف كامـو عنـد المَدخـل، ويُحـدِّق في والدتـه، ويلمـح معانـاة عميقـة، إلَّا أنَّ والدتـه، الصَّـمَّاء والمشـغولة بأفـكار لا يمكـن فهمهـا، ليسـت عـلى درايـة بوجـود ابنهـا. «**فالصمْـت يمثِّل وقفـةً مؤقَّتـةً، لحظـةً طويلـةً جـداً. يـدرك الطِّفـل هـذا الأمـر بشـكلٍ غامـض، ويعتقـد أنَّ اندفـاع المشـاعر فيـه هـو حُـبٌّ لأُمِّـه. ولا بـدَّ أن يكـون ذلـك حقيقـيًّا، لأنَّهـا في النِّهايـة أمُّـه**».[٧]

قيـل إنَّ والـدة كامـو كانـت تتحـدَّث بسـهولة وسلاسَـة كامـرأة شـابَّة، تمامـاً كـما كان يُعتَقَـد أنَّ صدمـة وفـاة زوجهـا في معركـة المـارن تركتهـا بلسـان أعـوَجَ. ولكـن مـن المؤكَّـد أنَّ كاثريـن انتقلـت مـع ابنيهـا ألبـير ولوسـيان إلى شـقَّة أمِّهـا في بيلكـورت، حيـث أمضـت بقيَّـة حياتهـا هنـاك كعاملـة تنظيـف. كانـت كلماتهـا نـادرة في معظـم الأحيـان، ولم تكـن تتحـدَّث إلا عندمـا يخاطبهـا الآخـرون، حتَّـى بعبـارات موجَـزَة. ولكـنَّ حضورهـا، مثـل الشَّـمس التـي لا يمكـن رؤيتهـا، مـارس ضغطـاً هائـلاً عـلى ابنهـا ـ الشَّـمس التـي كانـت تشـعُّ صمْتـاً قيظيًّـا لاذعـاً حملـه معـه طـوال حياتـه.

تحتلُّ صورةُ الأمِّ الصامتة محور كتابات كامو أكثر من البحر حتَّى: فهي الشَّمس، أو ربَّما المادَّة المُظلمة، التي ينجذب نحوها كلُّ شيءٍ آخر. إنَّ موت والدة ميرسو هي النُّقطة التي رسمت بداية انحلال حياته وتفكُّكها؛ إنَّ وجود والدة ريو الخالي من الكلمات في الغالب هو الذي يَمنع انهيار عالمٍ يَجتاحه الطَّاعون؛ وتحت نظرة والدة كورميري الصَّامتة، يبدأ الأخير رحلة البحث عن ماضيه. عندما بدأ برسم معالمِ **الرَّجل الأوَّل** خلال السَّنوات الأخيرة من حياته، وصف كامو الرِّواية بأنَّها «**رحلة من أجل اكتشاف سرِّه: إنَّه ليس الأوَّل. كل رجلٍ هو الرَّجل الأوَّل، ولا أحد هو. ولهذا السَّبَب يرمي نفسه عند قَدَمَي أمِّه**».

وقبل وقتٍ قصيرٍ من وفاته، وصف كامو هدفه الأدبيَّ: تأليف كتابٍ يكون محوره «**الصمْت الرَّائع لأمٍّ، وجهود رجلٍ واحدٍ لإعادة اكتشاف العدالة أو الحبِّ الذي يتماشى مع هذا الصمْت**». [٨] أنا لست متأكِّداً ممَّا كان يقصده كامو بهذا الادِّعاء. إنَّه يُشير إلى أنَّ عُمقَ الصمْت الأموميِّ لا يمكن، في الواقع، أن ينعكس بشكلٍ كاملٍ على الابن. وفي مذكِّراته إلى **الرَّجل الأخير**، يُصارع كامو حقيقةَ أنَّ كلَّ كتاباته، وجميع أعماله، مُكَرَّسَة لامرأة لا تستطيع القراءة ولا تتحدَّث كثيراً «**أكثر ما أراده في العالم، وهو أن تتمكَّن والدته من قراءة كلِّ ما يشكِّل حياته وكيانه، كان مستحيلاً. إنَّ حبَّهُ، حبَّه الوحيد، ستكون خَرساء إلى الأبد**». [٩]

*****

إنَّ الغيـاب الـذي نواجهـه عندمـا نُجهِد آذاننا ولا نَسـمع شيئاً، بدلا مـن أن يكـون نتيجـةً للتَّوقُّعات البشريَّة، هـو بالأحرى قـوَّةٌ إيجابيَّةٌ، قوَّةٌ أكبر بكثير وأقـدم مِنَ البشريَّـة، وربَّـما أقـدم مـن العـالم نفسـه. في أدب كامـو ومقالاتـه، يؤطِّـر العـالم هـذا الصمْـت البدائـي؛ المَناظـر الطبيعيَّة هـي مراحـل صامتـة؛ فالصَّحـاري، والجبـال، والهضـاب، والسَّـواحل، تؤكِّـد الصمْـت الـذي كان سـائداً قبـل مجيء الإنسـان.

في أوائل عـام ١٩٣٧، نظَّـم مسـرح Théâtre du travail، وهـو مجموعـة مسـرحيَّة للهـواة في الجزائـر العاصمـة، أداءً لمسرحيَّة إسـخيلوس «بروميثيـوس مقيَّـداً»، مسـتوحاة مـن النَّمـوذج الشِّـيوعي لجعـل الفَـنِّ في مُتَنـاول الطَّبقـة العاملـة، ومعظمهـم كانـوا مـن الطَّلاب والفنَّانـين مـن الطَّبقـة المتوسِّـطة والشَّـباب تشـكَّلت عـام ١٩٣٥. كان كامـو هـو الاسـتثناء الأكـبر؛ ينحَـدِرُ مـن حَـيِّ الطَّبقـة العاملـة في بيلكـورت، كان الطَّالـب الشَّـاب القـوَّة المميَّـزة وراء الفرقـة. انخَـرَط بعمـقٍ في الحيـاة السِّياسـيَّة للمدينـة ـ خـلال هـذه الفـترة انضـمَّ لفـترة وجيـزة إلى الحـزب الشِّـيوعي الجزائـري ـ رأى كامـو المسـرح كوسـيلة للفعـل في العـالم وكذلـك التَّمثيل أمـام الجمهور. وبعد عـرض مسـرحيَّة «زَمَـن الازدراء» لأندريـه مالـرو في عـام ١٩٣٦، قـرَّرَ كامـو اللجـوء إلى إسـخيلوس. وكـما هـو الحـال مـع مقـال مالـرو، تـمَّ اسـتدعاء عـمَّال عاطلـين عـن العمـل للحضـور مجَّانـاً واقتسـام عائـدات الدُّخـول.

ولا يَسَـعُنا أن نَتَسـاءَل فقـط عـن عجائـب مـا صنعـوه مـن قصَّـة المأسـاة ـ يسـاعد بروميثيـوس الإنسـان بمنحـه النَّـار الإلهيَّـة لتحقيـق حرِّيتـه، ليُعاقبـه زمـلاؤه الآلهـة عـلى ذلـك ـ ولكـن أيضـاً التَّصميـم

الرَّائع للمسرح والأزياء المذهلة. ارتدى جميع الممثِّلين أقنعة، باستثناء بروميثيوس، الذي كان يرتدي ملابس سوداء بالكامل. تولَّى كامو مَهمَّة تكييف التَّرجمات الفرنسيَّة المتوفِّرة، ولكن «**الثَّقيلة جدًّا**» في الإنتاج.[١٠] ولا عَجَبَ أن يبدو بروميثيوس كامو أقلَّ انشغالاً بمصير الجنس البشريَّ –البشرُ أحرارٌ ويخترعون بحرِّيَّة، بفَضل هِبَة النَّار – من عذابه الأبديِّ. إنَّه يَطلب من الطَّبيعة أن تَشهَدَ على عقابه، لكنَّه لا يعرف كيف يتحدَّث عنه: «**كيف يمكنني العثور على الكلمات التي تصف هذه القوَّة التي تدمِّرني، ولكن كيف يمكنني أن أبقى صامتا حيالها**».[١١] وغنيٌّ عن القول أنَّ الطَّبيعة لا تجيب –على الأقل بالكلمات. بدلاً من ذلك، تنتهي المسرحيَّة مع بروميثيوس عارياً أمام «**الرِّياح القارسة**».

مثلما يحدث في كسوف الشَّمس، يَتداخل مَداران من الصَّمْت: الحقيقة المُسبِّبَة للعمى وغير القابلة للنَّقل المتمثِّلة في ألم بروميثيوس، والظِّلُّ الذي يلقيه عالمٌ غير مبالٍ وصامت. ومرَّةً بعد أخرى، يجد بروميثيوس نفسه واقعاً بين الرَّغبة في الكلام، وإدراكه عَدَمَ جدوى ذلك: «**ولكن ماذا أقول؟ أعرف مقدَّماً كلَّ شيءٍ سيحدث بالضَّبط**». ثم، مرَّةً أخرى: «**يؤلمني أن أقول هذه الأشياء، ولكن من المؤلم أيضاً أن أصمت**». ويتفاقَم هذا الصمْت، جزئيًا، من فشل بروميثيوس بإيجاد كلمات كافية للمهمات المَطروحة؛ فهي تهجِّي انهيار اللغة. ولكنَّها تُنبئ أيضاً بصمْت مختلفٍ أعظم ينتظره بروميثيوس، صمْت يُناشدُ مخيلة البشر، عالَمٌ لن يجد فيه «**صوتاً أو شكلاً للإنسان**».

وفي وقتٍ لاحقٍ من العام نفسه، واجه كامو هذا الصمْت الأكبر الذي حَمَلَته الرِّياح اللاذعة عند خرائب مدينة **«جميلة»** الرُّومانيَّة. في طائرة تقودها ماري فيتون، وكانت صديقة وزميلة في مسرح العمل، طار كامو إلى هذا المكان القديم، والمدفون في جبال أطلس على بعد ٢٠٠ ميل شرق الجزائر العاصمة. وفيما كانت الرِّياح القاسية تقطِّع وَجهه وذراعيه دون هَوادة، أصابَ كامو **«صمْتٌ عظيمٌ وصادِمٌ يشبه ميزان الموازين»** لكنَّ الصمْت لم يكن متولِّداً -أو غير متولِّدٍ- عن أصوات الطُّيور والخِراف **«كأصوات كثيرة أدَّت إلى صمْت وخَراب هذا المكان»**.[١٢]

لكنَّ هذا الخَراب موضع ترحيبٍ وليس مَرفوضاً: فهذا الموقع المُتَّسِم بالصمْت، والرِّياح الهَوجاء، يكشف عن حقائق أساسيَّة عن الحالة الإنسانيَّة. **«جميلة تموت الرُّوح لتولَدَ حقيقةً هي نفيها ذاته»**. ويتشكَّلُ شيءٌ ما داخل هذه الدَّوَّامَة المُذهلة من الرِّياح والشَّمس، شيءٌ يطوف عبر الخرائب **«ويَمنَح الانسان مقِيَاساً لهويَّته مع عزلة وصمْت هذه المدينة الميِّتة»**. ولم يَشعُرْ قطُّ بهذا العمق، كما كتب في وقتٍ لاحق، **«مِنَ الانفصال عن نفسي وعن وجودي في العالم»**.[١٣]

وبَدَّدَ صمْت كامو في مدينة «جميلة» الأفكار والمَخاوف بشأن المستقبل؛ الأطلال ليست مؤطَّرة فقط بالضوء والفضاء، بل أيضاً بالهدوء الذي تجتاحه الرِّيح. ومِن بين أعمدة الظِّلال المَطولة **«تساقط القلق من السَّماء مثل الطيور الجريحة، وحَلَّ محَلَّه وضوحٌ قاحلٌ»**. وبعد أن استسلم كامو لنفسه بالكامل، شَعَرَ بأنَّه عاجزٌ

عن مواجهة هذه «**القوى العميقة التي تتصاعد في داخلي، والتي قالت: لا**». لا، باختصار، لخطط المستقبل، للحديث عن الغد، لأشياء لم تُنجَز بعد. بدلاً من ذلك، يطالب كامو بثقَل الحاضر، والأرض، وعالمٍ خالٍ من الأساطير والإيمان بأيِّ شيءٍ آخر غير ما يمكننا أن نراه ونلمسه ونشعر به. «**إنَّ البشر الجديرين بهذا الاسم سيرفضون، في نهاية حياتهم، الأفكار التي قبلوها ذات يوم، ويستعيدون البراءَة والحقيقة التي أشرَقت في أعين البشر القدماء الذين يواجهون مصيرهم**».[١٤] وينعكس هذا المصير في مصير بروميثيوس وسيزيف: أن يقبلا ما فعلاه، وأن يُسَلِّما بما أُعطِيَ لهما، وأن يستكشفا بصمْت الكون الصامت الذي يحيط بهما.

*****

وبعد سنتين، اصطدم كامو بنوعٍ مختلفٍ تماماً من الصمْت، صمْت يُخفي الحقائق الأساسيَّة عن الحالة البشريَّة بدلاً من كشفها. يقول ستيوارت سيم إنَّ هناك حالات يكون فيها الصمْت مهمًّا جدًّا «لأنَّ الضَّوضاء هي دلالة على القوَّة الإيديولوجيَّة».[١٥]

وفي عام ١٩٣٨، انضمَّ كامو إلى موظَّفي صحيفة L 'Alger republicain التي صَدَرَت حديثًا. على الرغم من أنَّه لم يَعمل صحفيًّا، إلا أنَّ كامو شارك الصَّحيفة هدفها في الكَشف عن الظّلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي الذي يعاني منه العمَّال في المناطق الحضريَّة والأرياف، من العَرَب والأمازيغ. في أوائل صيف عام ١٩٣٨، أوفَدَ مُحَرِّر الصَّحيفة باسكال بيا كامو إلى منطقة القبائل،

وهـي منطقـة جبليَّـة تقـع شرق الجزائـر العاصمـة.

كان الأمازيـغ يزرعـون التُّربـة الصَّخريَّـة، ويعيشـون في قـرى فـوق قمـم الجبـال، ويعيشـون عـلى بسـاتين التِّين والزَّيتـون التـي تتشـبَّث بالسُّـفوح الجبليَّـة. وفي أثنـاء فـترة «التَّهـدئة» التـي فَرَضَتهـا فرنسـا في هـذه المنطقـة، اسـتولى المسـتوطنون مـن أصحـاب الأقـدام السُّـود عـلى مسـاحات كبـيرة مـن الوديـان الصَّالحـة للزِّراعـة. وبدفـع الأمازيـغ صعـوداً أو خروجـاً، انسـحبوا إلى قراهـم الجبليَّة أو هاجـروا إلى وطنهـم الأم. وكحافـزٍ عـلى الهجـرة، فَرَضَـت الدَّولـة الفرنسـيَّة مجموعـة مـن القوانـين القاسـية عـلى السُّـكَّان المحليِّـين ـ قانـون السـكان الأصليِّـين. وكان مـن غـير القانـوني، بموجـب هـذه القوانـين، إهانـة المسـؤولين الفرنسـيِّين، أو تشـويه سـمعة الحكومـة، أو السَّـفر دون تصريـحٍ رسـميٍّ. بالإضافـة إلى ذلـك، نَفَضَـت الجمهوريَّـة الفرنسـيَّة الغبار عن ممارسـة السُّـخرة الإقطاعيَّـة feudal practice of corvée، ممَّـا أجـبَرَ الأمازيـغ عـلى العمـل في الأراضي التـي كانـوا يملكونهـا مـن قبـل دون أجـرٍ أو تعويـض.

عـرَّف كامـو عن هذه الممارسـات، ولكن بالطَّريقة نفسـها التي عرَّف بهـا عـن معركة المارن. كان هذا ظلماً، لكنَّـه كان قصِيًّا أيضـاً ـ في الواقـع، بعيـداً جـداً بـما يكفـي للسَّـماح لـه بإضفـاء الطَّابـع المثـالي عـلى المَشـهَد الجزائـري في مقالاتـه المبكِّـرة دون عرقلـة الشَّـعب اليائـس والمُهَجَّـر. بالنِّسـبة للشَّـاب كامـو الـذي لم يَزُر منطقـة القبائل بعد، أجبرَتنـا الطَّبيعة في شـدَّتها الحَميـدة عـلى مواجهـة الحيـاة ببسـاطتها القاسـية **«بـين هـذه السَّـماء والوجـوه التـي اتَّجَهَـت نحوهـا لا يوجـد شيء يمكـن أن نُعَلِّـق**

عليه أساطير، أو أدبا، أو أخلاقا، أو دينا - فقط الحجارة، واللحم، والنُّجوم، وتلك الحقائق التي يمكن لَمْسُها باليَد». [16]

ولكن مثل هذه الأفكار لم تَعُد مُمكِنَة بمجرّد وصول كامو إلى منطقة القبائل في أوائل حزيران/ يونيو. لقد تشكَّلَ لديه فهم جديد وعميق لهذا العالَم المُكَوَّن من الحجر والصَّمْت من تَلَّةٍ كان قد تسلَّقها مع صديقٍ أمازيغيٍّ. مُشَتِّتا من أعماق السَّماء الليليَّة المُرَصَّعة بالنُّجوم، يلاحظ كامو اندلاع الحرائق في قرية تيزي أوزو، القرية الواقعة عند سفح التَّلِّ. ناظِراً إلى رفيقه، تذكَّر كامو فجأةً الغرض من هذه الحرائق: إنَّها ليست اللمسات النَّهائيَّة للحظة سامية، لكنَّها مَصدر الطَّاقة الوحيد للقرويِّين الفقراء والجياع. يبقى كامو صامتاً، فيكسر رفيقه الصمْت: «هل ننزل؟». [17]

وما وجده كامو عند النُّزول طغى على كلِّ معرفته السابقة بالرِّيف الجزائري. ومرَّةً أخرى، واجه كامو المسافة المذهلة بين الكلام والحقائق. إنَّ تصوُّره السَّابق للصمْت كحالة حاسمة لفهم الذَّات تجاوزه التَّذكُّر بأنَّ الصمْت يخدم أيضاً غايات سياسيَّة وأيديولوجيَّة. وكان يعلم أنَّ التَّوزيع الرَّسمي للحبوب لا يُلَبِّي احتياجات السكان. **«لكن ما لَم أكُن أعرفه هو أنَّ هذا النَّقص كان يقتل النَّاس».** [18] وكان يعرف أيضاً أن سيقان الشَّوك كانت «**عنصراً أساسيًّا في النِّظام الغذائي المحلِّي، لكنَّه لم يَكُن يعلم أنَّ خمسة أطفال في منطقة واحدة قد ماتوا من أكل الجذور السَّامَّة**». [19]

وكان يعلم كذلك أنَّ رواتب الأمازيغ المحظوظين الذين كانت لديهم وظائف غير كافية، لكنَّه لم يَكُن يعلم أنَّ هذه المبالغ مُهينة؛ وكان يعرف «**أنَّ العمَّال يعملون أكثر ممَّا يسمح به القانون، لكنَّه لم يكن يعرف أنَّ العمل كان ضعفَ الحَدِّ المسموح به تقريباً**». [٢٠] كانت التَّقارير سبباً في تحطيم جدار الصمْت الدَّاهم إزاء مِحنَة الأمازيغ، وتَرَكَت العذر المُعتاد للمدافعين عن الإمبرياليَّة في حالةٍ يُرثى لها: كلُّ ذلك كان بسبب «**عقليَّة**» الأمازيغ، أو مجموعة التَّقاليد والعادات المحلِّيَّة التي ألقَت جداراً بين هذه النُّفوس الداكنة ومهمَّة الحضارة الفرنسيَّة. هذا هراء، أجاب كامو. كانت المسألة تتعلَّق بالمياه والغذاء والطُّرق والمدارس –التي افتقرت إليها منطقة القبائل بشدَّة، ولم توفِّرها السُّلطات الفرنسيَّة.

حاوَلَ كامو من خلال عشرات المقالات المُرسَلَة من منطقة القبائل اختراق الصمْت الذي كانت تتكشَّف فيه هذه المأساة ببطء. فهتف قائلاً:

«إنَّ الموقف يَصرخُ طَلَباً لاهتمامنا، وقد يَئِسَ من الحصول عليه». [٢١]

وإذ تَعَجَّب كامو من الهاوية الشَّاسعة والسَّحيقة بين المُثُل العُليا للجمهوريَّة وواقع القبائِل، فقد رفَضَ رفضاً قاطعاً التَّخَلِّي عن مُثُلِهِ العُليا. كان يجب إنهاء ممارسة التَّعليم المُنفصل وغير المتكافئ، وإدماج المدارس. كما أدرَكَ أنَّ الصَّمْت نَتَجَ جزئيًّا عن عدم قدرة الأمازيغ على التَّعبير عن سخطهم بلُغة المُستَعمِر. كتب كامو أنَّ سكَّان القبائل سوف يكون لديهم «**المزيد من المدارس في اليوم الذي**

نتخلَّص فيه من الحواجز المُصطَنَعَة التي تفصل بين أنظمة التَّعليم الأوروبيَّة والمحلِّيَّة». وعندها فقط، بالجلوس على الطَّاولات نفسها، «**سيتعرَّف شَعبان يعيشان معاً إلى بعضهما بعضًا**».[٢٢]

وفي النِّهاية، تولَّى كامو مهمَّة التَّحدُّث باسم من **لا صوتَ لهم**، الذين أسكَتَتهم الأوامر الإداريَّة والعنف المُنَظَّم. كان على فرنسا أن تَفعَل، لا أن تكتفي بالتَّبشير بالجمهوريَّة ـ وهي الإيديولوجيا التي جعلت من التُّراث الإمبريالي الفرنسي إشكاليًّا للغاية، وواعداً أيضاً. وإذا كان «**للغزو الاستعماري الفرنسي أن يَجد مُبَرِّراً له في أيِّ وقتٍ من الأوقات، فذلك إلى الدَّرجة التي يَسمَح بها للشُّعوب المَغلوبة بالحفاظ على هويَّتها. وإذا كان لدينا واجبٌ واحدٌ في هذا البلد، فهو السَّماح لشعبٍ فَخورٍ وإنسانيٍّ أن يَظَلَّ مُخلصاً لنفسه ولمصيره**».[٢٣]

وقد كان من السَّذاجة، من وجهَة نَظرنا، أن يفترض كامو أنَّ مصير الأمازيغ سيتوافق مع مصير فرنسا، تماماً كما كان من السَّذاجة الاعتقاد بأنَّ هذا المصير سوف يُعَبَّر عنه باللُّغة الفرنسيَّة. كما كان من السَّذاجة أيضاً اعتقاد كامو أنَّ الرؤية تعني التَّصديق ـ وأنَّ الاعتقاد سيؤدِّي إلى سياسة عمليَّة. كتب كامو أنَّه إذا قام السِّياسيُّون الفرنسيُّون، بغضِّ النَّظر عن انتماءاتهم السِّياسيَّة، بخطِّ الرِّحلة نفسها التي قاموا بها في منطقة القبائل، فإنَّ الحَلَّ سيكون في متناول اليَد. ولكن لا ينبغي لمثل هذه السَّذاجة أن تحجب إصرار كامو الصَّادق على أواصر الأخوَّة العالميَّة التي تجسِّدها الجمهوريَّة. والأهمُّ من ذلك هو أنَّ سذاجته، إذا كانت هذه

هي الكلمة المناسبة، تَنبَع من توجُّهٍ أخلاقيٍّ بسيطٍ، ولكنَّه ليس تبسيطيًّا: فالرُّؤية الصَّحيحة شرطٌ أساسيٌّ للعمل بشكلٍ صحيح. وحكى كامو عن زيارةٍ قام بها إلى كوخ في قرية عَدني. في «غرفةٍ معتمةٍ، رَحَّبَت بي امرأتان، واحدةٌ مسنَّةٌ جدًّا، والأخرى حامِل. ثلاثة أطفال يحدِّقون فيَّ باستغراب... لا أرى قطعة أثاثٍ واحدة. ولا أرى علامات حياةٍ بشريَّة إلا بعد أن تعتاد عيناي الظَّلام: ثلاثة أحواضٍ كبيرةٍ من الطِّين الأبيض، ووعاءان طينيَّان». وعندما سأل كامو المرأة الحامل، التي «تحتضن بطنها المنتفخ بين يديها»، أينَ نامَت، «قد أشارت إلى الأرضيَّة التُّرابيَّة تحت قدميَّ، بجوار مصبِّ ماءٍ يُستَخدم كمِرحاضٍ».[٢٤]

لم يكن كامو أقلَّ تعلُّقاً بصمْت المُستوطنين من ذوي الأقدام السُّود في هذه المناطق نفسها. في رواية الرجل الأوَّل، يبحث جاك كورميري عبثاً عن والده، وهو مهاجرٌ إلى الجزائر، عبر «الأرض الشَّاسعَة والمُعادية». وقام والده برحلته إلى الجزائر مثل زملائه «الغُزاة» الذين، تكدَّسوا في عنابر السُّفن القديمة، ونَزلوا في أرضٍ حيث «انصَهَروا في التَّاريخ المجهول للقرية والسَّهل».[٢٥]

وعملَ هؤلاء «الغُزاة» في الأرض واستَصلحوها، وحَفروا «أعمَق وأعمَق في بعض الأماكن، وأضحَل في أماكن أخرى، إلى أن غطَّتهم الأرض المُغبَرَّة، وعادت النَّباتات البرِّيَّة تغزو المكان؛ كانوا قد تناسَلوا، ثمَّ اختفوا». أشار كورميري إلى أنَّ هذه الأجيال من الغُزاة «قد اختفوا من دون أثر، محبوسين داخل أنفسهم. ويموتون في صمْت بعيداً عن كلِّ شيء».[٢٦]

وفي النِّهاية، فإنَّ المستوطنين لا وَجه لهم ولا اسم، مجهولون مثل العرب في عمله السابق. أيعني ذلك أنَّ كامو يُبالي بشَعبٍ ما أكثر ممَّا يُبالي بالآخر؟ أم إنَّه يعتقد، بدلاً من ذلك، أنَّ الأقوياء استغلُّوا كِلا الشَّعبين، اللذين نَسِيَهما التَّاريخ بهدوء؟

*****

وفي عام ١٩٥٢، انهارَت باريس -أو الضفَّة اليسرى فقط- على وقع خبر انهيار الصَّداقة المُتَّقدة بين كامو وسارتر. كان السبب الظَّاهري هو مراجعة حادَّة، ولاذِعَة، وليست مُتَجَنِّية تماماً ظهرت في مجلَّة «الأزمنة الحديثة» لكتاب «المتَمَرُّد» لكامو. كانت هذه المجلَّة الشهريَّة، التي يُحَرِّرها سارتر، وسيمون دي بوفوار، وموريس ميرلو بونتي، قد شَقَّت طريقها بسرعة إلى قمَّة الجبل الأدبي والفلسفي للمجلَّات الفكريَّة في فرنسا ما بعد الحرب. على الرَّغم من أنَّه كان مقرَّباً من لجنة التَّحرير، إلا أنَّ كامو حافظ منذ البداية على مسافة محدَّدة من عمليَّاتها. واتَّسَعت الهُوَّة الحَرِجَة إلى هُوَّة شاسعة عند نشر «المُتَمَرِّد».

وحين نَستَرجِعُ الأحداث الآن فسوف يتبيَّن لنا أنَّ الصِّدام الإيديولوجي بين كامو وسارتر لم يكن أقل حَسماً من مصير بروميثيوس نفسه. ربما شعر كامو بما كان ينتظره عندما كتب في يوميَّاته في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥١: «انتَظِرُ بصبرٍ كارثةً تأتي ببطء». [٢٧] كان المُتَمَرِّد قد ظهر لتوِّه وكان تأثيره فوريًّا ومثيراً للجدل. وكانت الإدانة الموجَّهة في المقال للولاء الأعمى

للشِّيوعيين الفرنسيِّين، جنباً إلى جنب مع المثقَّفين الذين انضمُّوا إلى الحزب أو سافروا برفقته، شديدة القسوة ولا هوادَةَ فيها. انتقد كامو بشدَّة نَزعة اليسار الفرنسي إلى إغفال الجرائم التي ارتُكِبَت في الاتِّحاد السوفييتي باسم الضَّرورة التَّاريخيَّة، حيث روَّعه ذلك العدد من الحجج الفكريَّة لتبرير وجود معسكرات التشغيل وعهد الإرهاب. وقد أصَرَّ كامو على أنَّ منطق الصَّيرورة التَّاريخيَّة، «**منذ اللحظة التي يتم فيها قبولها تماماً، يؤدِّي تدريجيا... إلى تشويه الإنسان أكثر فأكثر، وتحويله إلى جريمة موضوعيَّة**».[٢٨]

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ سارتر يرى أنَّ منطق تحليل كامو هو الذي حوَّل، إن لم يكن قد غيَّر، أهداف الشِّيوعيَّة. وبحلول الوقت الذي نشر فيه كتاب «المُتَمَرِّد»، كان المفكِّرون الأكثر نفوذاً في فرنسا قد استنتجوا أنَّ الظروف تتطلَّب نضالاً جماعيًّا بدلاً من الخوف الفردي. ولم يكن لدى المفكِّرين رفاهيَّة الوقوف في صَفِّ الضَّرورة التاريخيَّة. والواقع أنَّ أيَّ جهدٍ يُبذَل للقيام بذلك لا يجعل المرء مجرَّد مُتَفَرِّج، بل عَقَبَة حقيقيَّة أمام مسيرة التَّقدُّم. وَبَّخَ سارتر كامو على هذه البراءة المُتَعَمَّدة: «**لقد قَرَّرتَ الوقوف ضدَّ التاريخ؛ وبدلاً من تفسير مساره، فَضَّلتَ أن تراه مجرَّد عَبَث آخر**». وهذا لن يُفلِح:

«لكي نستحقَّ الحق في التأثير على الرِّجال الذين يناضلون، يجب أن نشارك أولاً في نضالهم، وهذا يعني أولاً قبول أشياء كثيرة إذا كنت ترغب في تغيير القليل منها».[٢٩]

وكان الجرح الذي تعرَّض له كامو أكثر إيلاماً من انتقاد سارتر لكتابه، حيث وَجَّهَ له شتائم وإهانات شخصيَّة مباشرة. سخر سارتر عبرَ صفحات «الأزمنة الحديثة» ممَّا زعم أنَّها كانت عيوب كامو الشَّخصيَّة. فبسبب «**المزيج الكئيب من الغرور الذَّاتي والضَّعف**»، لم يجرؤ أحد من قبل على التَّكلُّم مع كامو بصراحةٍ. والنَّتيجة هي:

« إنَّكَ أصبحتَ ضحيَّة لانهيارٍ كئيبٍ يُخفي ضعفك الداخلي، وأعتقد أنَّك تسمِّيه المعيار المتوسِّطي. وإذا كان من شأن أحدٍ أن يُخبرك بذلك عاجلاً أم آجلاً، فليَكُن ذلك الشخص أنا». [٣٠]

أدهَشَ رَدُّ سارتر كامو كثيراً. وقد تأمَّل في شراسة موقفه اللاذع هذا بين صفحات يوميَّاته، مقتنعاً بأنَّ ثقل التَّطلُّعات الإيديولوجيَّة قد أجبر سارتر وأتباعه على الانخراط في الشِّيوعيَّة. ولكن «**لا يوجد طريق مَلَكيٌّ إلى العبوديَّة، بل هناك غشٌّ وإهانَةٌ واستعبادٌ للأخ**». [٣١] ولكن الصَّفحات نفسها، تحمل أيضاً أفكاره المعبِّرة عن قيمته الذَّاتيَّة ككاتب وكمفكِّر، وهي تأمُّلات شَرَعَ بها كامو خلال رحلةٍ قام بها في نهاية العام إلى المناطق الجنوبيَّة النَّائية في الجزائر. هذا المَشهَد «المَلَكيُّ» بحقٍّ، الذي لم يتحرَّر من قِبَل أطلالٍ من صنع الإنسان كما هو الحال في جميلة، قدَّمَ صمْتاً واسعاً كبَلسَمٍ لغضب الغابة التي عرفها في باريس. [٣٢]

قاد كامو سيارته وحده من الجزائر إلى الأغواط منتصف شهر كانون الأوَّل/ ديسمبر، واكتشف صحراءَ تختلف عن الصَّحراء

الشَّماليَّة التي تمتدُّ عبر الأعمدة الرُّومانيَّة في جميلة. في هذه المدينة الواحة، وَجَدَ «**انطباعاً فريداً عن القوَّة والحصانة**»، عمل الطَّبيعة، وليس الإنسان. حتَّى أنَّ المقبرة في المدينة كانت «**مُغَطَّاة بشظايا من حجر الشَّست، ويتداخل الموتى ببعضهم تحت بَلبَلَة الحجارة**».
ومع تقدُّمِهِ نحو الجنوب، طغى على كامو المشهد العدائي الصَّارخ. إلا أنَّ هذا العداء كان مختلفاً عن العداء الذي عرفه في باريس. كان نوعاً أعظم. شخصٌ غير مبالٍ تماماً بوجوده. وفي «**مملكة الحجارة**» هذه، انبَهَرَ كامو بالحدود التي فرضتها الطبيعة. ولم يكن هذا المكان مكاناً للأوهام أو الأحلام، «**عندما يحرث المرء في هذا البلد فإنَّه يجمَع الحجارة**».

إلا أنَّ ذلك لم يكن دعوة لتصوير العالم في صورة رومانسيَّة: فقد حَذَّرَ كامو من الصمْت الذي يشعُّ من الصَّحراء، وكتم أيضاً المحنة الأخلاقيَّة لسكَّانها. كانت عشرات الآلاف من الخراف تموت بسبب الجفاف. لم تكن صور الأشخاص الذين يعملون في الأرض خلابة على الإطلاق؛ بدلاً من ذلك، «**يكشط شعبٌ كاملٌ التراب بحثاً عن الجذور**». وعندما وصل كامو إلى قرية غرداية، صُعِقَ من مدى التَّعاسة والبؤس البشريَّين، كما صُعِقَ من الشَّمس، وكتب في مذكَّراته: «**معسكر بوخنفالد تحت لهيب الشمس**».[٣٣]

وعلى الرغم من بعده عن منطقة القبائل، كَشَفَ كامو في أثناء رحلته عبر الصَّحراء أنَّ الصمْت لا يعكس فقط نوعاً من الرَّهبَة اللا-إنسانيَّة، بل أيضاً جزءا مساهما لشكلٍ من أشكال الظُّلم الإنساني. في إطار من الآفاق اللامتناهية، والمليئة بالنُّور الغامر

والهدوء غير العادي، ادَّعى كامو أنَّ هذا العالم من **«الصمْت والعُزلَة»** هو مَصدَرٌ للحقيقة.[٣٤] ولكنَّها كانت حقيقة يجب أن يدافع عنها أولئك الذين يملكون أصواتاً يمكن سماعها.

*****

القصَّة في حَدٍّ ذاتها بسيطة: مجموعةٌ من الرِّجال الذين يعملون في مصنعٍ صغيرٍ للبراميل الخشبيَّة يعودون إلى مكان عملهم بعد عشرين يوماً من إضرابٍ فاشل. يتفكَّر إيفار، بطل القصَّة، في الأحداث وهو في طريقه إلى العمل. لقد بلغ للتَّوِّ سنَّ الأربعين، وقد تركت حياة العمل البدني القاسي أثرها على جسده: **«في سنِّ الأربعين، لم تَنتهِ بعد، لكنَّك تستعدُّ لذلك مقدَّماً»**.[٣٥]

إنَّ أفكار إيفار حول الإضراب الفاشل من أجل زيادة الأجور قد عمَّقت شعوره بأنَّ الحياة قد شارفت على نهايتها؛ إنَّه يدرك أنَّه يتخلَّى عن مكانته في العالم. إنَّه يفهم أنَّ رَبَّ عمله، لاسال، في موقفٍ صعب. كان الطَّلب على البراميل الخشبيَّة يتراجع، ومن أجل الحفاظ على هامش ربحه، لا يستطيع لاسال تحمُّل زيادة الرَّواتب. ماذا سيحدث لو انهارت الورشة بأكملها؟ **«فالرجل لا يغيِّر حرفته عندما يكلِّف نفسه عناء تعلُّمها، فالشروع في تعلُّم مهنة أخرى أمرٌ صعبٌ للغاية، ويتطلَّب تدريباً طويلاً»**. فكان التخلِّي عن مهنته أمراً لا يمكن تصوُّره، ولكن كان الاستسلامُ للحصول على راتبٍ غير كافٍ، ومعرفة أنَّ عمله يُقَيَّم بأقلَّ من قيمته الحقيقيَّة أمرًا لا يُحتَمَل. في مثل هذا الموقف الصَّعب، **«كان**

من الصَّعب أن تُغلِقَ فمك». [٣٦]

ولكن بمجرَّد وصوله إلى الورشة، هذا بالضبط ما سيفعله إيفار وزملاؤه من العمّال. حينما نزل بجسده الصَّلب عن الدَّرَّاجة، رأى رفاقه يقفون بصمْت أمام الأبواب المُغلقة. بينما ينتظرون رئيس العمّال، بالستر، ليَفتح الباب لهم -وهو يُبقيهم متعمِّداً منتظرين تأكيداً على ضعفهم- دون أن يتبادلوا أيَّ كلمة فيما بينهم. كما أنَّهم لا يتقدَّمون إلى الورشة التي بَدَت فجأةً مهجورة، أو عندما يمسكون بأدواتهم ويبدؤون بالطَّرق والنَّشر والتَّسمير. وبينما يستعيدون إيقاع حياتهم قبل الإضراب، يظهر لاسال على عتبة الباب. وكما يعرف إيفار، كان رئيسه - وهو نفسه ابن أحد الحرفيين- دائما عادلاً ومُنصِفاً ومُتَعاطفاً مع عمّاله. لكنَّ الإضراب أدَّى إلى تعطيل أمر آخر أكثر انتشاراً، ولكنَّه لا يقلُّ أهمِّيَّة. في محاولة صعبة للظُّهور بمَظهر طبيعي، يمشي لاسال ببطء عبر المصنع ويُلقي التحيَّة على عددٍ قليلٍ من العمّال. لكن كل ما يتلقَّاه هو الصمْت. وأخيراً، ينظر الى العمّال متضرِّعاً: «**نحن لسنا متَّفقين، لا بأس. لكن ما زال علينا أن نعمل معاً. ما الفائدة إذاً؟ ما الخير الذي نجنيه من ذلك؟**».

ولكن هناك نقطة مع ذلك -ستعود إلى الديار بعد بضع دقائق. أمام المقاومة الصَّامتة لعمّاله، يخرج لاسال منَ الورشة ويعود إلى منزله، وهو مكتبه. ثمَّ يطلب من باليستر استدعاء إيفار وماركو، مندوب النِّقابة، إلى مكتبه. وبينما كانا يقتربان من الباب، يسمع الرجلان بكاءَ طفلة، ولاسال يُطَمئِن زوجته بأنَّه إذا لم

تتحسَّن ابنتهما فإنَّه سيستدعي الطَّبيب. عندما يدخل إيفار وماركو إلى المكتب، يؤكِّد لاسال لهما بأنَّه سيعزِّز رواتبهم في اللحظة التي يتحسَّن فيها العمل. كل ما يطلبه في المقابل هو أن تستمرَّ العلاقة بينهم كما كانت قبل الإضراب. لكنَّ العاملين يمتنعان عن الرَّدِّ، كما يرفضان مُصافَحَته. وفجأةً يفقد هدوء أعصابه الذي حافظ عليه حتَّى ذلك الحين، يصرخ لاسال خلفهما وهما يغادران المكتب: «**يمكنكم جميعاً الذِّهاب إلى الجحيم**».[٣٧]

وبدلاً من ذلك يعودان إلى الورشة، حيث بدأ الآخرون بالفعل وجبة غدائهم الضئيلة. وبينما كان إيفار يسحب شطيرة من حقيبة غدائه، لاحظ سعيدًا، وهو عربيٌّ يعمل بجانبه، مُستلقياً على كومةٍ من نشارة الخشب، يأكل ببطء القليل من التين. يعطي إيفار نصف شطيرته لسعيد، ويقول له إنَّ الأمور ستتحسَّن: «**عندها سوف تدعوني أنت**». ومن دون قصد، كرَّرَ إيفار الشُّعور نفسه الذي أعرب عنه لاسال قبل لحظاتٍ فقط ـ باستثناء أنَّ اليَدَ الممدودة هذه المرَّة مقبولة. بعد فترة وجيزة من عودتهم إلى العمل، يبدأ لاسال بقرع جرس العمل بطريقة تبدو غريبة وملحَّة وصادِمَة بالنِّسبة لإيفار. يستجيب باليستر، ليَهرَعَ بعد فترة بسرعة إلى المدينة من أجل الطَّبيب. اكتشف العمَّال أنَّ ابنة المالك انهارت فجأةً إلى الأرض. وبينما يرتفع دويُّ صفارة الإسعاف ويتلاشى خارج الورشة، يواصل الرِّجال عملهم في صمْت. يريد إيفار التَّحدُّث، ولكن لا هو ولا الآخرون يمتلكون أي كلمات في داخلهم ليَقولوها. ولا حتَّى عندما يظهر لاسال في

نهاية يومِ العمل، شعره أشعَث ونظرته مُحرَجَة. بعد صمْت طويل ومُحرِج، يتمتم لاسال لعمّاله: «**ليلة سعيدة**». ويُغلق الباب خلفه دون رَدٍّ. يقول إيفار: « **لقد كان من المفترض أن نناديه**»، ولكن كان الأوان قد فات أصلاً.

تُرجِمَ العنوان الفرنسي لقصّة Les Muets، بشكل مختلف إلى الإنكليزيّة «الصّامتون» The Silent Ones، والذين لا صوتَ لهم The Voiceless، ولكن من الأفضل فهمها على أنّها The Mute Ones «الخُرس». يجد إيفار نفسه مع زملائه في العمل في حالة من الخَرَس. لم يَعُد لديه المزيد من الخطط للصمْت أمام لاسال ـ الذي يقرُّ بأنّه لطالما عامَلَه بعَدلٍ وإنصاف ـ أكثر ممّا كان يخطِّط للوصول إلى سِنِّ الأربعين، وبينما كان يركب درّاجته مُتعَباً إلى العمل، وَجَدَ نفسه ينظر بعيداً عن البحر الذي كان يحبُّه في شبابه. بدلاً من صمْت إيفار، يسقط الصمْت عليه وعلى الآخرين. وكلّما حاول، قدرَ استطاعته، أن يجد الكلمات دون جدوى، ولو وجدها، لم يستَطِع النُّطق بها. في مكتب لاسال، عند سماع العرض الذي قدَّمه صاحب العمل، كان إيفار، «يصرُّ على أسنانه، أراد أن يتكلَّم، لكنه لم يستَطِع». [٣٨]. لذلك، أيضاً، ظهر إدراكه بأنّه كان ينبغي له أن يقول شيئاً أمام لاسال، الذي حطَّمه مرض ابنته، لفترة وجيزة في الورشة.

يعكس الصمْت في ورشة العمل صمْتاً أكثر دَويًّا سُمِعَ خلال الاحتلال، صمْت تَرَكَ أثَره على كامو. [٣٩] وفي عام ١٩٤١، وَزَّعَت دار النَّشر السِّرِّيّة Editions du Minuit رواية «صمْت البحر»

Le Silence de la mer. وهي رواية من تأليف فيركورز، الاسم المستعار لجان برولر، أحد مؤسِّسي دار النَّشر، تروي القصَّة عن العَلاقة بين ضابط ألماني، فيرنر فون إبريناك، ورجل فرنسي وابنة أخته اللذين يقيمان في مزرعة. يدخل الضابط، المُتَعَلِّم والمُثَقف والذي يتحدَّث الفرنسيَّة بطَلاقة، غرفة المعيشة في المزرعة في نهاية كلِّ يوم ويفكِّرُ بصوتٍ عالٍ أمام الاثنين. لكنَّ أحاديثه كانت أحاديَّة الجانب، لأنَّ الخال وابنة أخته لم يستجيبا له. يدخِّن الرَّجل غليونه ويحدِّق في السَّقف في حين أنَّ ابنة أخته، مثلها مثل بينيلوبي، لا ترفع عينيها أبداً وهي تَحوك. والواقع أنَّ الخال وابنة أخته، مثلهما في ذلك كمثل إيفار وزملائه الحرفيِّين، لم يناقشا قط، ناهيك عن التخطيط لهذا الرَّدِّ. بدلاً من ذلك، استمرَّا بالعيش «باتفاق صامت وكأنَّ الضَّابط غير موجود».[٤٠]

وفي فرنسا المحتلَّة، وفي ورشة عمل في الجزائر، يصبح الصمْت الذي يتولَّد من الإذلال، شيئاً فشيئاً، صمْتاً يدعمه إصرارٌ -يكاد يكون غريزيًّا- على الكرامة. إنَّ الصمْت في مثل هذه اللحظات ليس مجرَّد إرادة، بل هو صمْت عميق. إنَّه يذكِّرنا بأنَّ الصمْت يسبق اللغة ويَفترض مسبقاً وجود عالَمٍ أقدم لم تصف فيه اللغة بعد استجابتنا له. وكما أشار بيكارد، يمكن للصمْت أن يوجد بدون كلام، ولكن لا يمكن للكلام أن يوجد بدون صمْت.[٤١] وقد عبَّر صديق كامو، الرِّوائي لويس غيو، عن ذلك بشكلٍ مختلف: «**في النهاية، نحن لا نكتب لنقول أشياء، لكن كي لا نقولها**».[٤٢] ونميل اليوم إلى اعتبار الصمْت بمثابة انقطاع للضجيج، ولكن بمجرَّد أن

نتعافى من تأثيرات الصَّوت، ندرك أنَّ الوظيفة الأساسيَّة للصمْت هي توفير نوع من الجهير المستمرِّ لمأساة حياتنا.

لكن في حين يظلُّ إيفار، مثلُه في ذلك كمثل شخصيات فيركورز، صامتاً أمام محاوريهم المُلحِّين، فإن صمْتهم لا يمكن أن يستمرَّ. وفي نهاية المطاف، رَدَّت ابنة الأخت وخالها على فون إبريناك بعد أن علم أنَّه وحده بين زملائه الضُّبَّاط يحلم بالمزاوجة بين الثَّقافتين الألمانيَّة والفرنسيَّة. فهو غير قادرٍ على تحمُّل صدمة اكتشاف ما يخبِّئه النازيُّون لفرنسا، ويَطلب نقله إلى الجبهة الشَّرقيَّة، والاقتراب من الموت المُحَتَّم. ينقل فون إبريناك الخبر في الليلة الأخيرة له في المزرعة، وبينما هو يستعدُّ للمغادرة، ينظر إلى ابنة الأخت ويَهمس «وداعاً». وبينما يقف دون حراك عند الباب، تجيب ابنة الأخت بلا كلامٍ تقريباً «أديو» Adieu، عندها يغادر إبريناك الغرفة ويخرج من حياتهما. وفي صباح اليوم التَّالي، يغادر فون إبريناك، تاركاً الخال وابنة أخته يتناولان طعام الإفطار معاً في صمْت.

وبطبيعة الحال، لا يقدر إيفار أن يردَّ على عبارة لاسال «ليلة سعيدة»، ولو بدون كلمات. ومع ذلك فإنَّ ردَّ فعله ـ كان ينبغي لهم أن ينادوه، و[لكن] الباب كان قد أغلق بالفعل ـ على الرغم من أنَّه جاء بعد فوات الأوان، إلا أنَّه يطابق ردَّ فعل ابنة الأخت. في حالة ابنة الأخت، يتداخل الصمْت قليلاً مع اللغة، بينما بالنِّسبة لإيفار، تبقى اللغة مجرَّد جانبٍ من الصَّمْت. فضلاً عن ذلك، فإنَّ القصَّة لا تنتهي عند هذا الحَدِّ. يعود إيفار على درَّاجته إلى بيته، غير قادرٍ على التَّوقف عن التفكير في الفتاة المريضة. تتسارَع

أحداث القصَّة لتنتهي مع إيفار، وهو يجلس على الشرفة، مُمسكاً بيد زوجته ويحدِّق في البحر، قائلاً: «آه، هذه هي المشكلة».[٤٣] ونحن لا نرى ما يراه ولا نسمع ما يسمعه، ولكنَّ الخط يدخل في صلب الغموض الأساسي لحيواتنا. وفي النهاية، قد تكمن المشكلة في الاستحالة البسيطة والمأساويَّة للتَّكلُّم خلال الحيوات، والمآزق الخاصَّة بكلِّ واحدةٍ منها.

*****

وفي نهاية شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦، سافر كامو من باريس إلى الجزائر للتحدُّث في مؤتمر عام مُكَرَّس للاقتراح المستحيل بأنَّ السَّلام لا يزال ممكناً بين الفرنسيين والجزائريين. انعقد الاجتماع في قلب العاصمة، وكاد يتحوَّل تقريباً إلى أعمال شغب. وفيما كان حشد غفير من المُحتجِّين من ذوي الأقدام السود يصرخون في الخارج، كان كامو يحاول داخل القاعة -التي كان اسمها «حلقة التَّقدُّم» Cercle du progrès، وهي تسمية لا تخلو من سُخرية- أن يجعل نفسه مسموعاً فوق الضَّجيج. وأعلن أمام الجمهور المتوتِّر من العرب والفرنسيين الجزائريين، أنَّ «هذا الاجتماع كان لا بدَّ أن يُعقَد، ولو لمجرَّد إثبات أنَّ تبادل الآراء كان أمراً ممكناً».[٤٤] فقد ذكَّر الجميع بحقائق تاريخيَّة وديموغرافيَّة قاسية. في الجزائر «ثمة مليون فرنسي كانوا هنا منذ قرن، وملايين من المسلمين، إمَّا من العرب أو الأمازيغ، الذين كانوا هنا منذ قرون، والعديد من الطوائف الدِّينيَّة الأخرى».[٤٥] غير أنَّ المتطرِّفين يحاولون اجتناب هذا الواقع ليس من خلال ترهيب الطرف الآخر فحسب،

بـل الأعضـاء المعتدلـين في جماعاتهـم الخاصَّـة أيضـاً. إذا لم يفتـح كِلا الطَّرفين حـواراً، فإنَّ الفرنسيَّ سيقرِّر «ألَّا يعرف شيئاً عن العربي، مع أنَّه يشعر في داخله بأنَّ مطالبة العربي بالكرامة لها ما يبرِّرها، وأنَّ العربي يقرِّر ألَّا يعرف شيئاً عن الفرنسيِّ، مع أنَّه يشعر أيضاً، أنَّ للفرنسي الجزائري أيضاً الحَقَّ في الأمن والكرامة على أرضنا المشتركة». [٤٦] إذا لم يبذل كلُّ فرنسيٍّ ومسلمٍ جهداً صادقاً للتَّفكير في دوافع خصمه، فإن العنف سيجتاح الجزائر.

باريس، عَلِمَ كامو أنَّ العنف سيؤدِّي إلى ذلك بالضَّبط. كان المنظِّمون قد أنهوا الاجتماع فجأةً بعد أن انتهى كامو من قراءة نَصِّه: كانت الحجارة تحطِّم النوافذ وتنهال على المجتمعين، وكان الطَّوق الذي أقامته الشُّرطة في الخارج على وشك فقدان السيطرة. أيُّ أملٍ بقيَ هناك عندما قام الشَّعب نفسه الذي كان ستحميه مناشدات كامو لهدنة مدنيَّة بالإخلال بها، وحاول اقتحام القاعة؟.

بعد وقتٍ قصيرٍ من عودته من الجزائر، وأمام تصاعد حدَّة العداء من كِلا الجانبين، وانهيار اقتراحه بهدنة مدنيَّة، استقال كامو من عمله ككاتب عمود من صحيفة L'Express الأسبوعيَّة الليبراليَّة والتزم الصمْت حيال المسألة الجزائريَّة. كان استسلام الحكومة الفرنسيَّة أمام المزاعم العنيدة لمجتمع الأقدام السُّود سبباً في دفن الأمَل اللِّيبرالي في أن تكون الجمهوريَّة مساوية لذاتها. أمَّا بالنِّسبة للحرب الأهليَّة المُستَعرة، فقد كان من الواضح أنَّ كلَّ طرف لن يزعم النَّصر لنفسه إلا بالاستسلام التام من الطَّرف الآخر. وكما قال لنفسه، كان من الأفضل أن لا يقول شيئاً حتَّى لا

يزيد «إمَّا مِن بؤس الجزائر، أو التفاهات التي كتبت بالفعل عن الوضع».[٤٧] وكان الصمْتُ هو كلَّ ما تركه كامو.

لَم يُرضِ هذا الرَّدُّ أصدقاءه ولا حتى أعداءه: الحقيقة الأكثر شهرةً التي ظهرت في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٧، عندما سافر كامو إلى ستوكهولم لتلقي جائزة نوبل في الأدب. هذا اليوم لا يتذكَّره النَّاس بخطابه الرَّسمي بقدر ما يتذكَّرونه بالتَّبادل الحامي للآراء، قبل يوم من الاحتفال، بين كامو وطالب جزائري. خلال جلسة سؤال وجواب مع طلَّاب سويديِّين، أخذ الشَّاب الجزائري يهاجم كامو بسبب صمْته حيال الجزائر. وفي النِّهاية بعد مقاطعة جهوده مراراً وتكراراً للرَّدِّ، فَرَضَ كامو نفسه بقوله:

> «مع أنَّني بَقيتُ صامتاً طوال عامٍ وثمانية أشهر، إلا أنَّ هذا لا يعني أنَّني توقَّفت عن العملِ. لطالما كنتُ مؤيِّداً لجزائر عادلة يعيش فيها شعبان متكافئان بسلام. لقد طالبتُ مراراً وتكراراً بتحقيق العدالة للشَّعب الجزائري ومنحه حقوقاً ديمقراطيَّة كاملة».

وتابع قائلاً إنَّ دوَّامة العنف في الجزائر قد تنامَت بسرعة بحيث أنَّه يخشى أن تؤدِّي أيُّ كلماتٍ إضافيَّة إلى زيادة سرعتها أكثر. وعندما استدرجهُ الطَّالب إلى فَخِّ الاستفزاز مرَّةً أخرى، وَضَعَ كامو حَدًّا لهذه المواجهة:

> «لطالما أدَنتُ الإرهاب. ولكن عليَّ أن أدين أيضاً الإرهاب الذي يضرب بشكلٍ أعمى، على سبيل المثال في شوارع الجزائر

العاصمة، والذي قد يصيب أمِّي وأسرتي. أنا مؤمنٌ بالعدالة، لكنَّني سأدافع عن أمِّي أمام العدالة». [٤٨]

هذه، على الأقل، هي النُّسخة التي وصلتنا، وذلك بفضل الرِّواية التي نشرتها صحيفة اللوموند في اليوم التَّالي. ولكنَّ ردَّ كامو الفعلي كان مختلفاً تمام الاختلاف:

«إنَّ الناس الآن يزرعون القنابل في قطارات الترام في العاصمة الجزائر. قد تكون أمِّي موجودة على أحد خطوط الترام تلك. إذا كانت هذه هي العدالة، فأنا أفضِّل أمِّي».

ونَشَرَت الصَّحيفة، التي تعاطفت مع القوميِّين الجزائريِّين واحتقرت كامو بشدَّة، هذا التَّصويب بعد ثلاثة أيَّام. وكما هو الحال مع جميع هذه التَّصويبات، فقد أُهمِلَ على الفور. [٤٩]

العدالة، والحب، والصمْت: ذلك هو المَزيج المثير للاهتمام من المُثُل العليا الموجودة في واحدة من أكثر ملاحظات كامو إثارة للنقاش والجدل. يمكننا بطبيعة الحال أن نتخيَّل التناقضات بين متطلَّبات العدالة، التي تشكِّل أكثر المنافع علانية، ومتطلَّبات الحب التي تشكِّل أكثر القيم خصوصيَّة. ولكن كما يكشف ردُّه على الطَّالب الجزائري، رفض كامو أن يتقبَّل حقيقة أنَّ الحبَّ والعدالة لا يتعايشان في أغلب الأحيان فحسب، بل إنَّهما في الحقيقة متلازمان ومرتبطان معاً. بالنِّسبة لكامو، الحب والعدالة هما المَثَلان اللذان يربطاننا بالعالم وببعضنا البعض. عندما خاضَت فرنسا، خلال الأشهر الأخيرة من الاحتلال، نوعاً مختلفاً من

الحرب الأهليَّة، أكَّد كامو أنَّ الإنسان يجب أن «يُمَجِّد العدالة من أجل محاربة الظُّلم الأبدي، وخلق السَّعادة من أجل الاحتجاج على عالم التعاسة».[٥٠] ولكن في حمَّام الدَّم الجزائري، حيث لم يكن هناك أيُّ شيءٍ «عشوائي» أو «أعمى» في إزهاق أرواح المدنيِّين -على العكس من ذلك، استهدف كلا الجانبين بتمييزٍ شديد المدنيِّين من أجل زرع الرُّعب- فقد تخلَّى الرِّجال والنِّساء عن واجب البقاء نزيهين ومُخلصين للعالم، وسمحوا للظُّلم والتَّعاسة بأن يَسودا.

وفي رسالته إلى اللوموند، لم يصَحِّح كامو الاقتباس الخاطئ في الصحيفة فحسب، بل صحَّحَ أيضاً، وإن كان بشكلٍ غير مباشر، الأسباب الكامنة وراء صمْته:

> «أودُّ أيضاً أن أقول، فيما يخصُّ الشَّاب الجزائري الذي استجوبني، إنِّي أشعر بأنَّني أقرب إليه من العديد من الفرنسيِّين الذين يتحدَّثون عن الجزائر دون معرفتها. كان يعرف ما يتحدَّث عنه، ولم يعكس وجهه الكراهيَّة، بل اليأس والتَّعاسة. وأنا أشاركه هذه التَّعاسة».

ولقد ثَبُت عدم جدوى الكلمات في أحسن الأحوال، وفي أسوئها تواطؤها في دوَّامة العنف الآخذة في الاتِّساع في الجزائر. وكما هو الحال مع والدته، عندما شعر بصمْت، «**بشَفَقَة عظيمة تجاهها**»، كذلك الأمر مع الطالب الجزائري: «**فعندما يسكت المرء، سيتوضح كُلُّ شيء**».[٥١] ولقد أدرك كامو أنَّ الوضع المأساوي لوطنه الجزائر دفعه للمحافظة على هدوئه.

يكـون الإغـراء كبـيراً، بالتَّحـدُّث أو الـصراخ، عندمـا يصمْـت الآخـرون؛ سـواء كان ذلـك بسبب إحـراجٍ اجتماعيٍ بسيط، أو بسبب آلامٍ أعمق مما لا يمكـن التعبير عنه بوضوح، فمـن الصَّعب أن نجزم بذلـك. إنَّها أيضـاً مناسبة يستغلُّها المعلِّقون لإثارة الشغب بالكلمات لسَدِّ الثغرات التي يتركها رعاياهـم، سـواء عـن قصـد أو غـير قصـد. ولكـن علينـا أن نقـاوم الإغـراء، ولـو لمجـرَّد أنَّ كامـو نفسـه يرشـدنا إلى إجابـة. في مقالتـه الأخـيرة «**العـودة إلى تيبـازة**»، التـي كتبهـا قبـل وقـتٍ قصـيرٍ مـن دخـول الجزائـر الحـرب مـع نفسـها، يصـف كامـو جهـوده لتحقيـق التـوازن بـين القوَّتـين العظمـيـين في حياتـه «**حتـى عندما تتعارض إحداهما مع الأخرى**»: أعاجيـب العـالم والواجبـات الأخلاقيَّـة للفـرد. «**نعـم، هنـاك الجـمال والمُسـتضعفون. ومهـما كانـت الصعوبة في التَّوفيق بينهما فإنَّـه ليس بوسعي أن أخلصَ لواحدٍ دون الآخـر**». ولكنَّـه يتابـع قائـلاً: «**وذلـك يوحـي بنـوعٍ مـن الأخـلاق، بينـما نعيـش نحـن مـن أجـل شيءٍ يذهـب إلى أبعـد مـن الأخـلاق. لـو كان لنـا أن نسـمِّيه، فـأيُّ صمْـت يريـن**».[٥٢]

لم يسـمِّ صمْـت كامـو بشـأن الحـرب التـي اجتاحـت وطنـه الجزائـر، والتـي كانـت مصـدر كل صـوره عـن الجـمال الدُّنيـوي تقريبـاً، أبعـد مـن الأخـلاق. بـل إنَّ ذلـك كان نابعـاً مـن إدراكـه بـأنَّ المُسـتضعفين كانـوا عنـد كِلا طَرَفي هـذا الـصِّراع: الغالبيَّـة العظمـى مـن ذوي الأقـدام السُّـود فضـلاً عـن العـرب. مـن النَّاحيـة الجوهريَّـة، كانـت الوقائـع في الجزائـر ـ المـكان الـذي لَم يكُـن مُجـرَّداً، بـل حياتـه ذاتهـا، والأرض التـي تعيـش فيهـا عائلتـه ووالدتـه ـ متعارضـة بالنِّسـبة

لكامو. وفي خطابه الذي ألقاه بمناسبة حصوله على جائزة نوبل، قال كامو إنَّ الصمْت، في لحظاتٍ معينةٍ، «**يكتسب شعوراً مرعباً**». وكانت الجزائر، بالنسبة له، واحدة من تلك اللحظات -مأساة كانت فيها الكلمات الإضافيَّة أسوأ من كونها عديمة الجدوى، لأنَّ عدم قدرتها على الحؤول دون وقوع الكارثة، لن يؤدي إلا إلى حَجب أبعادها ومعناها.

*****

اكتشف كامو فريدريك نيتشه لأوَّل مرَّةٍ عندما كان مُراهقاً -كان أستاذه الجامعي ومعلِّمه جان جرينيه هو مَن مَهَّدَ له الطَّريق- وكانت أول مقالة نُشِرَت له، حرَّرها جرينيه ونُشِرت في مجلّة Sud، عن نيتشه والموسيقى. استمرَّ ارتباطه بنيتشه طوال حياته، بإعجابٍ ولكن لا يخلو من نَقدٍ، ممتدًّا عبر دفاتره. واعترف بامتنانٍ: «**أنا مدينٌ لنيتشه بجزءٍ ممَّا أنا عليه**».[٥٣]

كان أكثر ما أثار إعجاب كامو أسلوب نيتشه السَّاخر والمتقلِّب، بالإضافة إلى وضوحه الشديد حول عالمٍ لم يَعُد يدعم الخيالات الدينيَّة أو الميتافيزيقيَّة التي أثقلت كاهِلَ الجنس البشري. فقد أثنى كامو في مقاله «**أسطورة سيزيف**» على نيتشه لأنَّه أزال كلَّ أملٍ في المستقبل:

> «يبدو أنَّ نيتشه هو الفنَّان الوحيد الذي توصَّل إلى النَّتيجة القصوى لجماليَّة العبَث، حيث تكمن رسالته النِّهائيَّة في الوضوح العقيم والقاهر، والنَّفي العنيد لأيِّ عزاءٍ ميتافيزيقي».[٥٤]

إنَّ نيتشه، الذي صَوَّرَ نفسه مسَّاحاً لأنواع العدميَّة المزدهرة في كوننا الخالي، كان يمتلك الشَّجاعة ليسمِّي الفراغ فراغاً. ومع ذلك، لم يكن عدميًّا بالاسم، بل بالضَّرورة:

«لقد شخَّص في نفسه وفي الآخرين عدم القدرة على الإيمان، وانتفاء الأساس البدائي لكلِّ إيمان- أي الإيمان بالحياة».[٥٥]

ويشير ميشيل أونفرا أنَّ كامو، وهو قارئ جاد لنيتشه، لم يكن مع ذلك نيتشويًّا.[٥٦] وبحلول الوقت الذي نشر فيه «**أسطورة سيزيف**»، اكتشف كامو أنَّ نيتشه كان قد أبهَرَ جميع القرَّاء الآخرين باستثناء نفسه، ولكن مع عواقب كارثيَّة. ففي عالمٍ خالٍ من الإله والأخلاق، كان كلُّ شيء مباحاً بالفعل. تحت شمس الجزائر العاصمة، تماشى حُبُّ القَدَر -حسب تعبير نيتشه أحِب قَدَرَك، لكُلِّ الأفراحِ وكُلِّ الغبطات- مع حُبِّ كامو الشَّاب للعالم. لكنَّه أصرَّ على أنَّ السَّماء الحديديَّة فوق أوشفيتز أجبرَتنا على إعادة النَّظر في الطُّرق التي فسَّر بها الآخرون نيتشه. فقد أعلَنَ كامو:

«إنَّنا نعرف درِّيَّة نيتشه وما نوع السياسة التي كانت تطالب بتفويض من الرّجل الذي زعم أنَّه آخر ألماني مناهض للسِّياسة. كان يحلم بطُغاة كانوا فنَّانين. ولكنَّ الطُّغيان يأتي بشكل طبيعي أكثر من الفَنِّ بالنسبة للرِّجال العاديِّين».[٥٧]

ومع ذلك بَقِيَ نيتشه مع كامو حتَّى النهاية. في ٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٠، عندما اصطدمت السيارة التي كان يقودها كامو بشجرة بلانير على جانب الطَّريق، ممَّا أدَّى إلى مقتله وسائقها،

صديقه ميشيل غاليمار، انقذَفَت حقيبة كامو على بعد ياردات عدَّة من السَّيارة. كانت تحتوي على أوراق ثبوتيّة، ونسخة من مسرحيَّة «**عطيل**» لشكسبير، ومخطوطة رواية «**الرَّجل الأوَّل**»، ونسخة من «**العلم المَرح**». وفي هذه المجموعة من الشذرات، يتنافس نيتشه مع سقراط، الفيلسوف الذي لم يَكتُب قط، لكنَّه في الوقت نفسه لم يعانِ من نَقصٍ في الكلمات. يقول نيتشه: «لم يَكُن سقراط أحكم ثرثارٍ في العالَم القديم فقط، بل كان أحكم النَّاس صمْتاً بالقدر نفسه». ومن عجيب المفارقات أنَّ سقراط فشل في التزام الصمْت عندما كان صمْته ضروريًّا: وقبل وفاته كان قد قال لصديقه كريتو أشهر عبارة له: «**أنا مدينٌ لأسكليبيوس بديك**». بالنِّسبة لنيتشه، لم يكن هذا يعني إلا أنَّ سقراط، أكثر الرجال ابتهاجاً وشجاعةً، «**عانى من الحياة**». نتيجةً لذلك، يخلص نيتشه إلى أنَّنا «**يجب أن نتجاوز اليونانيين أيضاً!**». [٥٨]

هل ينبغي لنا ذلك؟ يصف كامو في مذكَّراته زيارة قام بها في عام ١٩٥٤ إلى تورين. ووفقاً للقصَّة التي رُوِيَت كثيراً، شاهد نيتشه في عام ١٨٨٩ سائق عربة يَسوط حصانه المُنهَك، فاندفع عبر الشارع وألقى بذراعيه حول الحيوان وانهار على الأرض. عندما وصل فرانز أوفربيك بعد بضعة أيَّام للاعتناء بنيتشه، ألقى الرجل الهاذي نفسه، باكياً، على رقبة صديقه المتأثِّر. وبعد فترة وجيزة عانى نيتشه من سكتة دماغيَّة أثَّرت فيه حتى وفاته عام ١٩٠٠، ولم يتحدَّث مرَّةً أخرى. كتب كامو:

«لا يمكنني أن أعيد قراءة هذه الرِّواية دون أن أبكي». [٥٩]

وظَلَّ واقفاً أمام المبنى السَّكني حيث جاء أوفربيك لرؤية نيتشه، محاولاً عبثاً إعادة تركيب المشهد في ذهنه. لكنَّه لم يتوقَّف عن المحاولة: علَّق كامو على جدار مكتبه صورة نيتشه، قدَّمها له صديقه رينيه شار، صورة مؤلِّف كتاب «**هكذا تكلَّم زرادشت**» بعد سقوطه في صمْت دائم.[٦٠]

كتب إريك هيلر ببلاغة عن «**تدفُّق التعابير**» عند نيتشه ـ حقلٌ قويٌ من الكلمات يَصدُّ ما يصفه هيلر بأنَّه خوف نيتشه مما لا يمكن التَّعبير عنه: جهوده الملحميَّة الفاشلة «**للهرب من الزَّوال والنِّسيان والضَّعف**».[٦١]وينسج هيلر هذه الصُّورة الرَّائعة بخيطٍ واحد: هلوسة اختبرها نيتشه حيث لمح شخصيًّا، غير قادرٍ على الكلام، لكنَّه يصدر «**أصواتاً غير مفهومة أو واضحة بشكلٍ مروِّع**». وتماماً كما يحذِّرنا هيلر من ضرورة توخِّي الحذر في المبالغة في تقدير مثل هذه الاكتشافات اللافتة للنظر، كذلك لا بدَّ من توخِّي الحذر في حالة كامو. ولكنَّ هناك صدىً مُذهِلًا لذكرى نيتشه في دفاتر كامو. في صيف عام ١٩٥٦، قبل وقتٍ قصيرٍ من اندلاع معركة الجزائر العاصمة، كتب كامو ملاحظة عن «**الرجل الأوَّل**»:

«نهاية الرُّواية. ماما. بماذا كان ينطق صمْتها؟ بماذا كان يصرخ هذا الفم الصَّامت والمبتسم؟ سنُبعَث. صبرها في المطار، في عالم الآلات والمكاتب الذي هو وراءها، تنتظر بدون أن تَنبسَّ بكلمة واحدة، كما كانت النساء المسنَّات لآلاف السنين في جميع أنحاء العالم، ينتظرن مرور العالم. ثمَّ صغيرة جداً، مكسورة بعض

الشيء، على أرضٍ شاسعة، نحو الوحوش العاوية، مُمسِكَة بشعرها المُسَرَّح جيِّداً بيدٍ واحدة».[٦٢]

وبالطبع، لم يكن هنالك شيءٌ مرعبٌ في رؤيا كامو، ولم يحاول الهرب منها. على العكس من ذلك، فقد دار حولها بأمانة في رواياته وفي حياته، محتاراً بشأن صمْت أمِّه - عدم قدرتها على التَّعبير عن حبِّها لابنها. قبل أقلَّ من عامٍ من وفاته، سافر كامو إلى الجزائر العاصمة بعد إدخال والدته إلى المستشفى. وفيما كانت العائلة جالسة حول سريرها، كانت الأم «**كثيفة، تنتظر بصمْت.... لقد كانت تُعاني بصمْت**». هذا الصمْت، المستمرُّ والعميق، لم يدفع كامو إلى الكلام فحسب، بل أبقاه مرتبطاً بالعالم. بعد ليلةٍ صعبة بشكلٍ خاص في أثناء إقامة كامو في الجزائر العاصمة، غمرت أمطار الصباح المدينة:

«لقد ملأت أزهار الويستريا شبابي برائحتها، بأريجها الغنيِّ والغامض... مرَّة أخرى، إلى ما لا نهاية. كانت أكثر حياةً وأكثر حضوراً في حياتي من كثيرٍ من النَّاس... باستثناء الشَّخص الذي يعاني بجواري والذي لم يتوقف صمْته عن التَّحدُّث إليَّ طوال نصف حياتي».[٦٣]

ومثل والدته، ومثلنا جميعاً، وربما حتى مثل سقراط، عانى كامو من حياةٍ لم يعتقد أبداً أنَّنا بحاجة إلى تجاوزها.

الفصل الثالث

القِيَاس

عند نهاية كتاب «الإنسان المتمرِّد»، بعد صعودٍ قاتمٍ على المنحدر الأخلاقي والفكري لأوروبا ما بعد الحرب، وصف كامو وجهة نظره التي كوَّنها:

«ولكنَّ الاستبداديَّة التَّاريخيَّة، على الرغم مما حقَّقت من انتصارات، ما فتَرَت قَطُّ عن الاصطدام بمطلَبٍ للطَّبيعة البشريَّة لا يُقهَر، يحتفظ بسرِّه الحوضُ المتوسِّطُ حيث العبقريَّة صِنوةُ المعرفة الشاقَّة... لقد رُمِيَ بنا في أوروبا سافلة، يموت فيها أكثر الشُّعوب صلفاً، محروماً من الجمال والصَّداقة، ولكنَّنا لا نزال نحن معاشر الأوروبيين ننهل من المعرفة نفسها ونَغرفُ من المَعين نفسه. إنَّ الفكرة النَّيِّرة، الحضارة ذات الوجهين، تَرقب انبلاج فجرها، في صميم الليل الأوروبي.

ولكنَّها منذ الآن تنير دروب السِّيادة الحقَّة». [1]

على الرَّغم من أنَّ نظرة كامو الثَّاقبة حول الطبيعة المعقَّدة للاستبداديَّة والشُّيوعية أثبتت بصيرتها، وعلى الرَّغم من أنَّ غنائيَّة لغته مثيرة للإعجاب، فإنَّ كلًّا منهما قد جَلجَلَت أسنان المفكِّرين والمثقَّفين المعاصرين. يُذكَر كتاب **«الإنسان المتمرِّد»**، كما رأينا اليوم بأنَّه سبب الخلاف العميق بين كامو وجان بول سارتر. لكنَّ سارتر لم يكن وحده الذي وجد الخطأ في مقال كامو. حيث اندلعت سلسلة من الأخذ والرَّدِّ المتبادل بين كامو وأندريه بريتون مؤسِّس الحركة السوريالية، الأمر الذي يكشف عن حجم كلٍّ من حجم الرِّهان الأخلاقي والشَّخصيات المعنيَّة بالأمر. في فصلٍ بعنوان «الشِّعر المتمرِّد»، انتقد كامو ارتباط السوريالية باللاوعي واللاعقلانية كضمانٍ لعبوديَّة الإنسان. كما انتقد انعدام المسؤولية الأخلاقيَّة في عبارة بريتون سيِّئة السُّمعة، المذكورة في البيان التأسيسي للحركة، «البيان الثاني للسوريالية»، التي يبدو أنَّها تحثُّ القارئ على الاندفاع نحو الحشد وإطلاق النار من مسدَّس بسرعة وبتهوُّر قدر الإمكان. وسخر بريتون الغاضب بدوره من جهود كامو في الجَمع بين الثَّورة والاعتدال، متسائلاً: **«ما الذي يمكن أن يبقى بعد أن تُفَرَّغ الثَّورة من جوهرها العاطفي؟»**. [2]

يميل العنف المُشَخصَن والعَلَني للأخذ والرَّدِّ الأدبي إلى حجب المخاطر الأخلاقيَّة والسِّياسيَّة الهائلة التي يطرحها «الإنسان المتمرِّد». كانت الأمور بسيطة في نظر كامو: لم يَعُد بوسعه القبول بالوعود الشيوعية الأخروية بقدر ما لم يكن بوسعه أن يُذعن

لوضعنا الرَّاهن. بدأ كامو في «**الإنسان المتمرِّد**» باكتشاف الأسباب التي نرفض على أساسها كِلا الخيارين، ووجدها في الطَّبيعة العبثيَّة لعالمنا ـ عالم يكون فيه البحر الأبيض المتوسِّط مصدر سِمة سارتر وبريتون الوحشية ذاتها: القِيَاس **la mesure**.

*****

في أوائل سنة ١٩٤٢، دوَّن كامو في مذكِّراته:

> «تَعرِضُ كاليبسو على عوليس الاختيار بين الخلود والأرض التي وُلِدَ فيها. لكنَّه يرفض الخلود. وهنا يكمن المعنى الكامل للأوديسة». [٣]

ويبقى هذا، في نظر كامو، ليس معنى الأوديسة فقط، بل معنى اليونان القديمة أيضاً. والواقع أنَّ تبنِّي أوديسيوس للقِيَاس، واختياره لحياة مرتبطة بعالمنا، هو ما يؤطِّر النَّظرة الإغريقية القديمة إلى العالم. وكما كتب بعد ما يقرب من عقدين من الزَّمن في «**الإنسان المتمرِّد**»، يرفض بطل هوميروس «**الألوهيَّة من أجل مشاركة نضالات ومصير كلِّ إنسان**». وعلى غرار أوديسيوس، يُعلنُ كامو أنَّنا يجب أن «**نختار إيثاكا، الأرض الوفيَّة، والفكرة الجريئة القنوعة، والعمل الواعي... في النُّور، يظلُّ العالم حبَّنا الأوَّلَ والأخيرَ**». [٤]

وهكذا يجمع كامو بين حنين أوديسيوس ـ جهده لعقدين للعودة إلى وطنه **nostos** ـ وبين حنينه العميق إلى الوطن. لم يَكُن توق كامو طبيعيًّا فحسب ـ الأرض والمياه والسماء الزرقاء والضَّوء السَّاطع لوطنه الجزائر ـ بل كان أيضاً حنيناً ميتافيزيقيًّا:

توقـه إلى المعنـى أو الوحـدة في حياتنـا، ذلـك الشُّـعور الـذي شـعر بـه بعمـقٍ عندمـا ترعـرع في الجزائـر العاصمـة. تتصاعـد هـذه المشـاعر المتشـابكة بالفَقـد ليس فقـط عـبر صفحـات «**الإنسـان المتمـرِّد**»، ولكن عـبر جميـع كتابـات كامـو، مـن مقالاتـه السَّـابقة إلى عملـه الأخـير وغـير المكتمـل، «**الرَّجـل الأوَّل**».

لكـنَّ الحنـين إلى المـاضي أمـرٌ معقَّـدٌ. بحلـول الوقـت الـذي أقسـم فيـه أوديسـيوس عـلى إخلاصـه لإيثـاكا، فقـد جميـع رفاقـه في السَّـفينة، وشَـهِد أعـمالاً وحشـيَّة وبربريَّـة مروِّعـة، وسـافر إلى العـالم السُّـفلي ثـمَّ عـاد، ونـام مـع عـدد مـن الرَّبَّـات الصغـيرات. عـلاوة عـلى ذلـك، إنَّـه يعلـم أنَّ إيثـاكا قـد تعرَّضَـت للغـزو والاسـتعمار مـن قبـل حَشْـدٍ مـن الخاطبـين الذيـن يتهافتـون عـلى ثـروات قـصره، بينـما يتنافسـون عـلى يَـد بينيلـوبي. طبعـاً، سـوف يذبـح أوديسـيوس جميـع الخاطبـين ـ بمـن فيهـم أولئـك الذيـن، كـما يخبرنـا هومـيروس، لا يسـتحقون هـذا المـوت ـ الأمـر الـذي يقـود إيثـاكا إلى حافـة الحـرب الأهليَّـة. إنَّ تدخُّـل أثينـا وحـده هـو الـذي يجعـل الطـرف المتحـارب ينسـى أسـباب غضبـه، والـذي يفـرض السَّـلام عـلى هـذه الجزيـرة الصخريَّـة العائمـة في البحـر الأبيـض المتوسـط.

عـلى الرَّغـم مـن أنَّ كامـو لم يذكـر هـذه التَّفاصيـل، إلا أنَّ لهـا صَـدًى عميقًـا في حياتـه باعتبـاره ابنًـا مُخلِصًـا لـكلٍّ مـن اليونـان القديمـة والجزائـر الحديثـة. وقـد سـمحت الأسـطورة اليونانيَّـة لكامـو بالتَّعبـير عـن هـذا الاخـلاص المـزدوج. وإذا كان «**عـالم الأسـطورة الـذي أشـعر فيـه بأنَّـه وطنـي أكثـر مـن غـيره هـو عـالم الأسـطورة اليونانيَّـة**»، كـما

كتب، فإنَّ هذا العالم يشمل الشَّواطئ الجنوبيّة للبحر الأبيض المتوسط.[٦] وفي الواقع، ألقى كامو العديد من هذه الأساطير ليس فقط إضفاءَ معنًى لحياته، بل أيضاً لإضفاء معنى لحياتنا. وسواء كان ذلك في حالة الجزائر التي مزَّقتها الحرب أو الكون الذي يفتقر إلى المعنى، يلجأ كامو إلى الإغريق كمرشدين ليُخرجوه من حيرته.

*****

أكَّد الأديب الكلاسيكي أولريك فون فيلاموفيتش ذات مرَّة: «**لكي نجعل القدماء يتكلَّمون، علينا أن نغذِّيهم بدمنا**»[٧]. وبعبارة مماثلة عبَّرَ كامو عن الفكرة نفسها: «**لا حياة للأساطير. إنَّها تنتظر منَّا أن نعطيها جسداً ونكسوها لحماً**».[٨] وبمجرَّد أن تُعطى الأسطورة جسداً، فإنَّها سُرعان ما تنمو وتتطوَّر. بعد فترة وجيزة من نشر «**أسطورة سيزيف**» في عام ١٩٤٢، خَلُصَ كامو إلى أنَّه كان عليه أن يتجاوز العبث. وعلى الرَّغم من تشخيصه الدقيق للحالة الإنسانية، إلا أنَّه أدرك أنَّ ذلك لم يكن دليلاً على المأزق اليائس الذي تعيشه فرنسا كأمَّة خاضعة للحكم النَّازي. وبحلول الوقت الذي انضمَّ فيه إلى صفوف المقاومة، وأصبح في نهاية المطاف مُحَرِّراً لصحيفة «كومبا Combat» السِّريَّة، كان كامو يتطلَّع بالفعل إلى دورة ثانية من الأعمال المكرَّسة لموضوع التَّمرُّد. وأدَّى هذا التَّغيير في التَّركيز إلى تأليف «**الطاعون**»، و«**القَتَلَة العادلون**»، و«**الإنسان المتمرِّد**»: مجموعة جديدة من التوائم الثلاثيَّة التي عمَّدها كامو باسم بروميثيوس.

كما رأينا في الفصل السَّابق، كان اهتمام كامو ببروميثيوس يعود إلى أبعَدَ ممَّا كان عليه مع سيزيف. في عام ١٩٣٧، كَيَّفَ ترجمة بول مازون الفرنسية لمسرحية «**بروميثيوس مُجَندلاً**» لإسخيلوس، لصالح شركة المسرح التي أسَّسها مع أصدقائه. وفي الفترة نفسها انضمَّ كامو إلى الحزب الشِّيوعي: كانت المأساة بالنِّسبة لشباب الأقدام السُّود وسيلة مثاليَّة للوصول إلى الطَّبقة العاملة وتثقيفها. وفي بيان صاغه كامو، أعلَنَت الشَّركة عن نيَّتها «**إثبات أنَّ الفَن مفيدٌ أحياناً للنُّزول من البرج العاجي... [و] استعادة بعض القيَم الإنسانيَّة**».[٩]

لهذا السَّبب، وجد كامو حليفاً مثاليًّا في بروميثيوس. ولكن، كما هو الحال مع سيزيف، كان بروميثيوس إسخيلوس هو مجرَّد واحدٍ من بين العديد من الاختلافات في صيغة الشخصيَّة الأسطوريَّة. على سبيل المثال، يصوِّر هزيود في كتابه «**أصل الآلهة**» بروميثيوس بوصفه لا يختلف اختلافاً شديداً عن سيزيف: تايتان ثرثار وسريع الكلام، يحتال على زيوس مرارًا وتكرارًا. يبدو أنَّ قرار بروميثيوس بوَهب النَّار هِبَةً للجنس البشري -الفعل الذي قيَّده زيوس بسببه إلى صخرةٍ، مع نسرٍ يلتهم كل يوم كبده- لم يكن هدفه أكثر من مجرَّد استفزازٍ لزيوس.

ومع ذلك، فإنَّ بطل «**بروميثيوس مُجَندَلاً**» مُساوٍ للمأساة القاسية والمرعبة التي تصوّرها إسخيلوس. تنتهي المسرحيَّة الوحيدة المتبقِّية من ثلاثيَّة مُفترضَة، بروميثيوس مُجَندَلاً، بالبطل المقيَّد الذي يرفض الخضوع لزيوس. يقول بروميثيوس لهرمس، رسول زيوس، إنه لن يَنكسِرَ أمام أيِّ تعذيب:

ولا أي معامَلة شائنة، ولا أداة

سيجبرني بها زيوس على قول هذه الأشياء

حتّى أتخلَّصَ من ذلِّ هذه الأغلال.

يرى كامو، اليساري المُتشدِّد الذي روَّعته حالة العَرَب بقَدر ما روَّعته حالة الفقراء العاملين في مجتمع الأقدام السُّود، أنَّ هذه النهاية العَرَضيَّة القائمة على أدلَّة مُجَزَّأة، تنتهي بإفراج زيوس عن بروميثيوس، وهو أمرٌ منطقيٌّ تماماً. فبعد أقلَّ من عامٍ من إنتاج المسرحيَّة، تبنَّى كامو شخصيَّة بروميثيوس الذي يتميَّز بالحماسة الثَّوريَّة:

«تكمن روح الثورة بالكامل في احتجاج الإنسان على الحالة الإنسانية. في ظلِّ الأشكال المختلفة التي تفترضها، إنَّه... الموضوع الأزلي الوحيد للفن والدين. دائماً ما تندلع ثورة ضدَّ الآلهة -من ثورة بروميثيوس فصاعداً».[10]

غير أنَّ مشاعر الحماسة الثوريَّة هذه، أي التمرُّد المتطرِّف ضدَّ الآلهة والنِّظام الذي كرَّسته، راق أيضاً لفنَّان شابٍ وطموحٍ يستحوذ عليه جمال بلده المادي. فقد حَثَّ كامو نفسه في مذكِّراته، بعد أقلَّ من عامٍ من إنتاج «بروميثيوس طليقاً»، على «إيجاد الإفراط في الاعتدال».[11] لذا يقدِّم كامو أيضاً في مقالته «أعراس في تيبازة»، التي كتبها عام ١٩٣٦، أنشودةً عن الإفراط الحسِّي:

«نَسير إلى لقاء الحبِّ والشَّهوة. لا نسأل دروساً، ولا نبحث عن الفلسفة المريرة التي تُطلَبُ من أجل العَظَمة. كل شيءٍ يبدو لنا باطلاً، ما عدا الشمس، والقُبَل، والعطور الوحشيَّة. أمَّا أنا، فلا أسعى إلى أن أكون وحدي. لقد أتيتُ إلى هنا غالباً مع من أحبُّهم وكنتُ أقرأ على أساريرهم الابتسامة الوَضَّاءة التي يُشرق بها وجه الحب. إنَّني أترك هنا لغيري النظام والاعتدال». [١٢]

وبشكلٍ أكثر تشديداً، إنَّ تيبازة، بوَّابة العصور القديمة هذه، تجعله يفهم:

«ما يُسَمَّى هنا بالعزِّ: الحقُّ في الحبِّ إلى ما لا نهاية». [١٣]

كانت المأساة، بالنسبة لكامو، عنصراً أساسيًّا لما سمّاه «**ظَهيرة الفكر**»، وهي النَّظرة العالمية التي ربطها بالبحر الأبيض المتوسط. وفي العام نفسه قامت شركته بتنظيم مسرحيَّة «**بروميثيوس مُجَنَدَلاً**»، ألقى كامو خطاباً عاماً بعنوان «ثقافة البحر الأبيض المتوسِّط الجديدة» في دار الثقافة في الجزائر العاصمة. رسم كامو في خطابه تصوُّره للنظرة «المتوسِّطيَّة»، وهي حركة أُسِّست في فترة ما بين الحربين العالميتين على يد الكاتب الجزائري غابرييل أوديسيو، وتسعى إلى استعادة «**روح البحر الأبيض المتوسِّط» من الفاشيِّين الإيطاليِّين وتمجيدهم لروما، ووضعها بدلاً من ذلك تحت الرِّعاية الإنسانيَّة لليونان القديمة**». [١٤]

بيد أنَّ ما فهمه كامو من منظور البحر الأبيض المتوسِّط لم يتطابق دوماً مع الواقع الخرائطيِّ للمنطقة. وفي قسمٍ من محاضرته

بعنـوان «**الأدلَّـة**»، أو «**الحقائـق الواضحـة**»، لا يقـدِّم حقيقـة، بـل واقعـة: «**هنـاك بحـرٌ متوسِّـطيٌّ، حـوضٌ يربـط بـين نحـو عـشر دول مختلفـة**». في كلِّ بلـد مـن هـذه البلـدان تجـد «**التَّقديـر نفسـه للحيـاة**» بـين «**الرِّجـال الذيـن يرتـدون ملابـس غـير رسـميَّة**»، والذيـن يعيشـون «الحيـاة العنيفـة والملوَّنـة التـي نعرفهـا جميعـاً».[١٥]

مـا عـدا ذلـك، إذا كنـت رجـلاً، أو امـرأة بملابـس غـير رسـمية، مـن أجـزاء مـن شـمال أفريقيـا أو منطقـة الـشرق الأوسـط. في عـام ١٩٣٧، لم يكـن هنـاك عـشر دول مطلَّـة عـلى البحـر الأبيـض المتوسِّـط، بـل خمـس عـشرة دولـة. ويبـدو أنَّ كامـو يلتـزم في حسـاباته بالمنظـور المتميِّـز لأوروبـا. فقـد تجاهـل مـصر ومنطقـة شرق البحـر الأبيـض المتوسِّـط تمامـاً، في حـين أنَّ الدَّولتـين «**العربيَّتـين**» اللتـين سـمَّاهما، الجزائـر وتونـس، كانتـا خاضعتـين للحكـم الفرنـسي. عـلاوة عـلى ذلـك، بينـما كان يناقـش أصـول وتطـوُّر الديانتـين المسيحيَّة واليهوديَّة، لم يَقُـل كامـو كلمـة واحـدة عـن الإسـلام. وأخـيراً، حـين ذَكَـر كامـو كلمـة «**العَـرَب**»، أخـذَت الأسـئلة تتزايـد بـدلاً مـن أن تختفـي. وقـال إنَّ شـمال أفريقيـا «**واحـدةٌ مـن البلـدان القليلـة التـي يعيـش فيهـا الشرق والغـرب جنبـاً إلى جنـب. وهنـاك، عنـد هـذا التقاطـع، فـارقٌ ضئيـلٌ بـين الطريقـة التـي يعيـش بهـا شـخص إسـباني أو إيطـالي عـلى أرصفـة مدينـة الجزائـر، والطريقـة التـي يعيـش بهـا العـرب مـن حولهـم**». حتـى عندمـا نضـع في الحسـبان الطَّبيعـة الطبقيَّـة لمجتمـع الأقـدام السـود، الـذي شـمل المسـتعمرين الأثريـاء والعـمَّال الفقـراء القذريـن مثـل أسرة كامـو نفسـها، بقيَـت هنـاك فَجـوة شاسـعة بـين الظـروف

الاقتصاديَّـة والقانونيَّـة والاجتماعيَّـة للمسـتوطنين الأوروبيِّـين في الجزائـر والمجتمعـات الأصليَّـة العربيـة والأمازيغيـة.

ليـس مـن المُسـتَغرب أن يخلـص كونـور كـروز أوبرايـن، أحـد أقـوى نقَّـاد كامـو المُناهضـين للاسـتعمار، إلى أنَّ هـذا المُنـاصر لثقافـة البحـر الأبيـض المتوسـط الجديـدة «**يكشـف عـن نفسـه وكأنَّـه عاجـزٌ عـن التفكـير في أيِّ فئـةٍ غـير تلـك التـي ينتمـي إليهـا الفرنـسي**».[١٦] ولكـن كـما جـادل نيـل فوكسـلي مؤخـراً، فـإنَّ جهـود كامـو لصياغـة هويَّـة متوسِّـطيَّة جديـدة -بعبـارةٍ أخـرى، اخـتراع أسـطورة مسـاوية لتحدِّيـات عـصره- لم تكـن للتهـرُّب مـن واقـع الاسـتعمار، ولكـن لمعالجـة أوجـه القصـور فيـه».[١٧] والسِّـياق، في هـذه الحالـة، لا يقـلُّ أهميـةً عـن النَّـص نفسـه. فقـد أنشـأ الحـزب الشِّـيوعي الجزائـري، وهـو الحـزب الوحيـد الـذي طالـب بالحقـوق المدنيَّـة والسِّياسـيَّة الكاملـة للسُّـكان العـرب والأمازيـغ، «**دار الثقافـة**». حيـث ألهَـمَ هـذا المِنـبَر عضويَّـة كامـو (قصـيرة الأجَـل) في الحـزب، وكذلـك مشـاركته في وقـتٍ سـابق، عندمـا كان لا يـزال في المدرسـة الثانويـة، في مجلَّـة تسـمى «إقـدام». إذ دَعَـت هـذه المجلَّـة التـي أسَّـسها حفيـد الجزائـري القومـي عبـد القـادر الـذي عـاش في القـرن التاسـع عـشر، فرنسـا لَمـدِّ حقـوق الإنسـان والمواطنـة عـلى العـرب والأمازيـغ الخاضعـين لحكمهـا».[١٨]

وفي العـام نفسـه، أعلن كامـو ولادة ثقافة متوسِّـطيَّة جديدة، وانضم إلى طاقـم صحيفـة «جزائـر الجمهوريَّـة» المُسـتقِلَّة. وسرعـان مـا انتقـل مـن كتابـة الأخبار إلى كتابـة التَّحقيقـات والتقارير الاسـتقصائيَّة، وكان أكثرهـا إثـارة للانتبـاه سلسـلة تقاريـره مـن منطقـة القبائـل الشَّـرقيَّة في

عام ١٩٣٩. ومن اللافت للنَّظر أنَّ أول هذه التقارير كان بعنوان «اليونان في ثياب بالية». يجمع التقرير بين حنين كامو إلى اليونان القديمة وغضبه من الظروف السَّائدة في الجزائر الحديثة:

> «عندما يصل المرء إلى المنحدرات الأولى لمنطقة القبائل، سرعان ما يُلفت نظره القرى الصَّغيرة المُحتشدة بالقرب من القِمَم، الرجال الذين يرتدون أثواباً صوفية بيضاء، والطُّرق التي تحدُّها أشجار الزيتون، والتِّين، والصَّبَّار، بساطة الحياة، والمَناظر الطَّبيعيَّة؛ الإنسان والأرض، لا يمكن للمرء إلَّا أن يفكِّر في اليونان القديمة».[١٩]

وهكذا إلى أن يقترب المرء أكثر، ينهار نموذج اليونان القديمة في ظلِّ الواقع الوحشي للحياة اليوميَّة في منطقة القبائل. فعلى سبيل المثال، كان من المعروف لدى الجمهور أنَّ التَّوزيع الرَّسمي للحبوب لا يُلَبِّي احتياجات السُّكَّان. ولكن، كما كتب كامو، «ما لم أكُن أعرفه هو أنَّ هذا النقص كان يقتل الناس هناك».[٢٠] ويستمرُّ في وصفه للواقع المُرعب للقرى حيث يَلعب الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية على مَقربة من المجاري المفتوحة، ويُغمى عليهم من شدَّة الجوع في قاعات الدراسة، ويتقاتلون مع الكلاب على بقايا المطبخ، وقد أنهكتهم التشنُّجات، وماتوا من أكل جذور سامَّة. لقد قدَّم بؤس الحياة اليومية الكئيبة من أجل أعذار المدافعين عن الإمبريالية ـ أي أنَّ «العقليَّة» البَربَريَّة كانت مصدر هذه العِلَل. لكن «هذا كلُّه هراء»، أجاب كامو. كانت المسألة تتعلَّق بالمياه والغذاء والطُّرق والمدارس ـ التي افتقرت

إليهـا منطقـة القبائـل إلى حَـدٍّ كبيرٍ ولم توفِّرهـا السُّـلطات الفرنسـيَّة. أرسـل كامـو عـشرات التقاريـر والمقـالات مـن منطقـة القبائـل، وكلُّهـا تحمـل الرسـالة نفسـها: يجـب ألَّا يُحجَـبَ بـؤس هـؤلاء البـشر «**بعبـارات مُبهِجَـة أو تأمُّـلات عفويـة. إنَّهـم يبكـون مـن أجـل لَفـت انتباهنـا، وييئسـوا مـن الحصـول عليـه**».[٢١]

ممَّا يتجلَّى مـن الأحـداث اللاحقـة، يمكـن للمـرء أن يسـتنتج أنَّ الموقـف الـذي اتَّخـذه كامـو ـ بوصفـه موظفاً في مؤسَّسـة «إقـدام» أو مراسـلاً في صحيفـة «**جزائـر الجمهوريَّة**» ـ كان موقفاً سـاذجاً بـكلِّ بسـاطة. ربـما. ولكنَّ هذه السَّـذاجة احتفظـت بقوَّتهـا الأخلاقيَّة في فترة مـا بـين الحربـين العالميَّـين. ينتمـي كامـو إلى عـددٍ قليـلٍ مـن الجزائريـين الفرنسـيين الذيـن اعتقـدوا، عـن حسـن نيَّـة، أنَّ سياسـة الجمهوريَّـة الرسـميَّة المتمثِّلـة بالاسـتيعاب، وليسـت العَبـاءة الوحشـيَّة للاسـتعمار التـي تحجـب الواقـع، كانـت مُخططـاً لأمَّـة مندمجـة تمامـاً.[٢٢] وبطبيعـة الحـال، كانـت السِّياسـة الاسـتعماريَّة الفرنسـيَّة عنصريَّـة وأبويَّـة. ولكـن مـع ذلـك، واسـتناداً إلى المشـاعر العالميَّـة القائمـة على المسـاواة في عـام ١٧٨٩، احتفظـت عقيـدة الجمهوريَّـة الفرنسـيَّة أيضاً بقدرتهـا على إلهام أفـراد اسـتثنائيِّين مثـل كامـو للعمـل مـن أجـل جزائـر تكـون فرنسـيَّة بالكامـل، وجمهوريَّـة بالكامـل، وحرَّة بالكامل بالنِّسـبة لجميـع سـكَّانها.

مـن خـلال شـخصيَّة بروميثيـوس، واصـل كامـو استكشـاف مسـألَتي الحرِّيـة والمسـؤوليَّة. بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وفيـما بـدا أنَّـه شـتاءٌ أبـديٌّ يخيِّـم عـلى أوروبـا، نَـشَرَ كامـو في عـام ١٩٤٧ مقالـه «**بروميثيـوس في الجحيـم**». حيـث يبـدأ في مقالتـه القصـيرة الغنائيـة

هـذه بالسـؤال عـن مـا قـد يعنيـه بروميثيـوس لعـالم خـرج لتـوِّه مـن حـربٍ عالميَّـة، وتحرَّرَ مـن الخطـر النـازي، لكنّـه أصبـح رهينـة لقـوى الشـيوعيَّة والرَّأسـماليَّة. في مَعـرَض رَدِّه، ينتقـل كامـو الآن إلى العـوالم السياسـيَّة والميتافيزيقيَّـة والماديَّـة والرُّوحيَّـة:

«بروميثيوس هو ذلك البطل الذي أحَبَّ النَّاس كثيراً، لدرجة أنَّه مَنَحَهم النَّار والحرية في وقتٍ معاً، والفن، بينما لا تحتاج الإنسانيَّة في أيامنا هذه، بل لا يَشغل ذهنها، إلَّا التفكير في العمل. إنَّها تتفجَّر بالثَّورة في هذه الآلات التي تصنع، وهي ترى في الفَنِّ، وفي كلِّ تصوُّراته عائقاً، أو دليلاً يشير باستخدامه! وأمَّا ما يوحي به بروميثيوس فشيءٌ على عكس ذلك، إنَّه يشير إلى أنَّه لا يمكن التَّفريق بين الآلة وبين الفنِّ». [٢٣]

ولـو ظهـر بروميثيـوس نفسـه، المَكـروه مـن قِبَـل زيـوس، وسـط أنقـاض أوروبـا مـا بعـد الحـرب، لجرَّتـه القـوى التكنولوجيَّـة والإيديولوجيَّـة العظيمـة في ذلـك العـصر بعيـداً أيضـاً:

«في الحقيقـة، إنَّ بروميثيـوس لـو عـاد اليـوم، لما فعـل بـه أنـاس هـذا العـصر إلا مـا فعلتـه بـه آلهـة عـصره، إنَّهـم كانـوا لا بدَّ سيصلبونه إلى صخرتـه، باسـم هـذه الإنسـانيَّة التـي كان هـو ذاتـه رمزهـا الأول». [٢٤]

وأولئـك الذيـن اختـاروا «التاريـخ» ـ أولئـك الذيـن اعتنقـوا الرُّؤية الألفيَّـة التـي قدَّمتهـا الشـيوعيَّة ـ لقـد خانـوا إرث بروميثيـوس:

«هذا الولد، ذو الأفكار الجريئة، والقلب الطَّائش». [٢٥]

وبما أنَّ بروميثيوس متمرِّد صاحب قضيَّة -أو بتعبيرٍ أدَقّ، قضايا- فإن كامو لا يزال صامِداً بسبب لفتة بروميثيوس البطوليَّة التي تتمثَّل في فعل تمرُّده ضدَّ حكم زيوس. في نهاية مسرحية «**بروميثيوس مجَندَلاً**»، نرى إلهاً يرفض أن يتراجع عن تحدِّيه للنِّظام القائم، ويعاني من عذاب لا يوصف. وكلمته الأخيرة - «**انظروا، كيف أعاني ظلما!**» - تُرَدِّدُ صدى التَّحدِّي الرومانسي للقَدَر والجذَّاب جدًّا بالنِّسبة لكامو الشاب.

*****

في هذه اللحظة بالذَّات، أصبح كامو محرِّراً في غاليمار Gallimard، حيث أطلق سلسلة «أمَل» **Espoir**. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أهمَّ اكتشافاته كمحرِّر كان عمل سيمون فايل. كانت المُنَظِّرة السِّياسيَّة الرَّاديكاليَّة، والفيلسوفة، والصُّوفيَّة قد توفِّيت في غموض نسبي في إنجلترا عام ١٩٤٣، حيث كانت قد ذهبت قبل عامين من أجل الانضمام إلى حركة «فرنسا الحرَّة» بقيادة الجنرال ديغول. وبصرف النَّظر عن العدد القليل من المقالات المتفرِّقة، إلا أنَّ معظم كتابات فايل كانت لا تزال غير منشورة. وعلى مدى السنوات القليلة التالية، وبالتعاون مع عائلة فايل، قام كامو بتحرير ونشر العديد من أعمال فايل، بدءاً من مقالاتها السِّياسيَّة، وأبرزها «التأصيل» **L'Enracinement**، للأعمال الدِّينية مثل «المعرفة الخارقة للطَّبيعة» **La Connaissance surnaturelle**.

ولكـن لعـلَّ أهـم تقـارب بـين كامـو وفايـل كان حـول موضـوع اليونـان القديمـة. في عـام ١٩٥٣، نـشر عمـل فايـل «المصـدر الإغريقي» La Source grecque، وهـي مجموعـة مـن المقـالات عـن العصـور اليونانيـة القديمـة. وبالأخـصّ، احتـوت المجموعـة على مقالـة أساسـيَّة بعنـوان «الإليـاذة، أو قصيـدة القـوَّة»، بالإضافـة إلى مقدِّمـة لفكـر هراقليطـس.

مـن الصَّعـب قِيَـاس مـدى تأثـير فايـل عـلى كامـو. وفي المؤتمـر الصَّحفـي الـذي عُقِـدَ في سـتوكهولم في عـام ١٩٥٨، ذكـر الحاصـل على جائـزة نوبـل عـلى نحـوٍ مؤثِّـرٍ اثنـين فقـط مـن الكتَّـاب الفرنسـيِّين الذيـن شـعر بقربـه منهـا: الشَّـاعر والصديـق المقـرَّب رينيـه شـار وفايـل[]. وقـد أشـار كاتـب سـيرته الذَّاتيـة أوليفييـه تـود أنَّ كامـو كان «مفتونـاً» بفايـل، لكنَّـه لم يكـن مُعجبـاً بـ «وَلعهـا بالشَّـقـاء والمَـوت». [٢٦] كان هـذا الافتتـان، في جـزءٍ منـه، سياسـيًّا: فقـد اعتـبر كامـو تحليـل الاحتياجـات والواجبـات البشريَّـة في مقالهـا عـن التأصيـل L 'Enracinement بمثابـة كَشـف revelation. [٢٧] إلا أنَّ كامـو وَجَـدَ أنَّ معاملـة فايـل لليونـان القديمـة لم تكـن أقـلَّ كَشـفاً. وممَّـا لا شَـكَّ فيـه أنَّـه تأثَّـر بشـكلٍ خـاصٍ بمناقشـة فايـل لـفكرة «القـوَّة» في ملاحـم هومـيروس والمـآسي الإسـخيليَّة. بالنِّسـبة لفايـل، القـوَّة هـي حقيقـة عميـاء، قاسـية، وعالميَّـة في مَداهـا، ومتَّسـقة في عواقبهـا. القـوَّة حتميَّـة وعديمـة التمييـز، تفعـل فعلهـا على القـويِّ والضَّعيـف، محوِّلـةً الضَّحيَّـة والجـاني الى «أشيـاء». وكـا كتبـت فايـل، «القـوَّة لا ترحـم الشَّـخص الـذي يمتلكهـا، أو يعتقـد أنَّـه يمتلكهـا، كـا أنَّهـا لا ترحـم

ضحاياها؛ الثاني تسحقه سحقاً، والأول تسمِّمه. الحقيقة هي أنَّه لا أحد يمتلكها». [٢٨]

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ أولئك الذين يمتلكون القوَّة يستغلُّونها باستمرار، غافلين عن حقيقة أنَّ سيطرتهم على القوَّة مجرَّد وهم محض. العقاب سيحلُّ لا محالة ـ الوسيلة التي تعيد من خلالها الآلهة التَّوازن الإلهي. وبالنِّسبة إلى فايل، كان هذا الشَّكل من إعادة التَّوازن أو العقاب «الموضوع الرَّئيس في الفكر اليوناني. إنَّها روح الملحمة... [و] تعمل بمثابة المحرِّك الرَّئيس لمآسي إسخيلوس». [٣٠] ثمَّ أشارت إلى أنَّنا فقدنا هذا المفهوم للحَدِّ ـ في الواقع، لم يَعُد لدى الغرب حتَّى «كلمة للتَّعبير عنه في أي من لغاته: مفاهيم الحَدِّ، القِيَاس، التَّوازن، التي يجب أن تُحَدِّد سلوك الحياة، في الغرب، تقتصر هذه المفاهيم على وظيفة ذليلة في مفردات التكنولوجيا. نحن لسنا سوى مهندسين للمادة، كان الإغريق، في المقام الأول، هندسيين في تدريبهم على الفضيلة». [٣١]

تعكس أعمال الدَّورة البروميثيَّة، ولا سيَّما «الطاعون» و«الإنسان المتمرِّد»، فَهمَ فايل القاسي والدَّقيق للكون. يعيد كامو، في قلب القرن العشرين، اللغز الذي اكتشفه في المأساة الإسخيليَّة ويعيد صياغته في ضوء أعمال فايل. إنَّه عالمٌ حيث كلٌّ من بروميثيوس وزيوس فيه على حَق، ولكنَّ أيَّا منهما لا يمتلك ما يبرِّر له حقَّه، عالمٌ تفرض فيه الآلهة الخَيار المستحيل على أجاممنون: إمَّا التَّضحية بابنته، أو التَّخلِّي عن جهوده لاستعادة شرف هيلين والكرامة اليونانية. باختصار، إنَّه عالمٌ يخضع فيه البشر لما يسمِّيه

برنارد ويليامز «**الضرورة الماورائيَّة**».[32] أو، كما يعترف بطل رواية الطَّاعون، د. ريو، عندما سُئِلَ ضدَّ مَن أو ما يُقاتل: «**ليس لديَّ أدنى فكرة.....وأؤكِّدُ لكم ليس لديَّ أدنى فكرة**».[33]

*****

لا بدَّ أنَّ كامو قد وجد أنَّ مفهوم فايل المأساوي للقوَّة يتناسب بشكلٍ خاصٍ مع فترة ما بعد الحرب مباشرةً في الجزائر الفرنسيَّة. في منتصف عام ١٩٤٥، عاد إلى وطنه للمرَّة الأولى منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. خلال معظم شهر نيسان/ أبريل، سافر عبر البلاد، متحدِّياً الشائعات عن العنف المتزايد، كما قاس تأثير الحرب على العلاقات بين السُّكَّان من السُّود والعَرَب والأمازيغ. ثمَّ عاد مُسرعاً إلى باريس بعد انفجار مجازر قالمة المروِّعة في مدينة سطيف، التي بدأها السُّكان العرب بجنون، وانتهت بشكلٍ أكثر انتظاماً من قبل القوَّات الفرنسية، في ٨ أيار/ مايو.

ظهر مقاله الأوَّل تحت العنوان الجريء «**أزمة في الجزائر**» في طبعة الثالث عشر من أيار/ مايو من صحيفة كومبا، وهي الصَّحيفة الرَّسميَّة للمقاومة التي شغل كامو منصب مُحرِّرها خلال الحرب. وقد حذَّر من «**الصُّعوبات الجسيمة التي تواجهها الجزائر اليوم**»، وكشف كامو عن أنَّ تغيُّراً ضئيلاً قد طَرَأ على ظروف سكَّان الريف منذ رحلته السَّابقة إلى منطقة القبائل: فقد قلَّت كمِّيَّة الطعام لكثرة الأفواه، وانتشرت المُثُل العليا للجمهوريَّة نتيجة للكذبة التي كذبها أصحاب الأقدام

السُّود الأنانيُّون من القرويِّين والإداريِّين الفرنسيِّين الضعفاء. أفراد الشَّعب الذين عانوا من هذه السِّياسات «**ليسوا أقلَّ شأناً من حيث الظروف التي يجب أن يعيشوا فيها**»، ولكن أيضاً أولئك الذين «**قَضوا العامين الماضيين يقاتلون من أجل تحرير فرنسا**». كان واجب فرنسا واضحاً: كان عليها «**إخماد الجوع وشفاء القلوب الملتهبة**».[٣٤]

لقد أصَرَّ كامو على الجودة العالميَّة للكرامة الإنسانيَّة، متمسِّكاً طوال الوقت بخصوصيَّة كلِّ فرد من البشر. كان من واجب كل الجزائريِّين الفرنسيِّين أن «**يفهموا [المسلمين] الجزائريِّين قبل أن يحكموا عليهم**».[٣٥] وأعلَنَ كامو أنَّه سيتعيَّن على فرنسا «**غزوَ الجزائر مَرَّةً ثانية**».[٣٦] وأكَّد تصريح كامو الاستفزازي حقيقة زائفة: إنَّ المُثُل العُليا للجمهوريَّة لا تمتدُّ إلى ما هو أبعد من المُستعمرات الأوروبيَّة في الجزائر. ولكي تظلَّ الجزائر جزءاً من فرنسا، كان على فرنسا أن تستعيدها لا بقوَّة السِّلاح، بل عن طريق التَّطبيق المنهجي والنَّزيه لحقوق وواجبات ومزايا المواطنة. وفي افتتاحيَّة أخيرة، أعلَنَ كامو:

> «إنَّ رغبتنا المَحمومة في السُّلطة والتوسُّع لن تُغتَفَر أبداً ما لم نعوِّض عنها بالاهتمام الراسخ بالسَّعي لتحقيق العدالة وروح التَّضحية بالنَّفس. على الرَّغم من الإجراءات القمعيَّة التي اتَّخذناها للتَّوِّ في شمال أفريقيا، أنا مقتنعٌ تماماً بأنَّ عصر الإمبرياليَّة الغربيَّة قد وَلَّى».[٣٧]

لقـد أدرَكَ كامـو بشـكلٍ أفضـل بكثـير مـن أغلـب معاصريـه أنَّ شعار كومبا، «**من المقاومة إلى الثَّورة**»، لم يكـن مصـدر إلهامٍ للرجـال والنسـاء الذيـن يعيشـون تحـت الاحتـلال النَّـازي فحسـب، بل أيضـاً للرجـال والنسـاء الذيـن يعيشـون تحـت الحكـم الاسـتعماري الفرنـسي. وأعلَـنَ أنَّـه لا يمكـن تحقيـق المهمَّـة الحضاريَّـة الفرنسـيَّة إلا مـن خـلال «**التَّحرير الكامـل لـكلِّ مـا يَخضَـعُ لهـا**». وإذا فشـلت فرنسـا في تحقيـق ذلـك، فلَـن «**تَحصُـدَ إلا الكراهيـة مثـل كل المَهزومـين الذيـن يثبتـون أنهـم غـير قادريـن عـلى تجـاوز النَّصر**». كان تحذيـر كامـو مـن تكـرار التَّجربـة التـي خاضتهـا فرنسـا تحـت الاحتـلال النـازي لافتـاً للنَّظـر: ذلـك أنَّ قِلَّـة مـن أهـل اليسـار، ناهيـك عـن أهـل اليمـين، صاغـوا الإجـراءات الفرنسـيَّة بمثـل هـذا السِّـياق. غـير أنَّ الأمـر اللافـت هـو دعوتـه إلى تحقيـق العَدالـة عـلى الرَّغـم مـن الدِّمـاء التـي أُريقَـت للتَّـوِّ:

> «لقـد فَقَـدَ فرنسـيُّون تُعَسـاء وأبريـاء أرواحهـم، وهـذه في حدِّ ذاتهـا جريمـة لا تُغتَفَـر. لكنَّنـي آمُـلُ ألا نَـرُدَّ عـلى القتـل سـوى بالعَدالـة، حتَّـى لا نتسـبَّب بـأضرار لا يمكـن إصلاحهـا». [٣٨]

*****

كان أمـل كامـو قـد وُلِدَ ميِّتـاً. في عام ١٩٥٥، مع تزايد سَـفك الدماء في الجزائـر، سـافر كامـو إلى أثينـا لإلقاء محاضرة عن مسـتقبل المأسـاة. في حـين كان يـرى مسرحيَّـة «**بروميثيـوس مُجَنـدَلاً**» ذات يـوم كتعبـيرٍ عـن إلـهٍ مُعَـذَّب، فقـد أضفـى الآن معنـىً أعمـق للمأسـاة. وقـال لجمهـوره: «**تلـك القـوى التـي تواجـه بعضهـا بعضًـا داخـل مأسـاة لهـا القَدر نفسـه**

من الشرعية، ولها ما يبرِّرها على حَدٍّ سواء، فبروميثيوس عادِلٌ ظالِمٌ في آنٍ معاً، وزيوس الذي يضطهده بلا رحمة لديه الحَقُّ أيضاً». وبالتالي يمكن تلخيص الميلودراما بالقول: «جانبٌ واحدٌ فقط عادلٌ ومُبَرَّر»، في حين أنَّ الصِّيغة المأساويَّة الكاملة هي: «كل شيء يمكن تبريره، ولا أحد عادل». ولهذا السَّبب تنادي الجوقة في المآسي الكلاسيكية عموماً بالتزام الحذر. لأنَّ الجوقة تعرف أنَّ الجميع على حقٍّ إلى حَدٍّ معيَّن، وأنَّ الشخص الذي يتخطَّى هذا الحَدَّ، بسبب العَمى أو الشَّغف، يتَّجه نحو كارثة إذا أصَرَّ على رغبته في تأكيد حَقٍّ يعتقد أنَّه يمتلكه وحده.[٣٩]

ومن وجهة نظر الإله المقيَّد على صخرته ـ وهو شخصيَّة بطوليَّة وعبثيَّة ـ يتراجع كامو الآن. ولو كان قد اكتفى بتصوير بروميثيوس على أنَّه الطَّرف المبرَّر الوحيد، لكان إسخيلوس قد كتب دراما بسيطة غير مبالية بالمخاطر الهائلة التي ينطوي عليها الأمر. ولكنَّ بروميثيوس كان مُصيباً ومُخطِئاً على نحوٍ مأساوي: فهو مُحِقٌّ حين وَهَبَ النَّار للإنسان، لكنَّ الفعل نفسه يشكِّل انتهاكاً لنظامٍ كونيٍّ أو توازنٍ معيَّن يُشرف عليه زيوس. لقد أدرك كامو أنَّ الشَّاغل الرَّئيس للمأساة الكلاسيكية هو أنَّ الحَدَّ «لا يجب تجاوزه. وعلى جانبَي هذا الحَدِّ تتساوى قوى مشروعة بالقدر نفسه في مواجهة مرتعشة ولا نهاية لها. إنَّ ارتكاب خطأ تجاه هذا الحَدِّ، ومحاولة الإخلال بالتَّوازن، هو بحَدِّ ذاته هَلاك».[٤٠]

وعلى غرار أثينا في مسرحيَّة إسخيلوس، التي تحثُّ في نهاية ثلاثيَّة «أوريستيا» ربَّات الغضب على التخلِّي عن رغبتهنَّ في

الانتقـام، وتجنُّـبِ أيِّ عمـلٍ مـن شـأنه أن **«يُرسـل إشـارة عـلى غـارة وحشـيَّة»**، طلـب كامـو مـن جميـع البـشر أن يتبنَّـوا العدالـة، وكـما ناشـدت أثينـا، **«تبجيـل الوسـط»**. وفي الوقـت نفسـه، تنمـو روايتـه عـن بروميثيـوس أيضـاً، وتمتـدُّ الآن لاحتـواء مـا هـو أكثـر مـن معانـاة مانـح النـار؛ هنـاك أيضـاً حَـقُّ زيـوس في فـرض تلـك المعانـاة.

تعكـس إعـادة صياغـة الأسـطورة البروميثيـة فَهـمَ كامـو المأسـاوي لحالـة الجزائـر التي مزَّقهـا الـصِّراع. كان لكلا الطَّرفـين الفرنسي والعربي مطالـبُ مُلِحَّـةٌ عـلى الأرض عـلى قـدم المسـاواة، وقـد انتهـك كلٌّ منهـما التوقعـات العادلـة للطـرف الآخـر، وتواجـه كلا الطرفـين مـع الآخـر عـلى مرحلـة يمكـن معهـا تبريـر كلِّ شيء، ولا أحـد عـادل. مـع تصاعـد حـدَّة المجـازر والفـوضى في الجزائـر، عمـل كامـو عـلى إقنـاع الجانبـين بالاتفـاق عـلى هدنـة مدنيـة. فقـد طالـب في **«ندائه من أجل هدنـة مدنيَّة»** الـذي أعلنـه في كانـون الثاني/ يناير ١٩٥٦، بعد بضعة أشـهر من رحلته إلى اليونـان، كِلا الجانبـين بإدانـة العنـف الـذي يسـتهدف جميـع المدنيِّين. وحَـثَّ زمـلاءه من أصحاب الأقدام السـود عـلى **«إدراك ما هو عادل في قضيَّـة خصمـك، وكذلـك إدراك مـا ليس عـادلاً في تدابيرهـم القمعيَّة»**. وطالَـبَ جبهـة التَّحريـر الوطنـي (FLN)، بالأمـر نفسـه: **«اسـتنكار إزهـاق أرواح الأبريـاء»**. وقبـل أن يـزداد الوضـع مأسـاويةً، كان عـلى الجانبـين أن يوافقـا عـلى تجنيـب المدنيـين جميـع أشـكال العنـف. **«يجـب علينـا جميعـاً المطالبـة بهدنة «هدنة تسـمح لنـا بالتَّوصُّل إلى حلـول، هدنة تمنـع قتـل المدنيين مـن قبـل كلا الجانبـين»**.[٤١]

*****

الهدنة هي التَّعبير القانوني للوسط، كما اقترح فيليب فاني مؤخَّراً، على الأقل في أوقات الحرب.[٤٢] وربَّما لم تكن الجزائر الفرنسية، حتماً، أكثر قدرةً على العمل بناءً على هذه النَّصيحة ممَّا كانت عليه أثينا القديمة. وربما انسحب كامو في النهاية من السَّاحة العامَّة، رافضاً الحديث مرَّةً أخرى عن ما سمَّاه «**مأساته الشخصيَّة**».[٤٣] وفي عام ١٩٦٠، عندما توفِّي كامو في حادث سيارة في جنوب فرنسا، أصبح صمته فجأةً موقفه العلني الأخير من الجزائر. إنَّه صمتٌ يتردَّد فيه صدى مصير الاعتدال السِّياسي والفلسفي.

من المعروف أنَّ الاعتدال، بوصفه قيمة سياسيَّة أو مفهوماً فلسفيًّا، بعيد المنال. هل هو، في الواقع، نظريَّة متكاملة أم نظرة للعالَم؟ أم إنَّه، بدلاً من ذلك، أكثر بقليل من مجرَّد كونه سِمَة شخصيَّة؟ وهل هناك، فضلاً عن ذلك، شيءٌ مشكوكٌ فيه بشأن الرَّغبة الشَّديدة في الاعتدال؟ ففي نهاية المطاف، ليس من الضروري دوماً أن يكون أحد الطرفين النقيضين الذي يحدِّد الوسط أن يكون خاطئاً. أو، في هذا الصَّدَد، فإنَّ الوسط ليس دائماً هو الغاية المَنشودة. وفي النِّهاية، هل هو أكثر من مجرَّد ميلٍ الى تجنُّب التَّطرُّف، سواء كان أحد هذين النقيضين مرغوباً أم لا؟

في عملٍ حديثٍ، يصرُّ المُنظِّر السِّياسي أوريليان كرايوتو على أنَّ الاعتدال نظريَّة إيجابيَّة، تقوم على القيم الجوهريَّة للتَّعدُّدية، والتَّدرُّج، والتَّسامح. يقترح كرايوتو أنَّ المُعتدل المتوسِّط هو مُفكِّر يعتنق «**القابليَّة للتخطيء كطريقة وسطى بين الشكوكيَّة الراديكاليَّة والاستبداد المعرفي، ويعترف بحدود العمل السياسي**

وعيـوب الحالـة الإنسـانيَّة».[٤٤]

ومعظـم النقاشـات حـول الاعتـدال الأخلاقـي أو التوسُّـط الفلسـفي تجـد مصدرهـا في أرسـطو، ولا سـيما كتـاب «**الأخـلاق النقوماخيَّـة**». يـرى المفكِّـر اليونـاني أنَّ «**الإفـراط والقلَّـة مـن سـمات الرَّذيلـة**» في حـين أنَّ «**الاعتـدال هـو الفضيلـة**». ومـع ذلـك، فـإنَّ التوسُّـط ليـس مثـالاً نظريًّـا أو مجرَّداً، إنَّما حالـة يتـمُّ الوصـول إليهـا من خـلال الممارسـة والخبرة. بالنِّسـبة لأرسـطو، لا يوجـد علم بالوسـط أو الاعتـدال؛ بـدلاً مـن ذلـك، هنـاك فقـط سلسـلة لا تنتهـي مـن الجهـود للوصـول إلى هـذه الحالـة. ومـن المُحَتَّـم أنَّ الشَّـخص الـذي يسـعى إلى الوسـط يرتكـب خطـأً في بعـض الأحيـان بالإفـراط أو الحَـذَر. وهـذا أمـرٌ طبيعـيٌ، كـما يؤكِّـد أرسـطو، لأنَّـه سـيكون «**مـن السَّـهل علينـا بلـوغ حالـة التوسُّـط ومـا هـو صـواب**».[٤٥]

من الجدير بالملاحظة أنَّ شـخصاً ادَّعى أنَّه تأثَّر كثيراً بالفكر اليوناني القديـم، لَم يَستشـهِد قط بموضـوع أرسـطو الكلاسـيكي حـول موضـوع الاعتـدال. لكـنَّ الأمـر ليـس مفاجئـاً، فقـد أصَرَّ كامـو مـراراً وتكـراراً عـلى أنَّـه ليس فيلسـوفاً.[٤٦] عـلى أقلِّ تقديـر، كان من المؤكَّد أنَّـه لم يَكُن قارئـاً منهجيًّـا للفلسـفة القديمـة. وكـما يقـول بولـس أركامبولـت محقًّـا: «**لا شـيء يشـير عـلى مـا يبـدو إلى أنَّ كامـو لم يكـن يمتلـك سـوى معرفـة عابـرة بالفكـر اليونـاني بين وفـاة أفلاطـون والعصر المسـيحي**».[٤٧]

بدلاً من ذلك، ركَّزَ كامو على إسـخيلوس وسـوفوكليس. (ربَّما تأثَّر كامـو بقراءتـه لكتـاب «مولد المأسـاة» لنيتشـه، وكان لديـه رأي ضعيف

عن يوريبيديس، ورفض نَهجه «العقلاني» للدِّراما الإنسانيَّة). بطبيعة الحال، لا تقدِّم مسرحيَّات **أوريستيا** أو **أوديب** «فلسفة» متماسكة أو مقنعة تماماً. وفي هذا الصَّدَد، لم يكن التِّراجيديُّون اليونانيُّون «فلاسفة» أكثر من كامو. لكنَّ أعمالهم مع ذلك كانت فلسفيَّة بمعنى مختلف للكلمة: أعمال فنيَّة تستكشف الحالة الإنسانيَّة بدرجة من الاختلاف الدقيق والثَّراء لا تستطيع النُّظُم الفلسفيَّة التقليديَّة استكشافها. وكما جادلت مارثا نوسباوم، عندما نقرأ فلاسفة من أمثال أفلاطون أو كانط، فإنَّ «**ردَّنا الطَّبيعي هو أنَّ هذا ليس ما نشعُرُ به في ذلك الموقف. لا يبدو الأمر وكأنَّه حلٌّ لغز، حيث كل ما نحتاج إليه هو إيجاد الإجابة الصَّحيحة**».[٤٨]

ومنذ أفلاطون، كان أحد التَّقاليد المهمَّة في الفلسفة الأخلاقيَّة يستند إلى الاقتناع بأنَّ الفهم السَّليم للخير يُملي علينا ما يتعيَّن علينا أن نفعله في موقفٍ بعينه. بعبارةٍ أخرى، هناك خيارٌ واحدٌ فقط؛ خيارٌ واحدٌ صحيحٌ لنقوم به. تكشف المأساة اليونانيَّة عن الفَقر العاطفي لمثل هذه الحجج. كما يذكِّرنا بأنَّ استجابتنا الغريزيَّة لبعض المعضلات الأخلاقيَّة «**ترتبط بعناصر قَيِّمَة أخرى من الحياة الأخلاقيَّة الإنسانيَّة، وأنَّنا قد نخاطر بالتخلِّي عن شيء ذي أهميَّةٍ حقيقية**». إذا كنَّا سنتبنَّى نهجاً أفلاطونيًّا أو كانطيًّا على سبيل المثال.[٤٩] لا إسخيلوس ولا سوفوكليس، كما تؤكِّد نوسباوم، يقدِّمان حَلًّا لمعضلات أخلاقيَّة معيَّنة وذلك لسببٍ بسيطٍ هو أنَّها لا وجود لها. فهما يصوِّران المشكلة بتعقيداتها المرعبة كافة ــ مشكلة تصوِّر تصادم حقائق غير قابلة للقِيَاس. أمَّا البطل

التَّراجيدي، فكلُّ ما يمكننا فعله هو السَّماح له «**بأن تكون لديه معاناته الخاصَّة، والتعبير الطَّبيعي عن صلاح شخصيَّته، وعدم خنق هذه الرُّدود بدافع التفاؤل المُضَلِّل**». وكل ما يمكن للجوقة فعله أو، في الواقع، كلُّ ما يمكننا فعله هو «**احترام خطورة محنَتِه أو مأزقِهِ، واحترام الاستجابات التي تعبِّر عن صلاحه، والتَّفكير في حالته كإظهارٍ لإمكانيَّة الحياة البشريَّة بشكلٍ عام**».[٥٠]

ترتبط كلمات نوسباوم بشكلٍ مباشر مع علاقات كامو بالتراجيديا اليونانيَّة القديمة والجزائريَّة الحديثة. بالنِّسبة لكامو، يتحدَّث الشُّعراء المأساويُّون عن وضعنا الحالي بإلحاحٍ وتفهُّمٍ لا مثيل لهما. في تصويرهم للصِّراعات التي يمتلك فيها كل طرف مطالب أخلاقيَّة متساوية، ولكن دون أن يكون لدى أيٍّ من الطَّرفين الإرادة أو الرَّغبة في الاعتراف بإنسانيَّة خصمه، ناهيك عن القدرة على الحفاظ على مقِيَاسهم أو شعورهم بالتناسب، يتنبَّأ كلٌّ من إسخيلوس وسوفوكليس بالمأساة التي اكتَسَحَت جزائر كامو. ولعلَّ البروفة الأكثر تناقضاً وترويعاً لحرب الاستقلال الجزائريَّة، والتي لم يناقشها كامو باستفاضة قط، هي مسرحيَّة «السبعة ضدَّ طيبة»، والتي تروي النِّزاع المروِّع من أجل عرش طيبة بين الأخوين أتيوكليس وبولينيسيس. كِلا الرَّجلين لديه الحَقُّ نفسه في المطالبة بحكم المدينة؛ كلُّ واحدٍ من الرَّجلين يعمى عن عدالة طلب أخيه. يتبارز الشقيقان خارج بوَّابة المدينة. يقتل كلُّ واحدٍ منهما الآخر، ويسقطان صريعين وجسداهما متشابكان. ومع ذلك، وبدلاً من أن تتَّحد المدينة بعد هذه المأساة، فإنَّها تمضي

أبعد في النِّزاع: مع اقتراب نهاية المسرحيَّة، تنقسم الجوقة، حيث يتبع نصفها «إسمين» وجثَّة إيتيوكليس، ويتبع النِّصف الآخر «أنتيجوني» وجثَّة «بولينيسيس. وكما تصرخ أنتيجوني: «**لا يزال آخر الآلهة، الغضب، زارعُ الشِّقاق، له الكلمة الأخيرة**».[٥١]

ألفيَّتان ونصف ألفيَّة تفصل بين طيبة إسخيلوس وجزائر كامو، ومع ذلك فهما قريبتان بشكل مخيف. وكما أدرَكَ كامو فإنَّ المأساة وحدها يمكن أن تعكس المأزق الذي تعيشه الجزائر الفرنسيَّة، فَضلاً عن المأزق الذي يعيشه هو ذاته. وعلى غرار الجوقة اليونانيَّة، مزَّقه الصِّراع إلى نصفين. كان يعلم أنَّ مطالب كلِّ جانبٍ في الجزائر كانت عادلة، مثل تلك التي كانت في طيبة القديمة. وتكمن المشكلة بطبيعة الحال في أنَّ الممثِّلين في ذلك الوقت وفي زمن كامو ذاته كانوا عاجزين عن رؤية أيِّ جانبٍ أو حَقٍّ غير جانبهم. ينسى إيتيوكليس، على سبيل المثال، أنَّ شقيقه لديه الحق نفسه في المطالبة بالعَرش. ولم يَكُن إرهابيو منظَّمة الجيش السِّرِّي (OAS)، مثلهم مثل إرهابيي جبهة التَّحرير الوطني، أقلَّ عَماءً وتَعَطُّشاً للدماء. ومثله كمثل أجاممنون، الذي حول ابنته إيفيخينيا في ثلاثية إخيلوس «أوريستيا» إلى حيوان قُرباني من أجل متابعة غزوه لطروادة، لَم يَكتفِ كِلا الجانبين في المأساة الجزائريَّة بشَقِّ حناجر الطَّرف الآخر، بل حناجر الأبرياء في معسكراتهما أيضاً.

في تشريحه الكئيب لحرب الاستقلال الجزائريَّة، كتب فرحات عبَّاس، زعيم القوميِّين الجزائريِّين المعتدلين: «**كنَّا ضحايا**

لأسطورة. وفي المقابل، وقع سكّان الأقدام السود ضحايا لارتباكٍ طويل الأمد. لقد قيل لهم لأكثر من قرنٍ إنَّ الجزائر، وهي مقاطعة فرنسية، كانت مجرَّد امتدادٍ لفرنسا المَدَنيَّة. لقد صدَّقوا الكذبة. وعندما دقَّت ساعة الحقيقة بالنسبة لهم شعروا بالخيانة، كما شعرنا نحن تماماً. وهكذا حاربوا بمرارة لجعل هذا الخيال الشاذ حقيقة».
[٥١] إنَّ ملاحظة عبَّاس المريرة والمُبَرَّرة لأسطورة الجزائر الفرنسيَّة تُنبئنا بالكثير. لقد ثَبُتَ أنَّ الوعد بالمساواة السياسيَّة والمدنيَّة المقدَّم للعرب والأمازيغ الجزائريين مجرَّد أسطورة مثل التصوُّر الفرنسي بأنَّ الجزائر كانت جزءاً لا يتجزَّأ من فرنسا. ومن المؤكَّد أنَّ الخيال كان «شاذًّا» عندما أعلنه المُدافعون عن الوضع القائم، ناهيك عن أنصار منظَّمة الدول الأميركيَّة، في الجزائر الفرنسيَّة.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ تقييم عبَّاس لا يفسح المجال للموقف الأكثر تعقيداً الذي يتبنَّاه أفراد مثل كامو، وهو رجلٌ من أصحاب الأقدام السّود ظَلَّ مُعجباً به لفترة طويلة. وفي حين أنَّ كامو قد شبَّه الجزائر بالأساطير، واصفاً إيَّاها في سياق التُّراث الإغريقي، فإنَّه لم يخضع لها أو يخضع لـ«الغموض» الإيديولوجي أو السِّياسي. لم ينخدع كامو بالتَّفاوتات البائسة التي أدَّت إلى عدم المساواة على أرض وطنه ـ تلك التفاوتات التي لم يَنِ قطُّ من التنديد بها وشجبها. ومع ذلك، بحلول نهاية حياته، أدرك كامو أنَّ تحذيراته، مثل تحذيرات كاساندرا، لاقَت آذاناً صَمَّاء. والواقع أنَّ موقفه من الجزائر قد عاد إلى عالم المأساة الإسخيلية. تماماً مثل الثلاثيَّة القديمة، توقَّف التاريخ بالنِّسبة لكامو أخيراً عند «بروميثيوس مُجَنَدَلاً»: لم يستَطِع تجاوز المسرحيَّة الأولى.

وانتَهَت مع صرخة پروميثيوس بأنَّه كان أتعَسَ الآلهة، الأمر الذي رَدَّدَ صدى صرخة كلٍّ من الجزائريين الفرنسيِّين والعَرَب في فترة الخمسينيات. انعَكَسَ تأويل كامو اللَّاحق للمسرحية -في جوهرها، نداء من أجل فرض حدود- في دعوته لهدنة مدنيَّة، لكنَّه فشل في العثور على جمهور يُصغي إليه. وربما كان مَرَدُّهُ ليس لأنَّ كامو كان مثاليًّا أكثر ممَّا ينبغي في سعيه هذا، بل لأنَّه كان سابقاً لأوانه: فبالكاد كتبت فرنسا والجزائر أوَّل مسرحيَّة لمأساتهما في البحر الأبيض المتوسِّط. كانت سنوات عدَّة أخرى ضرورية لكتابة المسرحيتين اللاحقتين.

لقد أصر كامو على أنَّ الإغريق ليسوا شعباً انتقاميًّا أبداً: «**إنَّ اليونان لا يُكَدِّرون شيئاً. وفي أقصى ما يبلغون من جرأة، يظلُّون وفيِّين لهذا الاعتدال الذي سَمَوا به إلى مرتبة التَّأليه**»[٥٢]. ولكنَّهم لم يكونوا أقلَّ إخلاصاً لفكرة المواقف المأساوية: تلك اللحظات في الحياة والفن العصيَّة على الحلِّ. وكما تؤكِّد نوسباوم، تعلمنا المأساة:

> «أنَّ هناك نوعًا من المعرفة يعمل من خلال المعاناة، لأنَّ المعاناة هي الإقرار المناسب بالطَّريقة التي تسير بها حياة الإنسان، في هذه الحالات».[٥٣]

ويذكِّرنا كامو في خِضَمِّ جهوده لفهم المأزق الفرنسي الجزائري ضمن إطار الأعمال المأساوية اليونانيَّة بأنَّه- كما تُنشِدُ الجوقة في أوريستيا: «من المعاناة تأتي المعرفة».

الفصل الرابع
الإخْلاص

يستيقظ رجلٌ قبل الفجر ويرتدي ملابسه بهدوء حتى لا يزعج زوجته، ويذهب إلى المدينة لمشاهدة رجل يُعدَم. لم يكن الافتتان أو التعطُّش للدِّماء من الأسباب التي دَفَعَت الرَّجل لحضور عمليَّة الإعدام العلنيَّة، بل كان هناك شعورٌ بالعدالة الغاضبة: فقد قام المجرم، في نوبة من الجنون، بقتل عائلة كاملة في مزرعتهم -الأب والأم وأطفالهما. وعندما عاد الزَّوج إلى البيت بعد الاعدام، هرع متجاوزاً زوجته، وتقيَّأ في الحمام، ثمَّ انهار في السرير. وحتى نهاية حياته، رفض أن يتحدَّث عن ما رآه في ذلك اليوم.

سيتعرَّف معظم قرَّاء كامو إلى هذه القصة بأنَّها عن والده، لوسيان كامو. وتظهر بشكلٍ واضحٍ في روايتيه الأولى والأخيرة، «**الغريب**» و«**الرَّجل الأوَّل**»، وكذلك في

مقالته الطويلة «المقصلة»، وتطفو على سطح الطاعون في أجزاء وقطع. في الواقع، إنَّ هذه القصَّة -وهي واحدة من أمَّهات كامو القلائل اللواتي استطعنَ الحديث عن أزواجهنَّ- تسكن جميع كتابات كامو تقريباً.

وفي رواية **«الرَّجل الأوَّل»**، يسمع البطل جاك كورميري، الذي يبحث عن أخبار والده الميِّت الذي لم يَعرفه قَطُّ، قصَّة مماثلة يرويها مدير مدرسته، السَّيد ليفيسك. قبل سنوات عدة، خَدَمَ ليفيسك وكورميري بير معاً كجنديَّين فرنسيَّين في المغرب. كانا مُتَمَركزين في جبال الأطلس، وأُمِرا بإراحة رفاقهما من نوبتهم في موقعٍ متقدِّم. وعندما وصلا إلى الموقع، وجدا أنَّ المتمرِّدين قد ذَبَحوا رفاقهم، وحَشوا أعضاءهم التّناسليَّة في أفواههم.

وبمجرَّد عودتهما إلى المخيَّم، انفجر كورميري فجأةً: **«لا يمكن أن يسمح الإنسان لنفسه بفعل هذا النوع من الأشياء! هذا ما يجعل المَرء إنساناً، أو خلاف ذلك... أنا فقير، جئت من دارٍ للأيتام، وضعوني في هذا الزِّيِّ العسكري، وجرُّوني إلى الحرب، لكنَّني لم أكُن لأسمح لنفسي بفعل ذلك»**. وعندما ذكَّر ليفيسك رفيقه بأنَّ الفرنسيِّين ارتكبوا جرائم لا تقلُّ شناعَةً، رَدَّ كورميري قائلاً: **«إنَّهم أيضاً ليسوا بشراً»**. ثم صَرخ: **«جنسٌ قذرٌ! يا لَهُ من جنس! كلُّهم، كلُّهم...»** وكما لجأ لوسيان كامو إلى غرفة نومه عند عودته إلى المنزل من طقس الإعدام العَلَني، دخل كورميري **«أبيض كالورق إلى خيمته»**.[1]

وأمَّا «**الرُّعب الذي أصاب والده**» فقد تَرَكه لابنه باعتباره «**إرثَهُ الوحيد الواضح والأكيد**».[٢] في الواقع، كان الرُّعب ثمرةَ اقتناعٍ عميق الجذور ككَرمة العنب التي اعتبرها لوسيان كامو مَلِكَ الكروم. إنَّ ولاء كامو للأخلاق العميقة التي عَبَّر عنها والده -القناعة البدهيَّة بأنَّ البشريَّة، إذا كانت ترغب في الحفاظ على هذه المكانة، يجب أن تخضع لبعض القيود على حرِّيتها، مع الاعتراف المستمرِّ بإنسانيَّة إخوانهم من الرِّجال والنِّساء- حَمَله على كاهله طوال حياته. لقد كانت أخلاقاً قائمة على الإخلاص لواجباتنا الأساسيَّة والإخلاص لعالمنا. بالنِّسبة لكامو، كان هذا الإخلاص نفسه الذي كَشَفَ عنه والده عند رؤية الأوصال المقطَّعة بشكل طقسي للجنود الفرنسيِّين من قِبَل الإرهابيِّين، وفي سجن فرنسي إلى فعل شعائري مماثل «**لجسد مرتجف على لوح ليُقطَعَ رأسه**».[٣]

*****

يقول الفيلسوف أندريه كومت-سبونفيل إنَّ الإخلاص ليس مجرَّد فضيلة من بين فضائل أخرى؛ بل بالأحرى الفضيلة الوحيدة التي تجعل الفضائل الأخرى ممكنَة.[٤] فمثلاً، هل سيكون العدل ذا قيمة إذا كان العالم يخلو من الأفراد المخلصين لهذه الفضيلة والملتزمين بها؟ أو ما القيمة التي يمكن أن نجدها في السَّلام بدون وجود صانعي السَّلام المُلتزمين والمُخلصين لذلك المَثَل الأعلى؟ أوَ لَم يكُن ليَذوي الحقُّ لو لم يكن هنالك أفرادٌ يصرُّونَ على قول الحق أمام السُّلطة؟

ولكن يجب أن نتوخَّى الحذر: فقيمة الإخلاص لا يمكن وزنها إلا من خلال وزن الشَّيء الذي يتَّجه نحوه أوَّلاً. وكما يستنتج فلاديمير يانكليفيتش، «**إنَّ الإخلاص للغباء مجرَّد غباءٍ آخَر**».[٥] إنَّ إخلاص المَرء لحزبه السِّياسي على حساب وَلائِهِ لبشريَّته ليس إخلاصاً، بل خيانة في أغلب الأحيان. يقودنا عهد الولاء الذي وقَّعه البيروقراطيُّون الفرنسيُّون للمارشال بيتان من عالم الفضيلة إلى عالم الشَّرِّ. ويتَّضح ذلك أكثر مع تعهُّد قوَّات «إس إس» بالولاء لهتلر. وفي مقابلة، يستشهد كامو بهذا المثال عندما يقول «**الإخلاص ليس، في حَدِّ ذاته، فضيلة**».[٦]

وعلى المنوال نفسه، فإنَّ الإخلاص للعدميَّة لا يستحقُّ التَّسمية. في دوَّامة الحرب العالميَّة التي حرَّضتها العدميَّة الإيديولوجيَّة التي تجسِّدها ألمانيا النَّازيَّة، وإيطاليا الفاشيَّة، وروسيا الشِّيوعيَّة، كتب كامو سلسلة من أربع «**رسائل**» إلى صديق ألماني وهمي. نُشِرَت في مجلات المقاومة خلال العامين الأخيرين من الحرب، «**رسائل إلى صديق ألماني**» تستكشف الرَّدَّين البدائيَّين والمتعارضين لعالمٍ بلا معنى. وكما أعلن كامو في رسالته الأولى:

> «نحن نناضل من أجل الفرق بين التَّضحية والتَّصوُّف، بين القدرة والعنف، بين القوَّة والقسوة، من أجل فرقٍ أبسط بين الحَقِّ والباطل».[٧]

يبدأ الإخلاص بإدراك حقيقة مفادها أنَّ هذا الفرق ليس ذا مغزى فحسب، بل إنَّه يبدأ أيضاً بإدراك حقيقة مفادها أنَّ القوَّة

والتَّضحيَّة والقدرة يجب أن تخدم متطلّبات أكثر الحقائق جوهريَّة: ألا وهي أنَّ الغضب الذي يولِّده كونٌ بلا معنى يدفع البشريَّة جمعاء إلى النِّضال ضدَّه. وهنا تمَّ تحديد الفرق بين كامو وصديقه الألماني: «**لقد قبلتم أنتم اليأس قليلاً، أمَّا أنا فَلَن أوافق عليه مطلقاً. كنتم توافقون على الظلم المُحيق بنا ثمَّ توطِّنون النَّفس على أن تزيدوا فيه، بينما كان يبدو لي على العكس أنَّه يجب على الإنسان أن يؤكِّد العدالة ويكافح ضدَّ الظلم الأبدي، أن يَخْلُقَ السعادة حتى يعترض على عالم الشَّقاء**». في حين أنَّ الألماني، مقتنعاً بأنَّه لا يوجد بديل، ذهب إلى اعتناق العدميَّة، أمَّا كامو فرفض قبول هذا اليأس: «أردتُ فقط أن يعود البشر إلى تعاونهم كي يكافحوا ضدَّ قدرهم المثير».[٨]

كان هذا القَدَر المثير للاشمئزاز، في معظم الأحيان، من صنع البشر تحت تأثير العدميَّة. في الأشهر التي سبقت إنزال الحلفاء، شنَّت القوَّات الألمانيَّة حربًا على السكان المدنيِّين في فرنسا، بتحريضٍ من وحدات الميليشيات شبه العسكريَّة الفرنسيَّة la milice التي شاركت في عمليات القمع الدموي «**لمدَّة ثلاث ساعات أطلقوا النار على الفرنسيِّين**»، ويوثِّق كامو مقتل ستةٍ وثمانين رجلاً في مدينة أسك. ويروي باختصارٍ شديدٍ ما ارتكبه الألمان من ممارسات شنعاء، منذ اللحظة التي «**أطلقوا فيها النار على ثلاثة موظَّفين راكعين [في محطَّة القطار]**» إلى ستين رجلاً «**جمعوهم في مرعى**» وأطلقوا النار عليهم. ثم ينتقل كامو مخاطباً القارئ: «**ستة وثمانون رجلاً مثلكم، قرَّاء هذه الصحيفة، مرُّوا من**

أمام البنادق الألمانيَّة. ستةٌ وثمانون رجلاً: ما يكفي لملء ثلاث أو أربع غرف بحجم الغرفة التي تجلس فيها. ستةٌ وثمانون وجهاً، متوسِّلاً أو متحدِّياً، وستة وثمانون وجهاً طغى عليهم الرُّعب أو الكراهية». وعندما يتأمَّل كامو في المذبحة التي لم تنقطع، يقدِّم له إطاراً يوميًّا آخر: **«ثلاث ساعات، هي الوقت الذي سيقضيه معظمكم ذلك اليوم على العشاء، أو يتكلَّم بهدوء مع أصدقائه، في حين يشاهد أشخاصٌ في مكان آخر فيلماً ويضحكون على مغامرات مُختَلَقَة. لمدَّة ثلاث ساعات، دقيقة بعد دقيقة، ودون توقُّف، دون استراحة، أُطلقت النيران واحدة تلو الأخرى في قرية فرنسيَّة وتساقطت الجثث على الأرض».**[٩]

أو مقدار الوقت الذي استغرقه قراءة هذا الكتاب حتى الآن. لا شكَّ أنَّ الهدف المباشر لهذا المقال، بالطبع، هو تحقيق العدالة: جَمعُ الأدلَّة لاستخدامها ضدَّ الألمان وأتباعهم من الفرنسيِّين بمجرَّد تحرير فرنسا. ولكن على نطاق أوسع، فإنَّ تمرين كام في فينومينولوجيا الشَّر يتلخَّص في «**عدم نسيان أي شيء**».[١٠] وفي نهاية اليوم -وبنهاية حياتنا- يجب أن نكون مُخلصين، بقدر ما هو ممكنٌ إنسانيًّا، لماضينا، كما عاشه وفهمه لمعاصريه، وليس للأكاذيب التي ولَّدتها الحكومات أو الصُّور التي قدَّمتها الصَّحافة. يجب أن نتجنَّب الرسوم الكاريكاتوريَّة، والنسخ المُغرِقة في الماضي؛ إنَّ الإخلاص، في الحقيقة،، يكتب يانكليفيتش، «**فضيلة الذاكرة، والذاكرة نفسها فضيلة**». لا يمكن للماضي، على عكس الحاضر أو المستقبل، أن يدافع عن نفسه: «**فنحن وحدنا القادرون على حمايته**

مـن النِّسـيان أو التزييـف -الـذي يرقـى إلى مسـتوى النِّسـيان نفسـه تقريبـاً». [١١]

وفي رسـالته الرابعـة والأخـيرة، يقـول كامـو لصديقـه الألمـاني إنَّـه سـيقاومه ويهزمـه، لكنَّـه يرفـض أن يَكرهـه: «**عـلى الرغـم مما أوقِـعَ بأبنائنـا مـن تعذيـب، عـلى الرغـم مـن موتانـا المشـوَّهين وقُرانـا المَلأى بالأيتـام سـنحطِّمكم بـلا شـفقة، ولكنَّـا لا نحقـد عليكـم**». [١٢] وفي حـين أنَّ هـذا القـول قـد يبـدو لنـا مجـرَّد تظاهُـر، إلا أنَّـه جـزءٌ مـن أخلاقيَّـات الإخـلاص. فالحقـد، في نهايـة المطـاف، هـو إخـلاصٌ لمشـاعر لا تسـتحقُّ التَّقدير: الكراهيَّـة أو الغضـب. عـلى هـذا النحـو، لا مـكان لهـا في الأخلاقيَّـات التـي تـصرُّ عـلى أنَّ الغايـات لا يمكـن أبـداً أن تـبرِّر الوسـائل -ولا يقـل أهميَّـة، أنَّ الوسـائل تكـون في بعـض الأحيـان مُـبَرَّرة مـن خـلال غاياتهـا فقـط. بعـد سـنوات عـدَّة، في مقابلـة، رَدَّد كامـو إصرار يانكليفيتـش عـلى أن مـا يجـب أن نسـعى إليـه «**ليـس أيَّ نـوعٍ وجميـع أنـواع الإخـلاص، بـل الإخـلاص الخـيِّر والشـامل**». [١٣] وعندمـا سـئل عـمَّا إذا كان الإخـلاص يمكـن أن يـبرِّر الحيـاة، أجـاب كامـو أنَّـه يمكنـه -ويجـب- أن يفعـل ذلـك، إذا كان الإخـلاص يخـدم الحيـاة والسَّـعادة، وليـس المـوت والعبوديَّـة. وممَّـا لا شَـكَّ فيـه أنَّ أحـد الأسـئلة الأخـيرة التـي يمكـن أن يطرحهـا الإنسـان عـن قيمـة حياتـه هـو: هـل كنـت أمينـاً ومُخلصـاً؟. ولكـن هـذا السُّـؤال لَـن يعنـي شـيئاً إذا لم يكـن يعنـي في المقـام الأوَّل «**ألَمْ أفعَـل شـيئاً يحـطُّ مـن قَـدرِ حيـاتي أو حيـاة أي إنسـانٍ آخـر؟**». [١٤]

*****

وبحلول نهاية عام ١٩٤١، عندما كان لا يزال في وهران، يعيش مع زوجته فرانسين في شقَّة يملكها والداها، أشار كامو في مذكِّراته إلى أنَّ الأعمال الفنيَّة العظيمة غالباً ما تُصنَعُ في أوقات الاضطرابات التَّاريخيَّة العظمى. ويستشهد كأمثلة بشكسبير وميلتون ورابليه ومونتين.[١٥] ولقد رافق صاحب المَقال كامو معظم حياته. كمحرِّر في صحيفة «جزائر الجمهوريَّة»، ولعب كامو دور القطِّ والفأر مع الرِّقابة الفرنسيَّة، حيث قام بإدراج مقاطع من المقالات دون عَزوها، والتي ستقوم السُّلطات بإزالتها على الفور، بسبب أنَّها تشكِّل خطراً على الرُّوح المعنويَّة العامَّة. وفي أوائل عام ١٩٤٧، عندما ذهب كامو لجبال الألب ليريح رئتيه المريضتين، كانت المقالات جزءا من نظامه اليومي.[١٦]

وليس غريباً أنَّه تأثَّر بشكلٍ خاصٍّ بتأمُّلات مونتين حول الموت. «**إنَّه يقول أمورا مذهلة فيما يتعلَّق بخوفه أمام الموت**»، ثم كتب في دفتر ملاحظاته بعد أن قرأ المقال «**أن نتَفَلسَف يعني أن نتعلَّم أن نموت**». بعد أن أنهَكَه مرض السُّل نصف حياته، كان كامو مفتوناً بمواجهات مونتين المتكرِّرة مع الموت. فقد سعى كاتب القرن السَّادس عشر، تحت تأثير الفلسفة الرُّواقيَّة، إلى مكافحة الخوف من الموت بتجريده من غرابته وجعله أمراً مألوفاً، «من غير المؤكَّد أين ينتظرنا الموت؛ لننتظره في كل مكان». ولكنَّه ليس مجرَّد انتظار: فبالنِّسبة لمونتين، لا بدَّ أن يكون المرء فاعلاً في العالم في اللحظة التي يأتي فيها الموت ليأخذنا. «أريد أن يجدني الموت أزرع الكرنب، ولكن بدون مبالاة بالموت، بل الكثير

مـن الاهتـمام بحديقتـي غـير المتهيـة».[١٧١]

عـرف كامـو أنَّ مونتـين، قبـل أن ينعـزل في قـصره للكتابـة، قـد خدم معظـم حياتـه كمسـؤول عـام. لم يكـن فقـط قاضيـاً في برلمـان بـوردو وعمـدة مدينـة في أثنـاء تفـشي الطاعـون الدَّبّلي، بـل كان أيضـاً وسـيطاً بـين الوبـاء الأخطـر والأكثـر ضراوةً الـذي اجتـاح فرنسـا: الحـروب الدِّينيَّـة في فرنسـا. إنَّ قـدرة مونتـين الفريـدة عـلى تجـاوز الـصراع، والتـي تبـدو وكأنَّهـا محصَّنـة ضـدَّ المشـاعر التـي دفعـت الكاثوليـك والهوغونوتيـين للسـقوط في فـخِّ السِّـعار القاتـل، جعلتـه محـاوراً لا يُقـدَّر بثمـن لـكلٍّ مـن هنـري نافـار، الزعيـم البروتسـتانتي، وكاثريـن دي ميديشي، والـدة الملـك الكاثوليكـي هنـري الثالـث. ولا مناص من أنَّ هـذه الصِّفـات ذاتهـا جعلـت مـن مونتـين عـدوًّا لَـدوداً للمتشـدِّدين مـن كلا الجانبـين: فقـد تعـرَّض في أوقـات مختلفـة للتَّهديـد والمُلاحقـة والسِّـجن مـن قِبَـل كلٍّ مـن المتطرِّفـين البروتسـتانت والكاثوليـك عـلى حَـدٍّ سـواء.

وُلِـدَ مونتـين في عائلـة كاثوليكيَّـة (عائلة لها أسـلاف يهـود محتملون) تشـعَّب في العقيـدة البروتسـتانتيَّة، حيـث عـرف كِلا العالمـين، لكنَّـه رفـض الاعـتراف بصحَّـة أيٍّ مـن العالمين. وقـد صُدِمَ من اقتناعِ كلِّ جانـبٍ بأنَّـه الطـرف الوحيـد العـالِم بالحقيقـة، كـما صُـدِمَ بالأفعـال التـي ارتكبهـا دعـماً لهـذه القناعـة، ورفـض خيانـة ولائِـهِ للعقـل والحقيقـة. **«ولاحـظ الوقاحـة الرَّهيبـة التـي تقـود بنـا لمناشـدة العنايـة الإلهيَّـة، وكيـف أنَّنـا رفضناهـا بشـكلٍ غـير متديِّـن ثـمَّ أخذناهـا مـرَّةً أخـرى، مـع أنَّ الحـظَّ قـد غـيَّرَ مكاننـا في هـذه العواصـف العامَّـة»**، ثـم يتابـع،

ومع ذلك، «**نحن نحرق النَّاس الذين يقولون إنَّ الحقيقة يجب أن تُصنَعَ لتَحمل نير حاجتنا**».[١٨]

ولو أنَّ الأمرَ كان مقتصراً على الحرق على الوتد في أثناء محاكم التفتيش. بيد أنَّ ما يثير الدَّهشة أكثر من ذلك هو القسوة التي اتَّسمت بها عمليات القتل على كلا الجانبين. فقد مُثِّلَ بجثَّة الزَّعيم البروتستانتي الأدميرال دي كوليجني، الذي طُعِنَ بالسيف في فمه، وفُصِل الرأس عن الجسد، وشُوِّهت جثته، ثمَّ شُنقت، وأُحرقت. أمَّا بالنسبة للبروتستانت المَشتبَه بهم فلم يكن مصيرهم أرحَمَ. وقُتِلَ رجلٌ يُدعى ماثورين لاسو، عندما أجاب على طَرْقٍ على بابه، كما كان ابنه عندما سمع الضَّجة. قفزت زوجة ماثورين من النَّافذة العلويَّة للهرب من الغوغاء وكُسِرَت كِلا ساقيها. فجرَّها الحَشد إلى الشارع، وقطعوا يديها، ووثقوها على عمود. وشوهِدت الكلاب وهي تَنهَش يديها لأيَّام عدَّة.[١٩]

رَوَّعَت هذه الأعمال مونتين، ممَّا دفعه دون شَكٍّ إلى كتابة مقال مُكَرَّس لموضوع القسوة:

> «لم يكن بوسعي أن أقنع، حتى رأيت ذلك، بأنَّ هناك نفوساً وحشيَّة إلى درجة أنَّها قد ترتكب القتل لمجرَّد المتعة؛ تقطِّعُ أوصال بشرٍ آخرين؛ ويَشحَذون ذكاءهم لابتكار أساليب تعذيب غير معهودة، وأشكال جديدة من الموت، بدون عداوة، وبدون انتصار، ولغرض وحيد هو التَّمتُّع بالمشاهد المتعة للحركات والإيماءات المثيرة للشَّفقة،

والأنين والصراخ المروِّع، لرجلٍ يموت في كرب ومعاناة. لأنَّ هذه أقصى نقطة يمكن أن تصل إليها وحشيَّة الإنسان وقسوته». [٢٠]

بعد نصف ألفيَّة، كشفت الأحداث في الجزائر أنّه لَم يتغيَّر إلا القليل:

«تتدلَّى المشابك في نهاية الأقطاب الكهربائيَّة أمام عينيَّ. كانت مشابك فولاذيَّة لامعة صغيرة، ممدودَة ومُسَنَّنة. وُصِلَ أحدهما بفصِّ أذني اليمنى والآخر بإصبعٍ في الجانب نفسه. وفجأةً، قفزتُ في قيودي وصرختُ بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّة. وميضٌ من البَرق انفجر بجانب أذني، وشَعَرتُ بخفقان قلبي في صدري. لقد كافحت وصرختُ وتصلَّبتُ حتى قَطَعَت الأربِطة لَحمي». [٢١]

وفي عام ١٩٥٨، نشرت دار Editions de Minuit، التي بدأت مسيرتها في عام ١٩٤٢ كناشر سرِّي مُلتزم بتحرير فرنسا، كتاب هنري ألاج السؤال. وهو رواية عن اعتقاله وتعذيبه من قبل المظلِّيِّين الفرنسيِّين المشاركين في معركة الجزائر، أيقظت قصَّة ألاج الأمَّة التي، حتَّى نشر الكتاب (ومحاولة الحكومة الفرنسيَّة الفاشلة للومه)، سَعَت إلى إغفال طبيعة الصِّراع. فبعد عشرين عاماً فقط من تعذيب وقتل المحتلِّين النَّازيِّين والعُمَلاء الفرنسيين، في جهودهم المشؤومة الرَّامية إلى استئصال المقاومة، للمئات من الرجال والنِّساء الفرنسيِّين، يُعَذِّبُ الفرنسيُّون الآن الرِّجال والنِّساء الجزائريِّين للأسباب نفسها. وكما أعلن ألاج، في حين أنَّ

«حالتـه الخاصَّـة استثنائيَّة مـن حيـث أنَّهـا جذبـت انتبـاه الجمهـور، فإنها ليسـت فريـدة مـن نوعهـا بـأيِّ حـال مـن الأحـوال».[٢٢]

كان تبرير الجيش الفرنسي لاستخدام التَّعذيب واضحاً ومُقنعاً: ذلـك أنَّ فرنسـا كانـت في حـربٍ مـع منظَّمـة إرهابيَّـة حصـدت تفجيراتهـا واغتيالاتهـا أرواح المئـات مـن الفرنسـيِّين الأبريـاء مـن الرِّجـال والنِّسـاء والأطفـال. ولـولا المعلومـات المُسـتَقاة مـن الإرهابيِّين المقبـوض عليهـم، أو مـن المتعاطفين معهـم، فـإنَّ المزيـد مـن الأبريـاء سـيموتون. ووفقـاً لمارسـيل بيجـار، فقـد صَرَّحَ العقيـد الـذي أحـدث ثـورة في التكتيـكات العسـكريَّة الفرنسـيَّة في الجزائـر وأشرف عـلى اسـتخدام التَّعذيـب، بـأنَّ إلحـاق الألم عَمـداً وبشـكلٍ منهجيٍ بالعـدو كان «**شَرًّا لا بـدَّ منه**». ومـن أجل التَّأكيد على خطورة الحربٍ الفرنسيَّة، خضـع بيجار ذاتـه للتَّعذيب بالماء حتى يتسنَّى لـه التعـرُّف إلى الآثـار المترتِّبـة عـلى هـذه الممارسـات. إنَّـه يعـرف أيضـاً أنَّ ذلـك سـيحدث لمـرَّة واحـدة فقـط، وأنَّـه لـن يمتـدَّ عـلى مـدى سـاعات وأيـام وأسـابيع؛ كـما أنَّـه كان يعـرف أنَّـه ضابـطٌ لا جـدال في سـلطته عـلى «**مُعَـذِّبيه**»؛ كـما أنَّ معرفتـه بأنَّـه كان يديـر التَّجربـة كلَّهـا، يبـدو أنَّ كل ذلـك مـن شـأنه أن يقـوِّض هـدف هـذه التَّجربـة الشَّـخصيَّة. في حـين أنَّ حالـة بيجـار الخاصَّـة، مثـل حالـة ألاج، كانـت استثنائيَّة في مقـدار الاهتـمام الـذي حَظِيَـت بـه في نهايـة المطـاف، لكنَّهـا كانـت مختلفـة تمامـاً عـن حالـة ألاج لأنَّهـا لم تكـن تمثِّـل الممارسـة الفعليَّـة.[٢٣]

وبعـد أشـهر قليلـة مـن تغيير كتـاب ألاج لمفهـوم الحـرب الفرنسـيَّة في الجزائـر، نـشرت غاليـمار **السـجلات الجزائريَّـة**، وهـي مجموعـة مـن

المقالات عن الجزائر لكامو. وبحلول ذلك الوقت، كان كامو، مثل مونتين، قد ابتعد أيضاً عن الشُّؤون العامة -على الأقل فيما يتعلَّق بوطنه الجزائر. وبعد فشل جهوده في إقناع الجانبين المتحاربين بتبنِّي هدنة مدنيَّة، انزوى كامو إلى صمته العام. في شباط/ فبراير ١٩٥٦، بعد فترةٍ وجيزة من الهدنة المدنيَّة، استقال كامو من منصبه في L'Express، وأخبر أصدقاءه بأنَّه لم يَعُد يستطيع الكتابة أو التَّحدُّث عَلَناً عن الأحداث في الجزائر. ماذا يمكن أن يقول أكثر من ذلك في هذه المرحلة؟ فقد بدا خيار الصَّمت، إن لم يكن الخَيار الوحيد، هو الخيار الأكثر معنى. وكما كتب لصديقه، الكاتب القبائلي مولود فرعون: «**عندما تستخدم اللغة بشكلٍ طائشٍ للتخلُّص من أرواح البشر، فإنَّ الصمت لا يعود صفةً سلبيَّة**».[٢٤]

ولكن لم يكن هناك اتفاقٌ آنذاك، كما هو الحال الآن، حول طبيعة صمت كامو. وبالنِّيابة عن الغالبيَّة العظمى من المثقَّفين الباريسيِّين، أعلنت سيمون دي بوفوار أنَّها «**كانت منزعجة من رفض كامو التَّحدُّث**».[٢٥] حتى النُّقَّاد المتعاطفون، مثل الكاتب التونسي اليهودي ألبرت ميمي -الذي حملت روايته الأولى، **عمود الملح**، مقدِّمة لكامو- نسبوا صَمتَ كامو إلى نوع من الشَّلل الذي أصاب «المستعمرين ذوي النيَّة الحسنة»، الذين لا يستطيعون الإفلات من المعضلة العويصة التي وَضَعهم فيها التَّاريخ، «**وفي الواقع، كان هذا هو وضع كامو حتَّى أنَّه كان متأكِّداً من أنَّه أصبح هَدَفاً لشكوك المُستعمر، وسخط اليسار في الجمهوريَّة**

الفرنسيَّة، وغضب شعبه».[٢٦]

كان مونتين سيدرك على الفور أنَّ محنة كامو كمحنته. ففي فرنسا القرن السادس عشر، كان المتطرِّفون من الكاثوليك والبروتستانت يحتقرون السياسيِّين: وهم المُعتدلون المُخلصون للتفاوض والتَّسوية. ولكن في دولة تشهد استقطاباً متزايداً، حيث ينظر كلُّ معسكرٍ دينيٍّ إلى الآخر باعتباره شريراً متجسِّداً، لم يكن السَّاسة يفتقرون إلى الثقة فحسب، بل كانوا في كثيرٍ من الأحيان عاجزين عن مواجهة النَّوبات المتكرِّرة من العنف. كان مونتين رئيس بلديَّة مدينة مضطربة مقسَّمة بين الهوغونوت والكاثوليك، حيث أرهب المتعصِّبون المنتمون إلى الرَّابطة الكاثوليكيَّة البروتستانت والسِّياسيين، كان مُدركاً تماماً لحجم مهمَّته الجائرة واليائسة. وكما ذكر لاحقاً:

> «إنَّ التَّعصُّب أخَذَ مكان كلٍّ من الدين والفلسفة، ويفعل الأعاجيب عندما يؤيِّد نزوعنا الطبيعي إلى الكراهيَّة، والوحشيَّة، والطموح، والطمع، والانحطاط، والتَّمرُّد. على عكس كل الجهود الساعية نحو الخير، والإحسان، والاعتدال، لكنَّه قد يؤول للزوال بمحض معجزة تحملها طبيعة استثنائيَّة».[٢٧]

إلا أنَّ مونتين، على الرغم من كونه سياسيًّا، لم يكن عديم الأخلاق، بل على العكس من ذلك. فقد كتب بحدَّة نادرة: **«ومن بين الرَّذائل الأخرى، أنا أكره القسوة بشدَّة، سواء بحكم الطَّبيعة أو القضاء، باعتبارها أمَّ الرَّذائل».**[٢٨] لقد خاف هو وكامو

مـن بعـده أولئـك الذيـن ادَّعـوا أنَّ الغايـة العظيمـة يمكـن أن تـبرِّرَ العنـف والـشَّرَّ. كانـت فكـرة شَـنِّ حـربٍ خارجيَّـة شـائعة في أوسـاط بعـض السِّياسـيِّين، لأنَّهـا ستسـاعد في توحيـد الأمَّـة وتثبيـط الحـروب الدِّينيَّـة. في حـين وافـق مونتـين عـلى أنَّ الـصِّراع الخارجـي كان «**شَرًّا أكثـر اعتـدالاً**» مـن الحـرب الأهليَّـة، لكنَّـه رفـض الاقـتراح المُغـري: «**لا أعتقـد أنَّ الإلـه سـيفضِّل هكـذا مَسـعىً غـير عـادل بحيـث يـؤذي الآخريـن ويختلـق شـجاراً معهـم مـن أجـل مصلحتنـا الخاصَّـة**».[٢٩]

وفي موقـفٍ حيث من السـهل أن يكـون قـول الحقيقـة خطـأً قاتـلاً، أصَرَّ مونتـين عـلى الرغـم مـن ذلـك عـلى الصَّراحـة: «**أنـا لا أمتنـع عـن قـول أيِّ شيء، مهـما كان خطـيراً أو متحدِّيـاً، مـا كنـت لأقـول شـيئاً مـن خلـف ظهورهـم**». وبالإشـارة إلى الأسـاليب الدَّنيئـة والوضيعـة التـي تسـتخدمها الأنظمـة، اعـترف مونتـين بحتميَّـة وجـود رجـال «**يخـونـون، ويكذبـون، ويَذبحـون**».[٣٠] أمَّـا بالنِّسـبة لـه، فهـو «**سيسـتقيل مـن هـذه المهمَّـة ويتنـازل عنهـا لأشـخاصٍ أكثـر طاعـةً وليونـة**». وفي مقدِّمتـه لمقـالات السـجلات الجزائريَّـة، يبـدو أنَّ كامـو ينقـل موقـف مونتـين. وفي محاولـة لإيجـاد أرضيَّـة مشـتركة بـين الجانبـين، يرفـض حكـم أولئـك الذيـن لم يعيشـوا في الجزائـر. أمَّـا بالنسـبة لأولئـك الذيـن «**يسـتمرُّون في الاعتقـاد، ببسـالة، بأنَّـه مـن الأفضـل أن يمـوت أخـو المَـرء فِـداءً لمبادئـه، فإنَّنـي سـأكتفي بالإعجـاب بهـم مـن بعيـد. أنـا لسـت واحـداً مـن عِرقِهـم**».[٣١] ومـع تعمُّـق إحساسـه بالانفصـال، ألقـى كامـو اللـوم عـلى إصـراره عـلى توخِّـي الصِّـدق والصَّراحـة «**إذا رفضـتُ دومـاً الكـذب...... فهـذا معنـاه أن أقبـل العزلـة الآن أيضـاً**».[٣٢]

ويؤكِّد المؤرِّخ جيمس لو سوي حالة العزلة هذه عندما رفض كامو باعتباره «**الاستثناء الصَّارخ**» من الجبهة الموحَّدة للمثقَّفين الفرنسيِّين المُعارضين «**لانتهاك حقوق الإنسان في الجزائر**».[٣٣] وكان استثناءً، ولكن ليس بالطريقة التي أوحى بها لو سوي. أدان كامو مراراً وتكراراً ممارسات الجيش الفرنسي للتَّعذيب والإعدام. وأعلن أنَّ هذه الأفعال لم تكن إجراميَّة فحسب، بل كانت أيضاً متهوِّرة سياسيًّا. وفي مقال نشرته صحيفة L'Express في عام ١٩٥٥، أكَّد كامو على ما يبدو واضحاً بمجرَّد النَّظر في أحداث الماضي:

«كان كلُّ عملٍ من أعمال القمع...... وكلُّ عملٍ من أعمال التَّعذيب التي ترتكبها الشرطة... سبباً في تعميق هوَّة اليأس والعنف بين أولئك الذين يتعرَّضون لهم. وبهذه الطريقة، أنجَبَت الشُرطة إرهابيِّين، أنجبوا هم بدورهم المزيد من الشُّرطة».[٣٤]

وبعد ثلاث سنوات، في السجلات الجزائريَّة، تألَّم كامو بسبب الحصاد المأساوي لهذه السِّياسة الإجراميَّة التي تعاني من قصر نظر إجرامي. وفي خطابه أمام زملائه الجزائريِّين الفرنسيِّين والفرنسيِّين، قال كامو بمنتهى الصَّراحة:

«إنَّ الانتقام من المدنيِّين وممارسة التَّعذيب جرائم نتحمَّل جميعاً المسؤوليَّة عنها. إنَّ سماحنا بحدوث هذه الأفعال لَهُوَ عارٌ يجب أن نواجهه من الآن فصاعداً. وفي الوقت الراهن، علينا على الأقل أن نرفض كلَّ تبرير، حتى تبرير الفعاليَّة،

لهذه الأساليب. ومنذ اللحظة التي نبرِّرها، حتى لو بشكلٍ غير مباشر، لا يمكن أن يوجد قاعدة ولا قيمة، فجميع المطالبات والادِّعاءات صحيحة على قدم المساواة، كما أنَّ الحرب بلا حدود أو قوانين تكرِّس انتصار العدميَّة». [٣٥]

ومن الواضح أنَّ كامو قد أدان التَّعذيب. ولكن ما رفضه كان ما يمكن أن نطلق عليه **«الإدانة الانتقائيَّة»**. لقد شعر بالاشمئزاز من صمت أصدقائه السَّابقين في اليسار الفرنسي فيما يتعلَّق بإرهاب جبهة التَّحرير الوطني (FLN)، التي قادت النِّضال من أجل استقلال الجزائر. بينما كان الجيش الفرنسي وأجهزة المخابرات الفرنسيَّة تَصعق بالكهرباء، وتُغرق بالماء، وتغتصب مقاتلي جبهة التَّحرير الوطني، كانت جبهة التحرير الوطني تقتل قادَة الحركات القوميَّة المنافسة، وكذلك المدنيون من ذوي الأقدام السُّود. وفي أمرٍ صَدَرَ بعد إعدام اثنين من قادة جبهة التَّحرير الوطني في عام ١٩٥٦، دعت الجبهة إلى الانتقام الفوري ضدَّ السُّكان المدنيِّين: **«اقتل أيَّ أوروبي يتراوح عمره بين ثمانية عشر عاما وأربعة وخمسين»**. وفي الوقت نفسه، أطلقت ناشطات من جبهة التَّحرير الوطني سلسلة من التفجيرات بالقنابل في المقاهي الشَّعبيَّة، ممّا أسفر عن مقتل أو تشويه العشرات من النِّساء والرِّجال. وبينما غرقت الجزائر في ما سماه **«هذيان كراهية الأجانب»**، حَثَّ كامو الجانبين على الاعتراف بالتَّواطؤ والتورُّط. وكما **«يجب إدانة مذبحة المدنيين من قبل الحركة العربيَّة، يجب على الليبراليِّين الفرنسيِّين أن يفعلوا الشيء نفسه فيما يتعلَّق بالقمع الفرنسي»**. وإذا لم يتحقَّق

ذلك، خَلُصَ كامو إلى أنَّ مفاهيم الذَّنب والبراءة ستغرق في بحرٍ من دماء الحرب الشاملة.[٣٦]

كان كامو استثنائيًّا في بقائه مخلصاً للموقف الأخلاقي الذي كان مونتين سيعترف به. كتب في مذكِّراته:

«أنا رجلٌ عاديٌّ بمقتضيات القيم التي يجب أن أدافع عنها وأوضحها اليوم هي قيمٌ عاديَّة. وهذا يتطلَّب موهبة زائدة وغير مزيَّنة لدرجة أنَّني أشكُّ في امتلاكها».[٣٧]

ومن بين القيم العاديَّة لدى كامو كان الاقتناع بأنَّ الغاية يجب أن لا تبرِّر الوسيلة أبداً. وبمجرَّد انتهاك هذه القاعدة، يبدأ الرِّجال والنِّساء من ذوي النَّوايا الحسنة سباقهم نحو غايات غير متوافقة، مخلِّفين وراءهم ما تبقَّى من بشريَّة مُداسَة. وقد ذكَّرَ نفسه في مذكِّراته المؤلمة:

«إنَّ جهدي الآن هو أن أحمل هذا الوجود بنفسي حتَّى النهاية، للحفاظ عليه بغضِّ النَّظر عن الجانب الذي تأخذه حياتي -حتى على حساب الوحدة التي بتُّ أعرف الآن كَم من الصعب تحمُّلها. أن لا نتهاوَن أو نُساوِم -هذا هو السِّرُّ. أن لا نستسلم، أن لا نَخون».[٣٨]

إنَّ إخلاص كامو لردِّ فعل والده الغريزي لدى رؤية الجثث المشوَّهة لرفاقه - ولا يمكن لإنسان أن يسمح لنفسه بفعل ذلك!! أدَّى إلى تأجيج معارضة كامو لعقوبة الإعدام طوال حياته. في هذا الصَّدد، وعلى غرار مونتين، كان كامو يجاهر بالحقيقة ليس فقط

أمام السلطة، ولكن لقرَّائه أيضاً -وهي مَهمَّة أصعب بكثير في بعض النواحي. وكما كتب في مقاله عن المقصلة، «**حين يُسهم الصَّمت أو حِيَل اللغة في الإبقاء على استغلال يجب أن يُتدارَك أو على تعاسة يمكن أن يُخَفَّف من وطأتها، فليس هناك من حلٍّ آخر إلا الكلام بوضوحٍ وإظهار البذاءة التي تختفي تحت معطف الكلمات**».[٣٩]

وبحلول أواخر أربعينيات القرن العشرين، كان أصحاب الإلتماسات والمحامون، ليس فقط في فرنسا، بل في جميع أنحاء العالم، يَسعون للحصول على دعم كامو نيابَةً عن السُّجناء السِّياسيِّين المُدانين. تحدَّث كامو بالنِّيابة عن السُّجناء السِّياسيِّين في جميع أنحاء العالم، مُحتَجًّا، على حَدِّ تعبير إيف موريسي، على «**الدَّولة المُتمَحورة حول الموت في كل مظاهرها**».[٤٠] تدخَّل كامو بالنِّيابة عن السُّجناء السِّياسيِّين في إسبانيا فرانكو، وروسيا ستالين، وأوروبا الشَّرقيَّة، وإيران، وفيتنام، واليونان.

حتَّى أنَّ الولايات المتَّحدة طلبت من كامو التحقيق في طبيعة عقوبة الإعدام على الأقل، إن لم يكن تدخُّلاً، بما أنَّ السَّجين كان قد أُعدِمَ بالفعل. وفي عام ١٩٥٩، عُرِضَ فيلم روبرت وايز «**أريد أن أعيش!**» في فرنسا. تألَّقت فيه سوزان هايوارد في دور باربرا غراهام، وهي مُدمنة مخدِّرات وُجِدَت مُذنبة بقَتل أرملةٍ غنيَّة، وأعدِمَت في غرفة الغاز. أُخرِجَ الفيلم بطريقة واقعيَّة ووحشيَّة، كما أنَّه طَمَسَ مسألة ذنب غراهام -تشير وثائق الفيلم إلى أنَّها كانت مذنبة بالفعل- ورَكَّزَ بدلاً من ذلك على مراحل الإعدام

بموافقة الدَّولة. تأثَّر كامو كثيراً بالفيلم، حتى أنَّه شاهده مرَّتين وكتب تقريراً قصيراً له. قال فيه: «**إنَّ قصَّة هذا الفيلم القاسيَّة هي قصَّة حقيقيَّة**». وأكَّدَ أنَّ الفيلم، إذا كان له أيُّ هدفٍ على الإطلاق، فهو «**مواجهتنا بحقائق عصرنا**»، وخلُصَ كامو إلى أنَّ وايز يواجهنا بحقيقة «**لا نملكُ الحقَّ في تجاهلها**». [٤١]

لم تُنشَر المُراجعة في فرنسا، ومع ذلك تُرجِمَت إلى الإنجليزيَّة ونُشِرَت من قِبَل مُنتج الفيلم. انزعج الصَّحفي الأمريكي المقيم في لوس أنجلوس، جاك بيك، من ادِّعاء كامو الواضح بأنَّ غراهام بريئة في الواقع. وأظهر، في رسالة من ثلاث صفحات إلى كامو، كيف طَمَسَ وايز عدداً من الحقائق من الفيلم تربط غراهام بالجريمة. رَدَّ كامو بسرعة على بيك، معترفاً بأنَّه ربَّما كان «**مُضلِّلاً**» بشأن قضيَّة غراهام. لكنَّ ما يلي لا يقلُّ دَلالةً: ولكن هل لي أن أقول لك إنَّني لستُ مُقتنعاً بأنِّي كنتُ مخطئاً؟. بالنِّسبة لكامو، إنَّ عقوبة الإعدام في حَدِّ ذاتها تظلُّ فعلاً إجراميًّا سواء كانت غراهام مذنبة أم لا. في الواقع، إنَّه يوضِّح قائلاً: «**إنَّ معارضة عقوبة الإعدام فقط إذا كان الشخص المُتَّهم بريئاً أمرٌ غير منطقيٍّ على الإطلاق**». [٤٢]

إنَّ ما أستَحوذَ على مُخيِّلة كامو الأخلاقيَّة هو الطريقة التي أعاد بها الفيلم تصوير واقعة قتل إنسانٍ آخر. فقد ظلَّ «**الجسم المُختَلِج الذي أُلقِيَ به على لوحٍ خشبي لتقطع عنقه**» -أو لِملء رئتيه بالغاز السَّام، أو لتمزيق قلبه بالرَّصاص- السَّبب الأساسي لعقوبة الإعدام. ومن هنا فقد شعر كامو بالرُّعب من أي جهدٍ

تبذلـه المؤسَّسـات أو الأفـراد الذيـن يمثلـون المجتمعـات الديمقراطيَّة أو الشـموليَّة، التـي سَـعَت إلى تجريـد هـذه الحقيقـة الغاشـمة. وفي رسـالة إلى أسـتاذه السَّـابق جـان جرينيـه، روى كامـو كيـف أنَّـه تـرك محاكمـة رجـل فرنـسي مُتَّهَـم بالخيانـة في أثنـاء عمليَّـة التَّطهـير بعـد الحـرب في فرنسـا. أخـبَرَ كامـو جرينيـه أنَّـه مـن الواضـح أنَّ الرَّجـل المُتَّهـم كان مُذنبـاً تمامـاً، «ومـع ذلـك، غـادَرتُ المحاكمـة قبـل النِّهايـة لأنَّني كنـتُ معـه [أي المُتَّهـم]...... في كلِّ رجـلٍ مُذنِـب، هنـاك عنصرٌ مـن الـبراءة؟. وهـذا مـا يجعـل أيَّ إدانـة مُطلقـة أمـرًا مُقَـزِّزًا. نحـن لا نفكِّـر بـما يكفـي في الألم». [٤٣]

لا يوجـد شيء مجـرَّد حـول الألم. فهـو مُحَـدَّدٌ وحقيقـيٌّ، وعندمـا يكـون مكثَّفـاً وشـديداً، فإنَّـه «يدمِّر العـالم». [٤٤] وتوضِّح إلين سـكاري نقطـة أساسـيَّة عـن الألم: في حـين أنَّ معظـم المشـاعر الإنسـانيَّة مرتبطـة بشيءٍ خارجيٍّ -يقـع المـرء في الحـب، يشـعر المـرء بالقلـق- إلا أنَّ الألم ليـس لـه مثـل هـذا المَرجـع، «إنَّـه ليـس مـن، أو، لأيِّ شـيء». عـلاوةً عـلى ذلـك، تقـول سـكاري إنَّ الجهـد المبـذول لتجسـيم أو تشـبيه الألم هـو في حَـدِّ ذاتـه «علامـة عـلى انتصـار الألم، لأنَّـه يحقِّـق قدرتـه ويفـرض ذاتـه جزئيًّـا مـن خـلال إحـداث هـذا الانقسـام المُطلـق، حتـى ضمـن دائـرة نصـف قطرهـا أقـدام عـدَّة، بـين إحسـاس المـرء بذاتـه، وواقـع الأشـخاص الآخريـن». [٤٥]

لقـد شـغلت مخاطـر التَّجريـد كامـو. ففـي عـام ١٩٤٧، وهـو العـام نفسـه الـذي نـشر فيـه كتـاب **الطاعـون**، أعـاد كامـو قـراءة مذكِّراتـه المدرسـيَّة التـي سـجَّل فيهـا أفـكاره لأكثـر مـن عقـدٍ مـن الزمـان. وكان

التأثير واقعيًّا: «قرأتُ كلَّ هذه المذكَّرات -بدءاً من الأولى. كان هذا واضحاً بالنسبة لي: المناظر الطبيعيَّة تختفي تدريجيًّا. والسَّرطان المُعاصِر ينهشني أنا أيضاً». بكلماتٍ أخرى، كانت ذاكرته عن العالم -موضوع إخلاصه- تتلاشى فيما نما انشغاله بالأفكار. صَدَمَهُ هذا التَّباعد نفسه خلال رحلة في العام نفسه من باريس إلى الجزائر:

«هذه الطَّائرة باعتبارها واحدة من عناصر النَّفي والتَّجريد الحديثة. لم تَعُد هناك طبيعة، والوادي العميق، والرَّاحة الحقيقيَّة، ومجرى الجبل غير السَّالِك، كل شيء يختفي. ويبقى هناك رَسمٌ بيانيٌّ -خريطة. الإنسان باختصار، ينظر من خلال عيني الإله. ويدرك حينها أنَّ الإله وحده يمكن أن تكون له فقط وجهة نظر مجرَّدة. هذا ليس بالشيء الجيِّد». [٤٦]

إنَّ المخيِّلة الأخلاقيَّة، بالنِّسبة لكامو وسيمون فايل، عمل اهتمام. اهتمام بالعالم المادِّي في سلوكه غير المَرِن واللامبالي تجاهنا، واهتمام بإخوتنا من بَني البشر في كفاحنا المُشترك لمقاومة اللامبالاة الكونيَّة هذه. بعد وقتٍ قصيرٍ من تحرير فرنسا، كتب كامو سلسلة من المقالات بعنوان **«لا ضحايا ولا جَلَّادون»**. كانت المقالات مستوحاة جزئيًّا من المحادثات التي أجراها كامو في باريس مع آرثر كويستلر، والذي أكسبه تحليله الدَّاهم للشُّموليَّة في روايتيه **الظلام عند الظهيرة** و **اليوغي والمفوَّض** شهرةً واسعة على جانبي المحيط الأطلسي. لكنَّ مقالات كامو تعكس أيضاً تصوير فايل للطرق التي تَعمَلُ بها القوَّة، سواء كانت حرباً أو مَصانِعَ أو حكومات، على تحويل البشر إلى مجرَّد أشياء. إنَّ عبارة

«لا ضحايا ولا جلَادون» ما هي إلا صدى وَرَدٌّ على ادِّعاء فايل بأنَّ أولئك الذين يمارسون القوَّة ليسوا أقلَّ ضحاياها من أولئك الذين يخضعون لها. وأخيراً، تنبع المقالات من ارتباط كامو الدائم بالخصوصيَّة والملموس، وشكوكه الدَّائمة بالعام والمجرَّد. وكما أعلن في المقال الافتتاحي **«قرن الخوف»**، لقد فَقَدنا عادة التَّحدُّث **«بلغة الإنسانيَّة»** التي أُسِّست على حقائق حياتنا اليوميَّة عندما **«نواجه جمال العالم ووجوه الناس»**. وكتب كامو أنَّه في كل حالة من هذه الجرائم، **«كان من المستحيل إقناع الأشخاص الذين يرتكبون هذه الفظاعات بعدم القيام بها، لأنَّهم كانوا واثقين من أنفسهم، ولأنَّه لا توجد طريقة لإقناع فكرة مجرَّدة»**.[٤٧]

في جهوده **«لإنقاذ الجثث»** المُحَمَّلَة فوق مياه فيضانات التَّاريخ، يشخِّص كامو واحدة من **«أخطاء القرن»**: الأشخاص المتعلِّقون بلغة الأيديولوجيا أو البيروقراطيَّة، كما يقول، **«يفتقرون إلى الخيال عندما يتعلَّق الأمر بموت أشخاص آخرين... وكما نحب بعضنا الآن بالهاتف، ونعمل ليس على المادَّة بل على الآلات، فإنَّنا نَقتُل ونُقتَل بالوكالة. ما يُكتَسَب بالنظافة يُفقَدُ بالفهم»**.[٤٨]

ومن أجل إنقاذ فهمنا الأخلاقي والتجريبي، يصرُّ كامو على أن نتخلَّى عن القوالب النَّمطيَّة المعتادة التي نستخدمها، وأن نصف بدلاً من ذلك بأمانة قدر الإمكان ما يعنيه قتل رجلٍ آخر بطريقة منهجيَّة ومتعمَّدة. فبدلاً من إخبار السجين المحكوم عليه بأنَّه سَيُكَفِّر عن فعلته أو عوض المجتمع، ينبغي أن نخبره أنَّه:

«إذا قتلتَ فسوف يُلقى بكَ في السِّجن طوال شهور أو سنين، ويتقاسمكَ يأسٌ مُضنٍ ورهبةٌ متجدِّدة دوماً، إلى أن نَتَسَلَّلَ، ذاتَ صباحٍ إلى زنزانتكَ، وقد خَلَعنا أحذيتنا كي تكون مفاجأتنا لك أشدَّ في أثناء نومك الذي سيسحقك بعد قلق الليل. سوف نَنقَضُّ عليك، ونوثِقُ معصميكَ خلف ظهرك، ونَقُصُّ ياقة قميصك وشعركَ بالمِقَصِّ إذا كان هناك موجب. ورغبةً في المزيد من الإتقان، سوف نربط ذراعيكَ بوساطة حزامٍ جلديٍّ، حتى تُرغَمَ على أن تكونَ مُحَدَودِباً فتقدِّم بالتالي رقبةً بارِزَةً كما ينبغي. سوف نحملكَ، يسندكَ رجُلان من ذراعيكَ، وقدماكَ تزحفان إلى الخلف عبرَ الممرَّات. وأخيراً، تحت سماءٍ داجية، سوف يمسك بك أحد الجلادين من أسفل بنطالك ويَرمي بكَ أفقيًّا على لوحٍ خشبيٍّ، بينما يثبِّت آخر رأسَكَ في فجوَةٍ، ويُسقِطُ ثالثٌ من عُلُوِّ مترين وعشرين سنتيمتر، ساطوراً يَزِنُ ستين كيلو غرام سيحزُّ عنقكَ كموسى حلاقة».[٤٩]

وهكذا كانت قوَّة مقالته **تأمُّلات في المقصلة**، التي نُشرَت سنة ١٩٥٧ مع مقالة مرافقة لكويستلر. في البداية، يُحَذِّرنا كامو من أنَّه لن يتحدَّث بأدبٍ عن طبيعة عقوبة الإعدام. بدلاً من ذلك، أنوي أن أتكلَّم عنها بفَجاجة - ولكن ليس من أجل الإثارة أو الفضيحة أو السَّاديَّة. ويعلن كامو:

«أعتقد، كإنسان، أنَّ المظاهر المُنَفِّرَة لوضعنا البشري ينبغي أن تُواجَهَ بصَمتٍ، إذا كانت محتومة. لكن حين يُسهِمُ الصَّمتُ أو حِيَل اللغة في الإبقاء على استغلال يجب أن يُتَدارَك أو على تعاسة

يمكن أن يُخَفَّفَ من وَطأتها، فليس هناكَ من حَلٍّ آخَرَ إلا الكلام بوضوح وإظهار البَذاءة التي تختفي تحت معطف الكلمات».[٥٠]

ولا ينهي كامو روايته هنا، ولكنَّه يتحوَّل بدلاً من ذلك إلى رَدِّ الفعل الفسيولوجي للجسم عندما يُقطَع الرأس - فنَعلم، على سبيل المثال، أنَّ وجه شارلوت كورداي «قد احمَرَّ، بعد أن أُعدِمَت، من صَفعَة الجلَّاد»- وكذلك رَدُّ الفعل النَّفسي لأولئك مثل السُّجناء الآخرين- الذين يشاهدون عمليات الإعدام المُتكَرِّرة. أمَّا بالنِّسبة لِمَن يقرأ منَّا هذه الرِّوايات، فإنَّ كامو أكثر حِدَّةً: «إنَّ مَنْ يحتسي قهوته وهو يقرأ أنَّ العدالة قد انتصرَت، سيَتقيَّأها فيما لو قرأ أبسط التَّفاصيل».[٥١] وهناكَ رَدُّ فعلٍ أفضل بكثير، بالطبع، من تذوُّقه القهوة في أثناء ارتطام النَّصل، ولكنَّ النتيجة -أنَّ الإنسان يتحوَّل إلى كتلة من اللَّحم بلا رأس «ويتحوَّل المجتمع إلى حالة من الرُّعب البدائي حيث لا يمكن الحكم على شيء»- تبقى كما هي.[٥٢]

يشرح كامو بلغة مشحونة بالغضب المكبوت ما يَحدث للإنسان الخاضع للآليات القانونيَّة والاجتماعيَّة والتِّقنيَّة التي تشكِّل آليَّة القتل التي تقرُّها الدَّولة. ويؤكِّد نفاق الادِّعاءات الرَّسميَّة بأنَّ لعقوبة الإعدام وظيفةً نموذجيَّةً أو وقائيَّةً رادِعَةً: إذا كان هذا هو الحال، كما يقولون، فإنَّ الدَّولة لن تُخفي الآلة أو الفصل الأخير من عمليَّة الإعدام عن الرَّأي العام. «وأمَّا اليوم، فلا وجود لمثل هذا المشهد، بل كلُّ ما هنالك عقابٌ يعرفه الجميع عن طريق السمع، وبين الحين والحين نَبأ عن تنفيذ حكم إعدام،

ولكنَّه مُصاغٌ بحيث يأتي وَقعُهُ مُخَفَّفاً».[٥٣] وهو يسأل: ألَن يكون من الأنسب أن يتمَّ بدلاً من ذلك توزيع تقريرٍ مُفَصَّلٍ على جميع المواطنين عن ما يحدث للجسم الحي بعد قطع الرَّأس؟. أو بعبارة أكثر فعاليَّة، «أرِنا الرَّأس المقطوع» بينما نَستَعِدُّ ليومٍ جديد.[٥٤]

*****

إنَّ الخطر في اتِّهام الآخرين بالافتقار إلى الخيال الأخلاقي هو أن نستنتج أنَّهم إذا كانوا مذنبين فإنَّهم يفتقرون أيضاً إلى حَقِّ الحياة بين بقيَّتنا. ولفترة وجيزة، طالب كامو بالنِّيابة عن فرنسا بالحَقِّ في محاكمة المذنبين وإعدامهم. في صيف وخريف عام ١٩٤٤، عندما كافحت فرنسا المُحَرَّرَة مع ماضيها المباشر وحاضرها الفوضوي، كتب افتتاحيَّة في مجلة Les Lettres francaises السِّرِّيَّة، مدافعاً عن قرار شارل ديغول بإعدام بيير بوتشو، وزير الداخليَّة السَّابق في عهد فيشي، الذي كان قد أمر بإعدام مقاتلي المقاومة. **«لقد مات الكثير من الرجال الذين أحبَبناهم واحترمناهم»**، كما أعلن: **«تمَّت خيانة العديد من العظماء، وأُهينَت العديد من القيم حتَّى بالنِّسبة لنا في خضمِّ هذه المعركة، نحن الذين كانت قد تغريهم للعَفو عنه لولا ذلك».**[٥٥]

وعلى الرغم من شناعة خيانة بوتشو، لكنَّها لم تكُن أعظم جرائمه. وقال كامو إنَّ ما حدث بدلاً من ذلك هو **«افتقاره للخيال»** -عدم قدرته على الاهتمام بالعالم والعواقب المُتَرتِّبة على تصرُّفاته. وبوصفه الموظَّف البيروقراطي في فيشي الذي أشرف على

قوّات الشُّرطة في البلاد، تصرَّف بوتشو وكأنَّ شيئاً لم يتغيَّر منذ هزيمة فرنسا واحتلالها. كمخلوقٍ من «**النِّظام التَّجريدي والإداري الذي لطالما عرفه**»، قام بوتشو، مسترخياً من مكتبه، بالتَّوقيع على قوانين تحكم بالموت على البشر. هذه الأوراق، موقَّعة ومختومة، سوف «**تتحوَّل إلى فجرٍ من الرعب للفرنسيين الأبرياء مما يؤدِّي إلى موتهم**».[٥٦]

أجبرت جريمة بوتشو كامو على قياس كلماته بشكلٍ كامل: «**في ضوءِ خيالنا الكامل نتعلَّم قبوله دون تردُّد...... إنَّ حياة رجلٍ يمكن إزالتها من هذا العالم**».[٥٧] وفي مقالاته الافتتاحيَّة التي تَلَت تحرير فرنسا مباشرة، ركَّزَ كامو على هذا الخلل نفسه «**المُبتَذَل**». ففي نهاية شهر آب/ أغسطس، وفي رَدِّ فعل على تعذيب وقتل أربعةٍ وثلاثين فرنسيًّا على أيدي أفراد من جماعة ميليشيا فيشي القاتلة، صَرَخَ قائلاً: «**مَن يجرؤ على التَّحدُّث هنا عن الغفران؟**». ومرَّةً أخرى يركِّز غضبه على افتقار الجلَّاد إلى الخيال. وبعد وصف حالة الجثث، يجبرنا كامو على تخيُّل ما أدَّى إلى وفاتها: «**رجلان وجهاً لوجه، يستعدُّ أحدهما لتمزيق أظافر الآخر الذي يراقبه وهو يفعل ذلك**».[٥٨] هل كان هناك مكانٌ في فرنسا ما بعد الحرب للرِّجال الذين ارتكبوا مثل هذه الجرائم؟ كلا، أجاب كامو. وكما أعلَنَ في مقالٍ افتتاحي سابق: «**لم يعد لأحد الحَقُّ في أن يفتقر إلى الخيال. انتهى وقت التَّجريد**».[٥٩]

وإلى أن انتهت عمليَّة التَّطهير الثوري إلى سلسلة من المحاكمات الاعتباطيَّة والتي لا تخلو من تناقض على نحوٍ متزايد، مَصحوبةً

بأعمال انتقاميَّة موجزة في هيأة عدالة. ومع اشتداد اشمئزاز كامو، جرت محاكمة روبرت برازيلاك. كان برازيلاك روائيًّا وكاتباً وكان عَميلاً متحمِّساً، أدين برازيلاك بالخيانة وحُكِمَ عليه بالإعدام في أوائل عام ١٩٤٥. ومن المؤكَّد أنَّ الكاتب مارسيل أيمي، الذي قدَّم التماساً إلى الجنرال ديغول يطلب منه تخفيف عقوبة برازيلاك إلى السِّجن مدى الحياة، لم يكن يفتقر إلى الخيال: فقد طلب من كامو التَّوقيع عليه.

كان فرانسوا مورياك، الذي كانت مقاومته ومؤهِّلاته الأدبيَّة مساوية لكامو، قد وقَّع على العريضة بالفعل. كان مورياك في السَّابق كاثوليكيًّا مُلتَزِماً، وقد اصطدم مع كامو بشأن مسألة التَّطهير. فقد أصرَّ الرَّجل الأكبر سنًّا على الحاجة إلى الرَّحمة والمصالحة الوطنيَّة، في حين رَدَّ المحرِّر الشاب في مجلة كومبا بأنَّ التعافي الوطني يتطلَّب أساساً مبنيًّا على عدالة عنيدة. ومع ذلك، عندما تحوَّلت المحاكمات إلى أحداث وهميَّة، اعترف كامو في افتتاحيَّة: «نرى الآن أنَّ مورياك كان محقًّا: نحن بحاجة إلى الإحسان».[٦٠] ومع ذلك، عندما رفض مورياك أن يَدَعهُ يُفلِت من مأزقه -شَكَرَ بازدراء «**سيدنا الشَّاب**» لأنَّه تحدَّث من قمَّة أعماله التي لم يكتبها بعد- رَدَّ كامو بأنَّ نوع رحمة مورياك لا علاقة لها بالجيل الذي يمثله هو، أي كامو. فلا تعني المسيحيَّة شيئاً «**لهؤلاء الذين يعيشون في هذا العالم المعذَّب، والذين يؤمنون بأنَّ المسيح ربَّما مات ليخلِّص الآخرين، لكنَّه لم يَمُت ليُخلِّصنا**». ونتيجة لذلك، «**سوف نرفض إلى الأبد هذه المحبَّة الإلهيَّة التي تُحبط عدالة البشر**».[٦١]

ومع ذلك وقَّع كامو على عريضة برازيلاك. مُعِدًّا التَّفكير في ادِّعائه السابق بكلِّ تعقيداته بأنَّه «لم يَعد لأحدٍ الحَقُّ في الافتقار للخيال»، قضى كامو الليلة دون نوم قبل التَّوقيع على العريضة بالتَّفكير في واقع المصير الذي ينتظر برازيلاك. وكما أوضح في رسالته المُرفقة إلى أيمي:

> «لطالما اعتبرت عقوبة الإعدام رُعباً، وحكمتُ بأنَني، على الأقل كفرد، لا أستطيع المشاركة فيها، حتَّى بالامتناع عن التصويت. هذا كلُّ ما في الأمر. وهذا أمرٌ أفترض أنَّه سيجعل أصدقاء برازيلاك يضحكون». [٦٢]

*****

هذا التخوُّف نفسه هو ما دفع كامو، وخاصَّة بعد صمته عن الحرب الأهليَّة، إلى التدخُّل لصالح الجزائريِّين المحكوم عليهم بالإعدام من قبل المحاكم الفرنسيَّة. حتَّى نشر عشرات الرَّسائل الأخيرة التي تبادلها مع محامين وسياسيِّين، كان دور كامو الملحوظ في هذه القضايا غير معروف في الغالب. ومن بين مراسليه الأكثر إلحاحاً كان صديقه إيف ديشيزيل: كان زميله في جامعة الجزائر، وانضم كلا الرجلين إلى القتال خلال الحرب. بعد أن أسَّس مكتب المحاماة في الجزائر العاصمة، كان ديشيزيل ينتمي إلى الأقلِّيَّة المُحاصَرة من ذوي الأقدام السود الليبراليين، مثل كامو، الذين حاربوا بالنِّيابة عن المجتمعات العربيَّة والأمازيغية. ولم يَكُن مُستغرباً أن يكون ديشيزيل إلى جانب كامو في كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦ عندما ألقى خطابه

في الجزائر العاصمة الذي دعا فيه الى هدنة مدنيَّة. وكان الصديقان يخاطبان بعضهما في رسائلهما بضمير «**نحن**» tu المألوف –وهو أمرٌ نادرٌ بالنِّسبة لكامو، الذي خاطب حتَّى صديقه المقرَّب رينيه شار بصيغة «حضرتكَ» vous الرسميَّة.

وفي أواخر شهر تموز/ يوليو ١٩٥٧، هدَّد قرار محكمة فرنسيَّة بإدانة ثلاثة مقاتلين جزائريِّين بالإعدام بعرقلة المفاوضات المتعثِّرة بين فرنسا وجبهة التَّحرير الوطني. والأهمُّ من ذلك، كما أوضح ديشيزيل، الذي مثَّل الرِّجال، أنَّ الأحكام كانت ذات دوافع سياسيَّة. ويبدو أنَّ أحد الرِّجال، وهو بعداش بن حمدي، بريء من تهمة القتل، في حين لم تحدث أيُّ وَفَيات في الحالتين الأخريين. وقد أوضح ديشيزيل بشكلٍ محمومٍ لكامو أنَّ هاتين القضيَّتين، «**لا تستندان مطلقاً إلى أي مفهوم للعدالة**». وحين أخبر ديشيزل صديقه القديم بأنَّه كان «مهووساً» بعمليات الإعدام و»خائفاً» من عواقبها، فقد صُدم أيضاً لأنَّ القادة السِّياسيين في فرنسا حتَّى لا «**يزعجهم المتطرِّفون الوطنيُّون**» سوف يَسمحون «**بسقوط حفنة من الرُّؤوس**». وسواءٌ بكتابة صحيفة أو بإلقاء خطابٍ عام، أو بالتَّوسُّط لدى الرَّئيس أو أي زعيم سياسي آخر، توسَّل ديشيزيل إلى كامو ليتصرَّف قائلاً: «**يا إلهي، عليك أن تصرخ**». [٦٣]

وبعد يومين من التماس ديشيزيل، تلا ذلك التماسٌ ثانٍ من زميلته جيزيل حليمي، وهي محامية يهوديَّة تونسيَّة كانت قد بدأت مسيرتها المهنيَّة كمحامية للحقوق المدنيَّة امتدَّت لنصف قرن. في عام ١٩٥٦، عندما التقى كامو بحليمي للمرَّة الأولى،

قال لها: «**إذا كان بإمكاني مساعدتك في بعض الحالات، فاتصلي بي**».[٦٤] لم تَكُن حليمي بحاجة إلى أن تُسأل مرَّتين: كتبت بإلحاحٍ شديد، ولخَّصت الحالات الثلاث، مع **تأملات حول المقصلة** التي استشهد بها كامو كحجَّة لتدخُّله. ولم يكن عليها أن تضيف أنَّ عمليَّات الإعدام ستحدث في سجن بربروس -السجن نفسه الذي شهد فيه والد كامو الإعدام الذي لم يَسِم حياته فحسب، بل حياة ابنه أيضاً. وكما وصفت بيروقراطيَّة الموت بدقَّة من قبل كامو، خَلُصَت حليمي: «**يجب أن تساعدنا**».[٦٥]

وهذا ما فعله كامو -وإن لَم يَكُن بشكلٍ علني، وربما لم يكن دائماً متَّسقاً مع كتاباته الخاصَّة. ولعدم رغبته في كسر صمته بشأن الجزائر، قام كامو بدلاً من ذلك بمراجعة الحالات بعناية -تحتوي أوراقه الخاصَّة على أوصاف طويلة ومفصَّلة كتبها عن كلِّ حالة- وكتبها إلى الرَّئيس رينيه كوتي. وهو منصب شرفي إلى حَدٍّ كبيرٍ في الجمهوريَّة الفرنسيَّة الرَّابعة، ومع ذلك كان للرَّئيس سلطة العفو عن السُّجناء. وقد أوضَحَ كامو في رسالته أساس طلبه: لم يكن أيٌّ من الرِّجال المدانين مذنبا «**سواء بالهجمات العمياء أو الإرهاب البغيض الذي يستهدف السُّكَّان المدنيِّين، سواء كانوا فرنسيِّين أو مسلمين**». ويذكِّر كامو كوتي بأنَّه جزائري فرنسي لا تزال عائلته تعيش هناك، وأنَّ «**الدِّراما الحاليَّة يتَرَدَّد صداها يوميًّا في داخلي**». ويخلص إلى أنَّ احتياطَه العام ربَّما يكون مُبَرِّراً كافياً ليطلب من كوتي أن يفكِّر في العفو عن هؤلاء الرِّجال، ولو لمجرَّد «**الحفاظ على ما تبقَّى من مستقبل الجزائر**».[٦٦]

أقرَّ كوتي باستلامه خطاب كامو، لكنَّه لم يردَّ مباشرةً على طلب كامو. لكنَّ الأحداث اللَّاحقة كانت معبِّرة بما فيه الكفاية. وكما أشار كامو بإيجاز في رسالة وجَّهها إلى رئيس الوزراء غي موليت، فإنَّ كلَّ السُّجناء الذين حاول إنقاذ حياتهم قد أعدِموا.[٦٧] (ولم يكن هذا هو الحال دائماً. ويبدو أنَّ الرسالة بعث بها إلى شارل ديغول في عام ١٩٥٩ نيابة عن ثلاثة رجال مُدانين أثَّرت على الجنرال، الذي قام فيما بعد بتخفيف الأحكام الصَّادرة ضدَّهم).

وفي رسائله إلى كوتي وموليت، كما هو الحال مع ديغول بعد وصوله إلى السُّلطة في عام ١٩٥٨، ذكَّر كامو دائماً بزِيِّ السُّلطة الهائلة التي يرتديها هؤلاء الرِّجال من خلال مناصبهم المُنتخَبة. وخلف هذه التَّذكيرات، يحوم إصرار كامو على الواقع خلف العبارات الباردة والبيروقراطيَّة. فهو لم يُرِد قطُّ أن يهرب محاوروه أو يختبئوا من عقوبة الإعدام المُطلقة. كان هذا شغله الشاغل عندما كان لا يزال مراسلاً لصحيفة «جزائر الجمهوريَّة». ففي مقال افتتاحي يناشد فيه تدخُّل أقوى مسؤول في الجزائر، في قضيَّة ميشال أودنت، الذي سُجِنَ بتهمة باطلة، تحدَّث كامو كرجلٍ إلى آخر: في حين أنَّنا «**نلمحكَ في المواكب والقوانين والخطب**»، تساءَل: «**أين نجدُ الرَّجل في كل ذلك؟**» إلا أنَّ كامو يشير على الرغم من ذلك إلى أنَّ وراء الأبَّهة والمناظر الطبيعيَّة، هناك كائنٌ بشريٌّ: الحاكم العام ليس أكثر من رجلٍ واحد بين آخرين. وهذا الرَّجل من لحمٍ ودم، والذي سيعرف يوماً ما رعب الموت، هو الذي يناشده كامو نيابةً عن أخيه الإنسان. إنَّ إنقاذ حياة فردٍ «**في عالم تضيع فيه إنسانيَّة العديد من الرِّجال الآخرين بسبب العبثيَّة والبؤس... يَرقى إلى**

إنقاذ نفس المرء».[٦٨]

بينما ذكَّر كامو موليت في إحدى رسائله بأنَّه يعترض على عقوبة الإعدام «كمبدأ عام» -وهذا، بعد كل شيء، هو ثمرة مقالته **تأمُّلات حول المقصلة**- إلا أنَّ ضغوطاً عاطفيَّة شديدة وزمنيَّة وضعت هذا المبدأ في حيِّز الاختبار. وفي بعض الأحيان، يتَّخذ بوضوح قراراً تكتيكيًّا: فيبدأ في رسالة إلى موليت بالإعلان: «**إنَّه سيترك جانباً العنصر البشري [لعقوبة الإعدام] الذي تعرفه حقَّ المعرفة**».[٦٩] وبدلاً من ذلك، استعرض كامو الأسباب العمليَّة والسياسيَّة لتخفيف أحكام الإعدام، وكلها تشترك في الهدف نفسه: الحفاظ على الجزائر حيث يتعايش الفرنسيُّون والعرب في سلام.

وقد يبدو كامو في بعض الأحيان، لأسباب تكتيكيَّة أيضاً، مستعدًّا لتجاهل العنصر البشري تماماً، كما هو الحال عندما يميِّز بين الأعمال التي لم تودِ بحياة المدنيِّين، «**والأعمال الإرهابيَّة الاعتباطيَّة والعمياء**». وفي الواقع، تروي حليمي في مذكَّراتها إنَّه بعد طلبٍ آخرَ إلى كامو للمساعدة، أجاب: «**أنا أحتقر قَتَلَةَ النساء والأطفال**». وكتبت في ذلك اليوم، إنَّ كامو «**رفض مساعدتي**».[٧٠]

ولكنَّ الطَّبيعة الدَّقيقة لرفض كامو تظلُّ غامضة. في الواقع، تشير الوثائق الأرشيفيَّة إلى أنَّ المرَّة الوحيدة التي رفض فيها كامو هذا الطلب كانت في شباط / فبراير ١٩٥٨. وكتب إليه الكاتب برنارد كلافيل، سائلاً عن ما إذا كان يقبل قيادة حركة

مدنيَّة لإلغاء عقوبة الإعدام. ولكنَّ سكرتيرة كامو، سوزان آنيلي، أجابت بأنَّه مريضٌ إلى الحَدِّ الذي يجعله عاجزاً عن الرَّدِّ، ناهيك عن تولِّي هكذا مَهمَّة. وما زاد الأمر سوءاً أنَّ كامو، في أعقاب حصوله على جائزة نوبل قبل بضعة أسابيع، بدا عاطفيًّا بقدر ما كان واقعيًّا: فبسبب تعرُّضه لنوبات من الاختناق، تجنَّب كامو المشي في الأماكن العامَّة، وكان يخشى أن يتعرَّف إليه الغرباء.[٧١]

*****

وفي قلب الأوديسة لهوميروس هناك لَمُّ شمل بين أب وابنه اللذين لم يعرفا بعضهما. تبدأ الملحمة مع الابن، تيليماخوس، الذي يغادر إيثاكا بحثاً عن أخبار والده الذي يعتقد أنَّه مات بعد عشرين عاماً. بالطبع، عند عودته فقط يجد أوديسيوس على قيد الحياة، وبصحَّة جيِّدة، ويستعدُّ لاستعادة حكمه. ولكن ماذا لو وجد تيليماخوس، بعد سنواتٍ من البحث عن أبيه، على موقعِ دَفنٍ في جزيرة نائية في بحر إيجة نُقِشَ عليه اسم والده وعمره؟ وبضربة قويَّة من الإله، يُدرك تيليماخوس أنَّه عاش فترةً أطول من الأب الذي يقف عند قبره.

وهذا، على الأقل، هو الاختلاف في قصَّة هوميروس التي نجدها في الرَّجل الأول. عندما يزور جاك كورميري المقبرة في سان بريوك ويكتشف شاهد قبر والده، يدرك أنَّه الآن أكبر من والده عندما توفِّي، وهو أبٌ «**توفِّي مجهولاً على هذه الأرض التي عاش عليها فترة قصيرة، كشخصٍ غريب**».[٧٢]

وعلى غرار تيليماخوس، قيل لكورميري إنَّه «صورةٌ طِبقَ **الأصل**» من الأب الذي لم يعرفه قط.[١٧٣] وعلى غرار تيليماخوس وهو ينطلق لتقفّي أخبار والده، يقول كورميري لنفسه: «**لم يَفُت الأوان بعد؛ ما زال بإمكانه البحث ومعرفة مَن كان هذا الرَّجل الذي يبدو الآن أقرب إليه من أي كائنٍ آخر على هذه الأرض. بإمكانه أن ...**»

وقد فعل ذلك جزئيًّا ببقائِهِ مُخلصاً لذكرى أبيه الوحيدة التي نُقلت إليه.



الفصل الخامس
التَّمرُّد

في ١٧ كانـون الأول/ ديسـمبر ٢٠١٠، حَـلَّ التاريـخ عـلى مدينـة سـيدي بوزيـد التُّونسـيَّة. في منتصـف النَّهـار، توجَّـه بائـع فاكهـة اسـمه محمـد البوعزيـزي إلى مكاتـب حكومـة المنطقـة. وإذ كان واقفـاً في الشَّـارع خـارج المدخـل، سـكب عـلى نفسـه علبـة بنزيـن وأشـعل عـود ثقـاب بملابسـه. وبحلـول الوقـت الـذي تـم فيـه إخمـاد النـيران، كانـت جثَّـة البوعزيـزي قـد احترقـت بالكامـل تقريبـاً. ومـع أنَّـه عـاش ثمانيـة عـشر يومـاً أخـرى، لم يسـتيقظ قـطُّ مـن غيبوبتـه. في الوقـت الـذي دُفِـن فيـه في ٤ كانـون الثاني/ ينايـر ٢٠١١، كانـت الهـزَّات الأولى للربيـع العـربي تمتـدُّ مـن سـيدي بوزيـد عـبر شـمال أفريقيـا والـشَّرق الأوسـط.

وفي وقـتٍ سـابق مـن ذلـك اليـوم، قـام المسـؤولون المحليُّـون، بذريعـة أنَّ البوعزيـزي لم يكـن يمتلـك رخصـة بيـع، بإلغـاء عربتـه

وصادروا بضائعه. وليزيدوا الأمر سوءاً، قاموا أيضاً بصفعه والبصق عليه. وكان البوعزيزي العائل الوحيد لأسرة مكوَّنة من ثمانية أفراد، فقيراً للغاية بحيث لم يتمكَّن حتَّى من دفع الرُّشوة المعتادة المطلوبة في مثل هذه الحالات. ولم يَلقَ البوعزيزي أيَّ اهتمام إلا بعد أن سار إلى محطة بنزين قريبة، واشترى ما يكفي من البنزين لغمر ملابسه، وعاد إلى مبنى المحافظة. كان يصرخ: «**كيف تتوقَّعون منِّي أن أكسب عيشي؟**». وكان محمد البوعزيزي يعرف الإجابة بالفعل. لم يكن عود الثقاب الذي أشعله علامة تعجُّبٍ فحسب، بل أيضاً علامة على التَّمرُّد. في الواقع، كان البوعزيزي يسأل: «**كيف تتوقَّعون منِّي أن أقبل الحياة التي تفرضونها عليَّ؟**».

*****

كان جواب كامو واضحاً عن السُّؤال الفلسفي الوحيد الجدير بالطَّرح –ما إذا كان الانتحار ردَّنا على عالَمٍ عبثيٍ بارد وخالٍ من المعنى: لا يمكن ولا يجب أن يكون الانتحار. وإذا كان التَّمرُّد، كما كتب في **أسطورة سيزيف**، «**يعطي الحياة قيمتها**»، فإنَّ الانتحار يعني قبول حقيقة الحياة والعالم الخاليين من المعنى والأهميَّة. وأكَّد أنَّه من الضَّروري:

> «أن يموت المرء دون مساومة وليس بمَحضِ إرادته. الانتحار هو رفض/ إنكار. يمكن للرَّجل العَبثيِّ أن يستنزف كل شيء حتى النِّهاية المريرة... والعَبَث هو توتُّره الشديد، الذي يتمسَّك به باستمرار بجهدٍ انفرادي، لأنَّه يعرف أنَّه

في ذلك الوعي، وفي ذلك التَّمرُّد اليومي يعطي الدليل على حقيقته الوحيدة، ألا وهي فعل التَّحدِّي». [1]

وفقاً لكلِّ المقاييس، كان محمد البوعزيزي رجلا رَزينا ومسؤولا، وعلى الأرجح لم يقرأ قصَّة كامو. ولكن لو كان قد فعل ذلك، فهل كان سيشكِّك في ادِّعائه بأنَّ الانتحار هو بمثابة قبول بالأمر الواقع لبادرة يأس؟. في روايته الخياليَّة عن البوعزيزي، يحاول الرِّوائي الفرنسي الطَّاهر بن جلُّون إعادة تصوير الصُّور النهائيَّة التي تومِض عبر ذهن الشَّاب: «**المسؤول الذي بَصَقَ عليه، والآخر الذي أهانه...... والدته وأخواته ينتظرن في الصَّفِّ من أجل الماء، رجال الشرطة الذين يضايقونه، شتائم وضَرب وسباب**». [2] وباختصار، الاعتداءات المتكرِّرَة على كرامته. وبطبيعة الحال، لا نستطيع أن نجزم بما إذا كان الأمر كذلك. ولكن ما نعرفه هو أنَّ الملايين من الشَّباب والشَّابَّات فسَّروا بادرته الأخيرة على أنَّها عمل من أعمال التَّحدِّي والتَّمرُّد، «**بالأمس كان كامو...... واليوم هو البوعزيزي**»، أكَّد مفكِّر تونسي شاب: «**ربَّما لم يَعُد جزءاً من عالمنا، لكنَّه لم يَعُد صامتاً. صرخته حيويَّة: إنَّه يطالب بالحَقِّ في الكرامة وفي العمل. وهو يُطَالب بالحَقِّ في التَّمتُّع بالحقوق التي ينبغي أن يتمتَّع بها جميع البشر**». [2]

كان كامو يكتب ضدَّ المغالطات القاتلة للشِّيوعيَّة وميلها لتبرير القتل الجماعي والقمع السِّياسي. ولكنَّه كان سيستخدم المصطلحات نفسها أيضاً ضدَّ الجرائم السِّياسيَّة في شمال أفريقيا، وهي بدورها عرضةٌ لأشكال التَّبرير المنطقي التي تصنَّف في أغلب الأحيان

باعتبارها **«واقعيَّة سياسيَّة»**. إذ لطالما شَدَّدَ المدافعون عن الدُّول الاستبداديَّة على طول السَّاحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسِّط منذ فترة طويلة على ضرورة النِّظام على حساب الديمقراطيَّة، والوضع الراهن على حساب الشُّكوك التي تكتنف التَّغيير. طُلِب منَّا أن نتغاضى عن فساد ووحشيَّة هذه الدُّول؛ عندما لم يكن لدينا خيار سوى النظر إليها، كنَّا نميل إلى تبريرها بالمصطلحات الأبويَّة نفسها التي استخدمها القادة المصريُّون بينما كانوا يُطرَدون خارجاً: الشَّعب ليس مستعدًّا للدِّيمقراطيَّة.

وكما كتب كامو عن حركات التَّمرُّد في الماضي والحاضر، كذلك كان ردُّ فعل شباب شمال أفريقيا على **«مشهد اللاعقلانيَّة، في مواجهة حالة ظالمة وغير مفهومة»**. وبالنِّسبة للشَّباب المصريين تحت حكم طاغية بعمر الثمانين مدعوم من قبل قوات الشرطة القاتلة، والمليارات من المساعدات العسكريَّة الأمريكيَّة، وبالنسبة للشَّباب التونسي تحت حكم حاكمٍ فاسدٍ اعتبرت عائلته الوطن مستودعاً للنهب، وبالنسبة للشَّباب الليبيين تحت حكم مجنونٍ قاتل ينافس حكمه حكم كاليغولا على روما، جاءت اللحظة الأخيرة، كما كتب كامو، **«أن ينتهي الغضب»**.[٢]

*****

ومع *الإنسان المتمرِّد*، تحوَّل كامو على ما يبدو من التَّركيز السَّابق في *أسطورة سيزيف*: لقد حَلَّ القَتل في الخلاصة الفلسفيَّة الآن محلَّ الانتحار. ويصرُّ كامو، معلناً أنَّه ومعاصريه يعيشون في

«عصر القتل العَمد والجريمة الكاملة»، وعلى أنَّنا **«لَن نعرف شيئاً حتَّى نعرف ما إذا كان لدينا الحَقُّ في قتل إخواننا البشر، أو الحَقُّ في السَّماح بقتلهم»**.[٤]

في حين أنَ كامو لا يربط المقال السَّابق بحقائق عصره -على الأقل إذا كان يتوقع نشره تحت أعين الرقابة الألمانيَّة اليَقِظَة- يُواجه المتمرِّد بشكلٍ مباشرٍ الإيديولوجيات التي جعلت تلك الحقبة نفسها ممكنة. وقد يعتقد المرء، كما يقول، إنَّ الفترة **«في غضون الخمسين عاماً، تقتلع أو تَستعبد أو تقتل سبعين مليون إنسان، ينبغي أن تُدانَ فوراً»** ولكنَّه يحذِّر من أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة: يجب أيضاً أن نحاول فهم **«غلطة هذا العصر»**.[٥] ويكشف لنا كامو أنَّنا نتحمَّل ذنبنا التاريخي وكذلك الميتافيزيقي عندما نسمح لعقلية التَّمرُّد أن تنمو في الانتقال -أو بالأحرى- التَّحوُّل إلى ثورة.

خلال الأسابيع والأشهر التي أعقَبَت تحرير فرنسا وهزيمة ألمانيا واليابان، ومع تعمُّق الهُوَّة بين الولايات المتَّحدة وروسيا السُّوفييتيَّة، كان كامو قد بدأ بالفعل في استكشاف الفارق ما بين المتمرِّد والثوري. في سلسلة المقالات الافتتاحيَّة التي كتبها عام ١٩٤٦ بعنوان **«لا ضحايا ولا جلَّادون»**، أعلَنَ كامو أنَّ الإرهاب صَعَقَ العالم. لماذا؟ لأنَّ:

> «الإقناع لم يَعُد مُمكناً، لأنَّ الإنسان قد وُلِدَ بالكامل إلى أيدي التاريخ - لأنَّنا نعيش في عالم من التَّجريد، وعالم من البيروقراطيَّة والآليَّة، وعالمٍ من الأفكار المُطلقة، عالم بلا

اتجاه. إنَّنا نتلهَّف للهواء بين الناس الذين يعتقدون أنَّهم على حَقٍّ تماماً، سواء كان ذلك في آلاتهم أو أفكارهم». [٦]

وبطبيعة الحال، لم تكن روسيا الشُّيوعيَّة تحتكر الآلات ووسائل الإنتاج، والأفكار التَّجريديَّة والبيروقراطيَّة. كان كامو مشغولاً بشدَّة بهذه الميول في الثَّقافة والسِّياسة الأمريكيَّة. كان صوته، إلى جانب صوت فرانسوا مورياك، هو الصوت الوحيد في الصَّحافة الفرنسيَّة الذي لَم يُسمَع عن أنباء هيروشيما. في مقال افتتاحي نُشِر في الفترة القصيرة بين قصف هيروشيما وناغازاكي، وأعلن كامو أنَ «**حضارة الآلة قد حقَّقت أقصى درجات الوحشيَّة**». وبدلاً من الاحتفال بهذا الحدث الذي بدت عليه رائحة «البذاءة»، حَثَّ كامو على التَّفكير مَلِيًّا. ولكنَّه لم يَكُن متفائلاً بشأن نتائج التأمُّل:

> «حتَّى قبل الآن لم يكن من السهل التَّنفس في هذا العالم المُعَذَّب. والآن نجد أنفسنا في مواجهة مصدرٍ جديدٍ للكرب، والذي من المرجَّح تماماً أن يكون قاتلاً. من المحتمل أن تكون الفرصة الأخيرة للجنس البشري، وانتهزت الصُّحف هذا الأمر كذريعة لإصدار خاصٍّ: (هناك المزيد! المزيد! اقرؤوا كلَّ شيءٍ عنه!». [٧]

وعلى الرغم من أنَّ التَّهوين من شأن العنف يبعث على القلق، فإنَّ أكثر ما يبعث على القلق هو الجهود المبذولة لإضفاء الشَّرعيَّة عليه. ولهذا السَّبب، شَعَرَ كامو بالصَّدمة إزاء الموقف الذي اتَّخذه بعض الأصدقاء في اليسار الفرنسي الذين كانوا يعتقدون أنَّ الشُّيوعيَّة كانت على الأقل

تبني عصراً أفضل -أو بعبارةٍ ثانية «**أنشودة الغد**». وكان موريس ميرلوبونتي، الذي نشر كتابه «**الإنسانيَّة والإرهاب**» على شكل سلسلة قبل فترة وجيزة من بدء كامو بكتابة «**لا ضحايا ولا جلَّادون**»، رئيس الجوقة غير المرجح أن يكون المسؤول عن هذه العبارة. ميرلوبونتي، العالِم الفينومينولوجي الذي أثَّر عمله بعمقٍ على جان بول سارتر، رَفَضَ أن يُغمِضَ عينيه عن الواقع الوحشي للاتِّحاد السُّوفييتي.

وأشار إلى أنَّه كان من الواضح أنَّ الاتحاد السُّوفييتي كان بعيداً كل البُعد عن «**النُّور البروليتاري للتَّاريخ الذي وَصَفَه ماركس ذات يوم**». ومع ذلك، استمرَّ ميرلوبونتي، إنَّ وجود معسكرات العَمَل القسري السوفييتيَّة لَم تَفشَل في تشويه الماركسيَّة فحسب، بل فشلت أيضاً في إدانة التَّجربة السُّوفييتيَّة. والتاريخ وحده هو الذي «**سيعطينا الكلمة الأخيرة فيما يتعلَق بشرعيَّة حالة معيَّنة من العنف**». ولا يقلُّ عن ذلك أهميَّة، بل أكثر مَدعاةً للقلق، هو أنَّ ميرلوبونتي لاحظ أنَّ العنف ينبض في عروق جميع المجتمعات. ولكن هناك فصائل دم مختلفة: كان النَّمط الشِّيوعي مفضَّلاً إلى حَدٍّ على النَّمط الرَّأسمالي. وخَلُصَ ميرلوبونتي إلى أنَّ السُّؤال هو:

> «أين يتناسب شكل من أشكال العنف مع معنى التاريخ، وما إذا كان يحمل في طيَّاته الوعد بإنكار العنف في المستقبل». [٨]

ونستطيع أن نقول باختصار إنَّ دَم الشِّيوعيَّة، على الرغم من احتوائه على مواد سامَّة، كان ينبض في نهاية المطاف عبر جسد سياسي نشط، في حين كان دَم الرَّأسماليَّة في حَدِّ ذاته بمثابة السُّم

الذي يحكم على الجسد بالموت -أو بعبارة أكثر دقَّة، كان بلا معنى. مثل الكثيرين من اليسار الفرنسي -أو في هذا الشَّأن، في أي مكانٍ آخر على الطَّيف الإيديولوجي- لم يَقبل ميرلوبونتي احتمال أنَّ للتاريخ نهايةً، ودون أي أمَل، وأنَّه كان فارغاً من المعنى، ومحروماً من نهاية معيَّنة. إنَّ الماركسيَّة وحدها تستثمر التَّاريخ بمعنًى ونهايةٍ. ولهذا السَّبب، فهي ليست مجرَّد فلسفة تاريخ، بل هي:

«فلسفة التاريخ، والتَّنديد بها هو حفر قبر للعقل في التاريخ. بعد ذلك لن يكون هناك المزيد من الأحلام أو المغامرات».[٩]

لم يَردَّ ميرلوبونتي بشكلٍ مباشر على سلسلة مقالات كامو. ولعلَّه كان من غير الضَّروري أن يفعل ذلك. بعد وقتٍ قصيرٍ من نشر ميرلوبونتي لجزءٍ من كتابه الخاصّ في مجلَّة «**الأزمنة الحديثة**»، وهي المجلَّة المؤثِّرة الأولى التي حرَّرها سارتر وبوفوار معاً، اصطدم كامو معه في أثناء حفلٍ في شقَّة صديق مشترك. ونشب جدالٌ بين الاثنين حول المقال؛ هَبَّ سارتر للدِّفاع عن ميرلوبونتي، الذي بدا أنَّه فوجِئ بهجوم كامو الغاضب. وانتهت المواجهة فقط عندما غادَرَ كامو الشَّقة بغضب أبيض. وهَرَعَ سارتر خلفه، دون نجاح، حاول إقناع كامو بالعودة إلى المجموعة. على الرغم من أنَّ صداقة كامو مع سارتر نَجَت من الخلاف، إلا أنَّ خطوط المعركة بين ذوي الأقدام السُّود وأصدقائه الباريسيِّين قد رُسِمَت ملامحها.

وفي الواقع، حُفِرَ الخندق بشكل أعمق من قبل إيمانويل دي أستير دي لا فيجيري. وهو أرستقراطي بدأت مسيرته الفكريَّة في

عشرينيَّات القرن العشرين من أقصى اليمين وانتقل بشكل تدريجي إلى اليسار، وخاصَّةً بعد مشاركته في الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة والمقاومة الفرنسيَّة، عندما دخل فلك الحزب الشِّيوعي الفرنسي، ويُعَدُّ دي أستير واحداً من أبرز الشَّخصيَّات في الفيلم الوثائقي المشهور The Sorrow and the Pity لمارسيل أوفولز عن فرنسا الفيشيَّة. مع شعرٍ أبيض يؤطِّر جبهة عالية، وأنبوبة متخفِّية في يده التي تلوح برشاقة، وَصَفَ دي أستير مُقاتلي المقاوَمة بأنَّهم غير أسوياء طبيعيِّين: الرِّجال والنِّساء الذين لم يتمكَّنوا من العثور على مكان لهم في مجتمع السِّلم، ولم يكتشفوا أنفسهم إلا خلال الحرب والاحتلال فقط.

ومع ذلك، وبوصفه مُحَرِّراً لصحيفة التَّحرير في فترة ما بعد الحرب Libération، المَدعومة من قِبَل الحزب الشِّيوعي الفرنسي، بدا دي أستير عازماً على التكيُّف مع نظرة الحزب الخاصَّة إلى العالم. وعند نشر «**لا ضحايا ولا جلَّادون**»، وجَّه دي أستير لكامو لكمةً على الأذن تحت ستار المراجعة. ومن خلال إدانة جميع أشكال العنف الفوري، أنكَرَ كامو أي مبرِّر لوجود المقاومة الثَّوريَّة. وفي استعارة لا بدَّ أن تكون قد أثَّرت بشدَّة على كامو، قال دي أستير إنَّ زميله المُناضل في المقاوَمة قد يدعم حركة تهدف إلى استئصال مَرَض السُّلِّ من دون تزويده بالوسائل اللازمة للقيام بذلك. وبدلاً من ذلك، أصبح كامو بالنِّسبة لدي أستير أكثر قليلاً من مجرَّد مدافع عن اللِّيبراليَّة والوضع الرَّاهن للمجتمعات الغربيَّة. في بعض الأحيان، العنف وحده -كما أعلن

في عنوان مراجعته- يمكن أن ينزع الضحيَّة من قبضة الجلَّاد.[١٠]

وكما أوضح كامو في رَدِّه، فإنَّ مُذَكَّرة دي أستير بشأن العنف السِّياسي أثارت السُّؤال المَطروح. كان كامو يدرك أنَّ العنف أمرٌ لا مَفَرَّ منه: «**لقد علَّمني ذلك سنوات تحت نير الاحتلال**». ولكن ما كان يرفضه دوماً هو الخطأ في تفسير استحالة شرعيَّته. «**العنف لا يمكن تجنُّبُهُ ولا تبريره في آنٍ معاً**». ونتيجة لهذا فإنَّ واجبنا يتلخَّص في عزل العنف، وجعل استخدامه استثنائيًّا ومَدروساً، والتَّذكير بأكبر قَدرٍ مُمكِنٍ من الوضوح والحيويَّة بما قد يفعله بكلٍّ من هؤلاء الذين يستخدمونه، وأولئك الذين يُستَخدَم ضدَّهم. قال كامو لدي أستير:

> «لديَّ رعبٌ من العنف السَّهل والمُبَرَّر، لدَّي رعبٌ من أولئك الذين تتجاوز كلماتهم أفعالهم. ولهذا السَّبب أقفُ بعيداً عن تلك العقول العظيمة وعن [أولئك] الذين سأحتقر مناشداتهم للقتل حتَّى يستخدموا هم أنفسهم بندقيَّة الجلَّاد».[١١]

*****

ربَّما كان ميرلوبونتي، الذي استمتع باقتباس عبارة من أنطوان دي سانت إكسوبري -الإنسان هو شبكة من العلاقات، وهذا وحده ما يهمُّه كثيراً- ربَّما كان يفسِّر مواجهته من حيث العلاقات غير المستقرَّة لكامو مع عالم المثقَّفين الفرنسيِّين.[١٢] ومع ذلك، بالنِّسبة لهذه الطبقة العاملة، التي تختلف خبراتها وتوقُّعاتها بشكلٍ كبيرٍ عن دائرة أصدقائه الباريسيِّين، كان هناك شيء آخر، شيء

أعمق يهمُّ البشر، وهو البحث عن معنى للعالم ولحياتنا. أو بعبارةٍ أدَقَّ، هناك الحاجة المُلِحَّة، والمُراوغة، إلى شيءٍ ما أو شخصٍ ما يقف خارج حياتنا وعالمنا، وبالتالي يبرِّرها ويبرِّر وجودنا نحن.

إنَّ العَبَث، أو صَمت العالم في مواجهة مطالبنا، يَكمُنُ في نهاية هذا المَسعى. ولكن على الرغم من أنَّ هذه الغاية مُقَرَّرَة سَلَفاً، فإنَّ استجابتنا ليست كذلك. إنَّ دافعنا العميق، بمجرَّد أن نُدرِكَ أنَّ الصمت لن ينتهي أبداً، هو رَفضٌ لهذه الحالة. أن تصرخ بـ «لا» للعالم كما هو، وأن تصرخ بـ «نعم» للعالم كما ينبغي أن يكون. ويُعلِنُ كامو أنَّ التَّمرُّد:

> «ينشأ عن مشهد انعدام المنطق، أمام وضعٍ جائرٍ مُستَغلَقٍ، ولكنَّ توثُّبَه الأعمى يطالب بالنِّظام وسط الفوضى، وبالوحدة في صميم الزَّائل المتلاشي. إنَّه يصرخ بإلحاح، يريد أن تتوقَّف المهزلة، وأن يستقرَّ أخيراً ما كان يُسَطَّر حتَّى الآن، وبلا انقطاع على صفحة البحر».[١٣]

كانت المشكلة أنَّ العديد من الرِّجال والنِّساء، العاجزين عن التعايش مع هذا الغضب الدَّائم الذي يعتمل داخل عقولهم الذَّكيَّة، قد اتَّخذوا السَّراب والأوهام على أنَّها حقيقة واقعة. وحيث لا يمكن اكتشاف المعنى، فقد فُرِضَ ببساطة على فوضى التَّاريخ. وعلى الرغم أنَّ **المعنى** لا يتطابق مع **الفعل**، كما حَذَّرَت حَنَّة آرنت، كما أنَّه لا يتبلور في العقل البشري إلا بعد إنجاز الأفعال، فإنَّ الإيديولوجيَّات الحديثة قد شوَّشت كِلا المفهومين.[١٤] وكان ذلك هو الحال بشكلٍ

خاصٌّ مع الشِّيوعيَّة، التي أكّدت أنَّ نهاية التَّاريخ ستصل مع انتصار الطَّبقة العاملة، وولادة المجتمع غير الطبقي. إنَّ صنع هذا التَّاريخ يستلزم حتماً كَسرَ عددٍ لا يُحصى من الرِّجال والنِّساء. ولكن كما يتساءل كامو بتجهُّم، وما أهمِّيَّة ذلك:

«في القدس الجديدة هذه، التي تردِّد صدى الآلات المعجزة، من سيتذكَّر صرخة الضَّحيَّة؟».[١٥]

ومن بين الأمثلة الرائعة والمتناقضة استعداد ميرلوبونتي ذاته للالتزام بجرائم الشِّيوعيَّة من أجل إنقاذ المعنى. وعلى غرار إيمانويل كانط، الذي خاف من أنَّ التَّاريخ، من دون الاعتقاد بأنَّ التَّقدُّم موجود، كان «**مساراً بِلا معنى للشؤون الإنسانيَّة**»، أو لوحة حزينة من «العشوائيَّة الكئيبة»، فقد شعر ميرلوبونتي بالخزي إزاء الاحتمال نفسه. ولمنع التَّاريخ من الانزلاق إلى مَهزَلَة، راهَنَ ميرلوبونتي على أنَّ العقل، المُقنَّن بالماركسيَّة، والذي يَضمَن معنىً للتَّاريخ -أو الذي يرقى، بالمقدار نفسه، إلى تحقيق غاياته. يرى كامو أنَّ الشِّيوعيِّين وزملاءهم الأُميِّين كانوا حريصين على دَفن عزلتهم أو وحدتهم:

«في حضن الجماهير المُسَلَّحة، مُغَطِّين فَراغ رفضهم بمذهب مَدرسي عنيد، ولكنَّه موجَّهٌ نحو المستقبل، الذي جعلوا منه إلههم الوحيد، لكنَّه مفصولٌ عنهم من قبَل العديد من الأمم التي ينبغي الإطاحة بها والقارات التي يجب السَّيطرة عليها».[١٦]

*****

وبصفته مُحَرِّراً في صحيفة كومبا، أصَرَّ كامو على ضرورة الانتقال من عمل المقاومة ضدَّ الألمان إلى عمل الثورة ضدَّ نظامٍ اجتماعيٍ واقتصاديٍ غير عادل. وكما ذكَّر قرَّاءه في الأسابيع التي أعقبت تحرير فرنسا، فإنَّ الثَّورة ليست تمرُّداً:

> «ما حافظ على المقاومة لمدَّة أربع سنوات كان التَّمرُّد. أو بعبارةٍ أخرى، كان الرَّفض التَّام والعنيد، شبه الأعمى في مستهل الأمر، لقبول الأمر الذي كان يُجبِرُ البشر على الركوع. يبدأ التَّمرُّد بالقلب. ولكن يأتي وقت ينتقل فيه إلى العقل، عندما يتحوَّل الشُّعور إلى فكرة، ويبلغ الحماس العفوي ذروته في العمل المتضافر. إنَّها لحظة الثَّورة».[١٧]

وقبل بضعة أشهر فقط، في ١٥ آذار/ مارس ١٩٤٤، بدأ «برنامج CNL» بالانتشار في فرنسا المحتَّلة من قبل النَّازيِّين. كانت الوثيقة من عمل المجلس الوطني للتَّحرير، وهو تجمُّعٌ من ممثِّلي حركات المقاومة في البلاد والأحزاب السِّياسيَّة، الذي كانت مهمَّته الفوريَّة تنسيق تحرير فرنسا مع الحلفاء والجنرال ديغول الفرنسيِّ الحُرِّ. وكان الميثاق، كما أطلق عليه «البَرنامج» في وقتٍ لاحق، بمثابة جهد بطولي لرَبط التَّحرير الوشيك لفرنسا بسلسلة من الأحداث التي بدأت لأوَّل مرَّة مع الاستيلاء على سجن الباستيل. كما أعلنت صحيفة سرِّيَّة أخرى، Les Cahiers politiques، أنَّ المقاومة في فترة ما بعد الحرب «ستستعيد الخيط الذي انقطعَ عام ١٧٨٩». ولم يكن يعني ذلك أقل من:

«ديمقراطيَّة حقيقيَّة، مُتَحَرِّرَة من حكم المال، قُوَّة مُستَمَدَّة من الشَّعب ولكنَّها مستقرَّة، وقُدرة الأمَّة على التَّصرُّف العادل في ثرواتنا المشتركة، وحياة كريمة للعمَّال الأحرار، وتقاسم المسؤوليات الاقتصاديَّة من قبل الجميع، وليس من قبل قلَّة فقط».[١٨]

وقد رَدَّدَ الميثاق صدى هذه المثاليَّة وقَنَّنَها. وأكَّدَ مؤلِّفوه في ديباجته على أنَّ الكفاح ضدَّ النَّازيِّين سيستمرُّ ضدَّ القوى الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة القمعيَّة التي كانت راسخة في فرنسا قبل الحرب. وعندئذ فقط يمكن للأمَّة أن تستعيد «**توازنها الأدبي والاجتماعي وأن تكشف للعالم مرَّة أخرى عن عظمتها ووحدتها**». ولتحقيق هذه الغاية، اقترح الميثاق مجموعة من القوانين الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة. وهناك مطالب عدَّة، مثل «**احترام الإنسان**»، و»**المُساواة المُطلَقَة بين جميع المواطنين أمام القانون**»، تشير مباشرةً إلى الواقع الدَّموي للاحتلال. كما دعا الميثاق إلى «**إقامة ديمقراطيَّة اقتصاديَّة واجتماعيَّة حقيقيَّة**»، و»**عودة الاحتكارات الكبرى إلى الأمَّة**»، و»**التَّنظيم العَقلاني للاقتصاد الذي يضمن امتثال المصالح الخاصَّة للمَصلحة العامة**»، و»**مشاركة الموظَّفين في إدارة شركاتهم**». وعلاوةً على ذلك، طالب الميثاق بإنشاء ضمان اجتماعي كامل، بما في ذلك التَّأمين الصِّحِّي والمعاشات التَّقاعديَّة، إلى جانب تحديد أجور عادلة.[١٩]

وقد تماشى الميثاق مع العديد من المطالب الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة التي أطلقها كامو في افتتاحيَّاته بصحيفة كومبا. ويصرُّ

ميشيل أونفرا في سيرة كامو الذَّاتيَّة على أنَّ فهم كامو بشكلٍ كاملٍ من دون الاعتراف أولاً بتبنِّيه لتقاليد فرنسا المتمثِّلة في النِّقابيَّة الرَّاديكاليَّة، وخاصَّةً في أعمال منظِّر القرن التَّاسع عشر جان بيير برودون، الذي زَعَمَ أنَّ تعاونيَّات العمَّال وحدها قادرة على توفير الأساس لمجتمعٍ عادلٍ ومُنصِفٍ. لا شَكَّ أنَّ كامو لَمَّحَ إلى مستقبلٍ أفضل في عالمٍ مُنَظَّمٍ ومنطقيٍّ على هذا النَّحو. فقد أعلَنَ:

«أنا لستُ اشتراكيًّا حقًّا [بل أنا] أتعاطف مع الأشكال الرَّاديكاليَّة للنقابيَّة».[٢٠]

وقد نَدَّدَ كامو مِراراً وتَكراراً بدور المال: حيث حذَّرَ من أنَّ المقاومة «**لن تتمكَّن من إنجاز سوى جزءٍ ضئيلٍ للغاية من مهمَّتنا إذا عثرت الجمهوريَّة الفرنسيَّة غداً على ذاتها، على غرار الجمهوريَّة الثَّالثة، تحت السيطرة الصَّارمة للمال**». ودعا كامو بدلاً من ذلك إلى «**ديمقراطيَّة شعبيَّة حقيقيَّة**»، مُصِرًّا على أنَّ:

«أيَّ نظامٍ سياسيٍّ يَعزل نفسه عن الطَّبقة العاملة لا طائِلَ منه، وأنَّ فرنسا الغد ستكون ما ستصبح عليه الطَّبقة العاملة».[٢١]

ولكن كما يعترف أونفرا ذاته، فإنَّ إشارات كامو إلى برودون نادرة، مثلها كمثل إشاراته إلى النِّقابيَّة الثَّوريَّة في القرن التَّاسع عشر.[٢٢] كان كامو ثوريًّا، نوعاً غريباً من الثَّوريِّين، أقلَّ برودونيًّا أو ماركسيًّا منه أخلاقيًّا. وعندما تساءَل أحد زملاء دي أستير عن مدى إلمامه بكتابات ماركس، ولا سيما تحليله للحريَّة، كان رَدُّ كامو عميقاً وفخوراً، وكان من المُحتَّم أن يُغضِبَ مُنتقديه أكثر:

«هـذا صحيـح. لقـد كان البؤس هـو مـا علّمنـي عـن الحرِّيَّة.
لكـنَّ أغلبكـم ليـس لديـه فكـرة عن مـا تعنيـه هـذه الكلمـة».[٢٣]

بعـد أن عـاش حياتـه بين المستفيدين ظاهريًّا مـن الشّـيوعيَّة، لم يَكُن لـدى كامـو أيُّ صَـبرٍ عـلى النَّظريَّـة وممارسـيها. وكـما هـي الحـال مـع بوتشـو وصديقـه الألمـاني، كذلـك الحـال مـع المُنَظِّريـن الإيديولوجيِّين للحـرب البـاردة مـن اليمـين واليسـار: «**إنَّهـم يفتقـرون إلى الخيـال عندمـا يتعلَّـق الأمـر بمـوت أشـخاصٍ آخريـن**».

كان كامـو منزعجـاً إزاء المَهَمَّـة التـي استرشـدت بهـا السِّياسـة الخارجيَّـة الأميركيَّـة. فمـن ناحيـة، كان كامـو يحترم روزفلـت بشـدَّة، حيـث كان يـرى فيـه زميـلاً مقاوِمـاً résistant يخـوض حَربـاً ضـدَّ المَـرَض الشـخصيِّ، والإيديولوجيَّـات القاتلـة: «كانـت ضحكاتـه تتمثَّـل في الصَّفـاء الـذي نالـه بشِـقِّ الأنفُـس، ذلـك النُّـوع الـذي نجـده بعـد التَّغلُّـب عـلى العجـز والضعـف»، ولم تَكُـن «**سـعادته الظاهـرة سـعادة راحـة، ولا سـعادة عقـل محـدود لا يمكنـه تصـوُّر مِحنَـة الجنـس البـشري**».[٢٤]

ولكـنَّ كامـو كان أيضـاً يشـعر بالقلـق إزاء الإجهـاد الـذي ينهِـكُ النَّزاهـة الأمريكيَّـة، وكان يكـره أن يـرى فرنسـا عـلى غـرار أمريـكا كـما هـي الحـال مـع روسـيا.[٢٥] وعندمـا زار نيويـورك لفترة وجيـزة في عام ١٩٤٦، صدمتـه العفويَّـةُ والكَـرَمُ الأمريكيَّـان. وفي نهايـة محاضرتـه في جامعـة كولومبيـا، التـي حملـت العنـوان المناسـب «**الأزمـة الإنسـانيَّة**»، أعلـن أنَّ الأمـوال المُخَصَّصَـة لبيـع التَّذاكـر للأطفـال الفرنسـيين قـد

سُرِقَت. وَرَدًّا على ذلك، لم يجمَع الجمهور الكمِّيَّة المَطلوبة من المال فقط، بل زادها. وفي الوقت نفسه، خَدَّرت «صحراء الحديد والإسمنت هذه» كامو، كما خَدَّرَه التَّفاوت الصَّارخ في الثَّروة.[٢٦]

فكتب كامو في مذكِّراته:

«ليلة على نهر باوري. الفقر - ويريد الأوروبي أن يقول: «وأخيراً، الواقع». هناك المتشرِّد المُهمَل والمَنسيُّ تماماً... وعلى بعد خطواتٍ عدَّة فقط، أروع محلَّات فساتين الزِّفاف يمكن للمرء أن يتخيَّلها».[٢٧]

وممَّا يزيد الطين بلَّةً أنَّ كامو كان مُنزَعِجاً إزاء البَراءة المُتَعَمَّدَة والمَحضَة للأمريكيِّين. في لقاء مع مجموعة من الطُّلاب في كليَّة فاسار -ما يفعله الشَّباب هنا يستحقُّ التَّذكُّر- فقد لاحظ كامو أنَّهم عانوا من نوعٍ من الحنين في غير محلِّه:

«في هذا البلد الذي يُبذَل فيه كلُّ شيء لإثبات أنَّ الحياة ليست مأساويَّة، يشعرون أنَّ شيئاً ما ينقصهم».[٢٨]

ولا شَكَّ أنَّ إصابة كامو بالسُّلِّ مرَّةً أخرى خلال زيارته القصيرة أثَّرت في ملاحظاته الكئيبة، لكنَّ أمراً أعمَق كان له تأثيرٌ أيضاً. كان يحدِّق من نافذة القطار وهو يسافر إلى مونتريال، وقد انبَهَرَ، وانزعج من:

«هذا البلد الكبير، الهادئ والبطيء. يشعر المرء أنَّه لم يكن على عِلمٍ تماماً بالحرب. وفي غضون بضع سنوات،

تقدَّمت أوروبا، التي كانت متقدِّمة قرونًا عدَّة في المعرفة، قرونًا عدَّة في الوَعي الأخلاقي».[29]

ولا شَكَّ أنَّ ملاحظاته في دفاتر المذكِّرات تميل إلى التَّصوير في كثيرٍ من الأحيان بقدر ما تتَّسم بالإيجاز. والواقع أنَّ التَّقرير الذي قدمه كامو عن «المعرفة» المتفوِّقة في أوروبا كان مُحيِّراً بقدر ما كان ساخراً، في حين أنَّ الوعي الأخلاقي الأعمق في أوروبا ظاهريًّا، بفضل الحرب والمَحرَقة، لم يفعل شيئاً يُذكَر لمنع حروبها اللاحقة المتمثِّلة في إنهاء الاستعمار في الخارج والإبادة الجماعيَّة في الدَّاخل. إلا أنَّ ملاحظات كامو التوبيخيَّة وتصريحاته عن أمَّةٍ لا يعرفها إلا قليلٌ ليس منطقيًّا أكثر من رفض تاسيتوس بسبب تصريحاته، الشَّاملة والمُعمِّمة بالقدر نفسه، التي تحدَّث بها عن القبائل الجرمانيَّة التي لم يرها قط. لم يَكُن أيٌّ من الكاتبين مؤرِّخاً؛ بدلاً من ذلك، كانا أخلاقيَّيْنِ اتَّخذا من الأمازيغ الماثِلين أمامهم كأمثلة ثمينة لفهم حضاراتهم -أو انتقادها- بشكلٍ أفضل.

لعلَّ هذه البراءة نفسها هي التي جَعَلت الأمريكيِّين مُحصَّنين إلى حَدٍّ كبيرٍ ضدَّ إغراءات الشِّيوعيَّة. (ولكنَّهم كانوا مُنشغلين: لقد تأخَّر كامو ساعات عدَّة في جمارك نيويورك بسبب آرائِهِ السِّياسيَّة على الأرجح، في حين قرأ جاي. إدغار هوفر بعناية كبيرة المقالات عن كامو وزملائه «الوجوديِّين» التي كانت ترسلها حنَّة آرنت إلى مجلَّة Nation من أوروبا).[30]

ومن اللَّافت للنَّظر أنَّه في المجلَّة نفسها التي احتفظ بها في نيويورك، استمرَّ كامو في التَّفكير في العِلَل الأيديولوجيَّة التي

تَكتَنـف أوروبـا، وخاصَّـةً الشَّـيوعيَّة. فقـد كتـب: «**إنَّ فكـرة المسـيحيَّة هـي أسـاس كلِّ تعصُّـب**».[٣١] وقبـل فـترة طويلـة مـن شـيوعيته، كَشَـفَ كامـو عـن العنـصر الألفـي لمـا سـمَّاه «**مملكـة النِّهايـات**».[٣٢] لقـد اسـتغلَّ أسـباب جاذبيتَّـه، كـما اسـتغلَّ خَطَـره. فقـد زَعَـمَ أنَّ الشّـيوعيَّة كانـت تسـتند إلى القناعـة بـأنَّ التَّاريـخ يتدفَّـق نحـو يـوم دينونـةٍ علـماني، يـوم بَلَـغَ ذروتـه بالخـلاص الأرضيِّ للطَّبقـة العاملـة، «**فـما يَهُـمُّ حقًّـا تضحيـة الأفـراد مـا دامـت تسـاهم في خـلاص البشريَّـة جمعاء........سيتوقَّف التَّقـدُّم عـن ممارسـة التَّعذيـب بعـد نهايـة العـالم الصِّناعـي عندمـا يـأتي يـوم المُصالحـة**». أمَّـا بالنِّسـبة للبروليتاريـا، «**فمـن خـلال معاناتهـا وصِراعاتهـا، فـإنَّ المسـيح في صـورة بشريَّـة سـيفدي خطيئـة الاغـتراب الجماعيَّـة**».[٣٣]

والآن أصبـح عـدد الشَّـيوعيين الذيـن ينتظـرون نهايـة الأيَّـام أقـلَّ مـن عـدد المسـيحيِّين الذيـن ينتظـرون نهايـة أيَّامهـم. ولكـن لم تكـن هـذه هـي الحـال حتـى الآن في أوروبـا مـا بعـد الحـرب تحـت عبوديَّـة الشِّـيوعيَّة السُّـوفييتيَّة. قَـرَّر كامـو أن يصبـح، عـلى حـدِّ تعبـير تـوني جـوت، «**المُتَحَـدِّث باسـم الواضـح**».[٣٤] ولكـنَّ المشـكلة بطبيعـة الحـال تَكمُـن في أنَّ قلَّـةً مـن النَّـاس عـلى اليسـار في ذلـك الوقـت كانـوا يعتقـدون أنَّـه واضـح. ولعـلَّ قـوَّة الهجـوم الـذي شَـنَّه كامـو عـلى إيديولوجيـا مارَسَـت تأثـيراً ونفـوذاً هائلـين عـلى السِّياسـة الفرنسـيَّة، فضـلاً عـن سياسـات الضِّفَّـة اليـسرى، كانـت راجعـة إلى انشـغاله شـخصيًّا بالشِّـيوعيَّة كطالـبٍ في الجزائـر العاصمـة. وربـما دفعـه عَـدَمُ رضـاه عـن هـذا الفصـل مـن ماضيـه الى كتابـة الفُصـول التَّاليـة التـي لم

تُكتب بعد بأكبر قَدرٍ من الأمانة والصِّدق.

ولكن ببساطة أكثر، وكما يقترح جوت، كان كامو مَدفوعاً **«باهتمامه المستمرِّ بالعدالة»**.[٣٥] فلم يَكُن الأمر أنَّه سعى إلى عالمٍ لا يَقتل فيه النَّاس بعضهم بعضا -لا يمكن لأيِّ شخصٍ عاقلٍ أن يسعى إلى ذلك كهدف- ولكن بدلاً من ذلك **«عالم لا يتم فيه تبرير القتل»**. وكان هدفه **«المُتَواضع»**، نتيجةً لذلك، هو **«إنقاذ الأجساد»** -وفي الواقع، أجساد كافية **«للحفاظ على إمكانيَّة مفتوحة للمستقبل»**.[٣٦] وإذا ما كان لهذا الهدف أن يتحقَّق، اعتقد كامو أنَّه كان عليه أن يوضِّح، لنفسه وللعالم، الفرق بين التَّمرُّد والثَّورة.

*****

«لطالما كان لدى نيمسيس صديقة معها اسمها إيدوس. في يوم من الأيَّام سيُتَرجَم اسماهما إلى انتقام وعار، ولكن في ذلك الوقت الذي نتحدَّث عنه، عندما خرجتا للتَّوِّ من السَّحابة السَّوداء، كانت طبيعتهما أكثر تعقيداً وتنوُّعاً بكثير. ما القواسم المشتركة بينهما؟ إنَّ مفهوم الإهانة أو العار/ أيدوس Aidos منع البشر من إهانَة الآخرين. أمَّا مفهوم الانتقام Nemesis فيمثِّل العواقب الحتميَّة للإهانة. لقد اتَّحدا في رؤية للحياة كشيءٍ يُجرح ثُم يتلوَّى».[٣٧]

يُذكِّرنا روبيرتو كالاسو، في مجموعته عن الاختلافات في الأساطير اليونانيَّة، بأنَّ الفنَّانين اليونانيِّين، من الملاحم مروراً بالمآسي، فكَّروا باستمرار في مفهوم الحَدِّ، وأعادوا صياغته دون

مراجعة شخصيَّته الأساسيَّة. وهكذا، يروي هوميروس كيف أنَّ الخاطبين في إيثاكا، بعد أن ازدروا أيدوس بانتهاك قواعد الضِّيافة/ زينيا xenia، ذُبِحوا على يد نيمسيس في شكل أوديسيوس. بعد قرون، أعطى بروميثيوس إسخيليوس الإنسان هِبَة النار، متجاوزاً الحدود التي فرضها زيوس، والذي سرعان ما جُندِلَ إلى صخرة للأبد.

لم يخرج نيمسيس مع دخول العقل إلى اليونان في القرن الخامس؛ إنَّما تغيَّر مظهره ببساطة. لقد تحوَّل من ألوهة إلى مبدأ. وهذا هو الحال على وجه الخصوص مع المؤرِّخين، الذين حكموا في نظرهم تدفُّق الأحداث. وفي رواية هيرود عن الحروب الفارسيَّة، ينصح أحد مستشاري أحشويرش بعدم غَزو اليونان: «أترى كيف أنَّ الكائنات الحيَّة التي تفوق غيرها حجماً التي يضربها الإله بالبرق دون أن يسمح لها بإظهار عظمتها، في حين أنَّ الكائنات الصَّغيرة لا تَخِزُ خاصرة الإله للفعل؟».[٣٨] وبالطبع، يُصغي أحشويرش لنصيحة مستشاره، وزحف غرباً لجَرح اليونانيِّين، فَجُرِحَ هو بدوره.

يشير كامو في **الإنسان المتمرِّد**، لفترةٍ وجيزة إلى **«جَرح»** أحشويرش المذهل لليونانيِّين -أي غزوه لشبه الجزيرة، وحرق أثينا- تلاه جرحٌ قاتلٌ تلقاه في المقابل: تدمير أسطوله، والتَّراجع إلى بلاد فارس. والمناسبة التي يرويها كامو هي ضرب أحشويرش لمضيق البوسفور عندما أخَّرَت عاصفة هوجاء غزوه لليونان:

«إنَّ القَدَر الإغريقي نفسه هو قوَّة عمياء يُخضَعُ لها مثلما يُخضَع للقوى الطَّبيعيَّة. ومُنتهى الجنون بنظر الإغريقي أن يُجلَدَ البحر بمِقرَعَة، إنَّه جنونٌ يليق بالبرابرة». [٣٩]

ولكن بدلاً من مواصلة قصة الإنسان المتمرِّد، والانتقال من الحروب الفارسيَّة إلى الحرب البيلوبونيزيَّة، قام كامو بدلاً من ذلك بصَقلها في روايته **الطاعون**، وهي جزء من الدَّورة البروميثيَّة نفسها التي سَطَّرها في مقاله.

قرأ كامو ثوسيديدس، خليفة هيرودوت، بعناية واهتمامٍ خاصَّين عندما كان يعيش في شامبون سور لينيون في أواخر عام ١٩٤٢. وكان قد ذهب إلى هذه القرية الجبليَّة لإراحة رئتيه المُنهَكَتين، ولكنَّه وجد الوقت والمسافة الكافية للتأمُّل في حدود هذا العَبَث، ولو كقاعدة للعمل في عالمٍ تحاصره قوى استبداديَّة طاغية. بدأ في رسم العمل الذي من شأنه أن يصبح روايته عن مدينة مُحاصَرَة بالطاعون وكيف يستجيب سكَّانها له، ثمَّ نُشِرَت في عام ١٩٤٧. هناك شخصيَّة في واحدة من المُسَوَّدات الأولى، مُدَرِّسٌ كلاسيكي يُدعى ستيفان، يُدرِكُ **«أنَّه لم يَفهَم ثوسيديدس حتى أصيبَ هو نفسه بالطَّاعون».** [٤٠] وينطبق الأمر نفسه على كامو.

تحوم الرِّواية حول تأليف ثوسيديدس عن الطَّاعون الذي اجتاح أثينا بعد وقتٍ قصيرٍ من بداية الحرب مع أسبارطة. وبالإضافة إلى عشرات المعارك البرِّيَّة والبحريَّة والحصار والنَّهب

التي امتدت عبر رُبعِ قَرنٍ من الحَرب، كان الطَّاعون، كما أعلَنَ ثوسيديدس في بداية عمله، هو الذي تَسَبَّبَ في أكبر قدرٍ من المعاناة.[41] وقد تأثَّر كامو كثيراً بهذا التَّقييم اللافت للنَّظر. ولم يكتفِ بتبنِّي مَراحل الحَدَث التي وَصَفَها المؤرِّخ الأثيني، بل اقتبس أيضاً أسلوب ثوسيديدس الصَّارم والموضوعي ظاهريًّا.

أكثرُ ما يُلفِت النظر في رواية ثوسيديدس عن الطَّاعون هما السُّرعة والقوَّة اللتان طَوَى بهما القانون والتَّقاليد الأثينيَّة. فقد انهارت مؤسَّسات أعظم ديمقراطيَّة في التَّاريخ على الفور تقريباً تحت وَطأة هذا الحدث غير المُتوَقَّع وغير المَسبوق، بالنَّظر إلى التَّعبير البالغ الذي عَبَّرَ عنه بريكليس في خطبته الجنائزيَّة. في غضون أيَّام، تحوَّلت آليَّة المرحلة المعقَّدة في الحياة المدنيَّة والسِّياسيَّة في أثينا إلى فوضى عارمة. أُلقِيَت الجثث بلا مبالاة في مقابر جماعيَّة، وتجاهلت الأسَر مناشَدات الأقارب المرضى، وكانت المعابد المليئة بالجُثَث يجري اجتياحها من قِبَل الرِّجال والنِّساء الذين طلبوا المساعدة الإلهيَّة، والمواطنون الذين استنتجوا أنَّ الآلهة قد تَخَلَّت عنهم انخرطوا الآن في أكثر أشكال السُّلوك ترويعاً وإجراماً. باختصار، سادت حالة الأنوميا ، أو انعدام القانون، في أثينا -وهي توصيف لحالة قديمة للفراغ الأخلاقي والفكري، يشبه الى حَدٍ كبيرٍ عبثيَّة كوننا.

لكنَّ الأنوميا انتشرت مثل النَّار في الهَشيم تحت أسوار أثينا المُبتَلاة وما وراءها. فبعد أن تَحَرَّرَ الأثينيُّون من القوانين والقيم التَّقليديَّة التي بَدَت الآن وهميَّة، اعتنقوا ما يسمِّيه العديد من

المنظِّرين بالواقعيَّة السِّياسيَّة، ولكنَّهم في الواقع يعتنقون شكلاً من أشكال العدميَّة. وكما يقول فيكتور ديفيس هانسون، دفع الطَّاعون المدينة إلى ما وراء العَتَبة الأخلاقيَّة:

«بمجرَّد أن انحَدَر الأثينيُّون إلى مثل هذا الدَّرَك، كان من المستحيل تقريباً استعادة بوصلَتهم الأخلاقيَّة في السَّنوات اللاحقة».[٤٢]

ولقد كانت الوَفَيات البائسة والاستجابات المروِّعة التي سبَّبها الطَّاعون مجرَّد «النُّذُر غير القانونيَّة»، على حَدِّ تعبير هانسون، للسِّياسات المُتَعَمَّدَة والمَدروسة التي نفَّذها «**الصَّديق الألماني**» الذي وَجَّهَ إليه كامو رسائله في زمن الحرب.

لا يوجد حَدَث يصوِّر هذا الانحطاط الأخلاقي بشكلٍ أفضل من الحَدَث الذي بدا -من منظورٍ استراتيجي- أفضل أكثر بقليل من مجرَّد عَرضٍ جانبيٍّ. في عام ٤١٦ قبل الميلاد، هبطت قوَّة بحريَّة أثينيَّة كبيرة على نحوٍ غير عاديٍ على جزيرة ميلوس، وهي جزيرة صغيرة حافظت على حيادها طوال فترة الصِّراع الذي دام خمسة عشر عاماً بين أثينا وأسبارطة. وأعلَنَ القادة الأثينيُّون أنَّ ذلك لم يَعُد خَياراً مُتاحاً. فبدءاً من اليوم، أنتم إمَّا معنا أو ضدَّنا. اختَرَ الخَيار الأوَّل، وسوف تتقاسم معنا فوائد وأعباء الحليف؛ اختَرَ الخَيار الثاني، وسوف ندمِّرك. احتجَّ الميليُّون المذعورون على الظُّلم الذي سبَّبه هذا الإنذار النهائي والجائِر -ولكن دون جدوى. وسرعان ما أوقفهم الأثينيُّون بردِّهم:

> «إنَّ معيار العدالة يعتمد على المساواة في القوَّة للإكراه، وإنَّ الأقوياء يوظِّفون ما لديهم من القوَّة ليفعلوه، ويقبل الضُّعفاء ما عليهم أن يقبلوه».[٤٣]

وكما سخر الأثينيُّون من الآمال التي يُعَلِّقها الميليُّون على شفاعة الآلهة أو الإسبارطيِّين، معتبرين إيَّاها «تَرَفاً باهظاً». وعندما استنفدوا جميع حججهم، رفض الميليُّون الاستسلام. يستنتج الأثينيُّون، الذين يعيشون في وطنهم في عالَمٍ خالٍ من المبادئ الاخلاقيَّة:

> «أنتم فريدون جدًّا في مقدرتكم على اعتبار المستقبل شيئاً أكيداً أكثر ممَّا هو أمام أعينكم، وعلى اعتبار الشُّكوك حقائق واقعيَّة، لمجرَّد أنَّكم تريدون أن تكون كذلك».[٤٤]

ويعود الأثينيُّون إلى سفنهم ثلاثيَّة الصَّواري، ويبدؤون حصارهم، ويَستَولون في نهاية المطاف على المدينة، ويقتلون جميع الرِّجال، ويَستَعبدون النِّساء والأطفال.

وعلاوة على ذلك، عَكَسَت الأحداث التي وقعت في ميلوس القناعة العَدَميَّة والكَفاءة الوَحشيَّة للقوَّات الألمانيَّة التي اجتاحت ما تبقَّى من «المنطقة الحرَّة» في فرنسا بينما كان كامو يدرس ثوسيديدس في لو بانيلييه. هل من الممكن، عندما يقول المبعوثون الأثينيُّون للميليِّين إنَّ «**كَراهيتكم لنا هي دليلٌ على قوَّتنا**» ويُنَفِّذون الإنذار بشكلٍ منهجيٍّ بمجرَّد أن يسيطروا على ميلوس على الأرجح عن طريق صَفِّ السُّجناء الميليِّين وقطع حناجرهم

تُذَكِّر كامو بسياسة الإرهاب النّازيَّة في فرنسا المحتلَّة؟ لا يمكننا أن نعرف قطعاً. ولكن يبدو كأنَّ كامو يجيب في الرِّسالة الأولى الموجَّهَة إلى «صديقه» على الأثينيِّين والألمان على حَدٍّ سواء:

«لا أستطيع أن أصدِّقَ أنَّ كلَّ شيءٍ يجب أن يَخضَعَ لغاية واحدة. هناك وسائل لا يمكن تَبريرها والتَّغاضي عنها».[٤٥]

*****

كان من بين ممتلكات كامو صفحة مُهتَرِئة وصفراء، مُمَزَّقة على ما يبدو من كتابٍ روسيٍّ، تحمل صورة بالأبيض والأسود لإيفان كاليائيف. ربَّما صورة مُلتَقَطَة مِن قِبل الشُّرطةِ القيصريَّة. كان كاليائيف أحد أعضاء الحزب الثَّوري الاشتراكي، وهو حركة راديكاليَّة كانت مُلتزمة بالإطاحة بالنِّظام القيصري، فألقى قنبلة على عربة كان يسافر فيها الدُّوق الأكبر سيرغي في عام ١٩٠٥. دفع الانفجار أشلاءً من جسد الضَّحيَّة في جميع الاتجاهات؛ شُنِقَ مُرتكب الجريمة الذي لم يُحاول الفرار بعد بضعة أشهر. إنَّ وَجهَ كاليائيف الدَّائري وغير الاستثنائي، المُزيَّن بلحية وقبَّعة من الصُّوف، يواجه الكاميرا بنظرة صافية وهادئة، يبدو بطلاً غير مُحتَمَل -حقيقة ربَّما اعترفت بها مسرحيَّة «القتلة العادِلون» Les Justes لكامو في باريس سنة ١٩٤٩، حيث لعب سيرج ريجياني، الممثِّل الايطالي الفرنسي الوسيم، دور القاتل.[٤٦]

وعند مغادرة مسرح هيبرتو، حيث افتتحت المسرحيَّة، سمع أحدُ النُّقَّاد صدفةً تنهُّدات أحد زملائه في المسرح: «خمسة

فصول حول ما إذا كان ينبغي للمرء قتل الأطفال الصِّغار أم لا».
[٤٧] كانت الاستجابة للمسرحيَّة، كما هو الحال مع أعمال كامو المسرحيَّة الأخرى، مختلطة بالتأكيد. تأثَّر البعض بشدَّة بتصوير المسرحيَّة لكاليائيف وزملائه الثُّوَّار وهم يناقشون أخلاقيَّات قتل رجلٍ اليوم بحيث يعرف جميع الرِّجال والنِّساء غداً أفضل، في حين شعر آخرون بالإحباط بسبب افتقار الشَّخصيَّات إلى العمق النَّفسي وحوارهم التَّعليمي. وهنا، كما هو الحال مع مسرحيَّاته الأخرى، رثي كامو، في بعض الأحيان بشكل يشهد، أنَّه قد أسيء فهمه.[٤٨]

ولكنَّ إحباطه، إن لَم يكن مُبَرَّراً بشكلٍ كامل، إلا أنَّه مفهوم. وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ هناك من يقول عن **هاملت**: خمسة فصول بشأن ما إذا كان ينبغي للمرء أن يقتل نفسه أم لا. بالطبع، لم يكن كامو شكسبير، لكنَّه لم يتظاهر بذلك قط. ولم يكن هدفه خلق صورة نفسيَّة، بل كان يهدف بدلاً من ذلك إلى إعادة خلق حَدَثٍ تاريخي، وكما فعل أحباؤه التراجيديُّون اليونانيُّون القدماء، عارَض منظورين أخلاقيِّين لهما القوَّة الإجباريَّة نفسها.[٤٩] وفي المسرحيَّة، يضع كامو كاليائيف أمام أحد المتآمرين، ستيبان فيدوروف، في صراع شَرسٍ حول السُّؤال نفسه الذي سيطرحه كامو، بعد عامين، في بداية **الإنسان المتمرِّد**: هل يمكننا تبرير القتل؟

إنَّ موقف كاليائيف هو «نعم، ولكن». أطلق عليه رفاقه لقب «الشَّاعر» لاستجوابه وأسلوبه اللَّيِّن، وقال لدورا، وهي رفيقة مُمَزَّقة بين واجبها كثوريَّة وحبِّها لكاليائيف: «**الثَّورة، بالطَّبع.**

ولكـنَّ الثَّـورة مـن أجـل الحيـاة لإعطـاء الحيـاة فرصـة، إذا فهمتـم مـا أعنيـه». عندمـا رَدَّت دورا بالحقيقـة البسيطة بأنَّهـم لا يقدِّمـون حيـاةً، بـل يسـلبونها، يحـاول كاليائيـف أن يـشرح لهـا:

«عندمـا نَقتُـل، فإنَّنـا نَقتُـل لكـي نَبنـي عالمـاً لـن يكـون فيـه مزيـدٌ مـن القتـل بعـد الآن. ونحـن نوافـق على أن نكـون مجرمين حتـى يَـرِثَ الأرضَ الأبريـاءُ في النِّهايـة، وهـم وحدهـم».[٥٠]

ولكـن مجـرَّد الموافقـة عـلى التَّحـوُّل إلى مجـرِم لا تكفـي، ولا يكفـي التَّمييـز الدَّقيـق في فعـل الإرهـاب. ولتبريـر فعـل قتـل الـدُّوق الأكـبر، يَخلُـص كاليائيـف إلى أنَّـه يجـب أيضـاً أن يضحـي بحياتـه. مقتنعـاً بـأنَّ الدَّولـة القيصريَّـة أجبرتـه عـلى أن يُصبـح قاتـلاً، قـال كاليائيـف لدورا: **«ثـم أذكِّـرُ نفسـي أنَّنـي سـأموت، أيضـاً، وكلُّ شيء سـيكون عـلى مـا يـرام»**. إنَّ منطـق الُمقايَضَـة القاتلـة لكاليائيـف واضـح: فبموافقتـه عـلى المـوت، يعتقـد «**الشَّـاعر**» أنَّـه يُضفـي الشَّرعيَّـة عـلى قتلـه للـدُّوق الأكـبر. ربَّـما لأنَّـه شـاعر، يبـدو كأنَّـه يَجهَـل تمامـاً الخَلَـل الُمريـع في حجَّتـه: فالحيـاة التـي ضحَّـى بهـا طواعيـة لا تسـاوي حيـاةً أزهِقَـت مـن ضحيَّـة غـير راغبـة في ذلـك.

ولكنَّ دورا أصرَّت على شكوكها، غير قادرة على نسيان أنَّ الحياة التي يتآمَرون لإنهائها هي على وجه التَّحديد، حياة. إنَّها ليست تجريدا، بل لحمٌ ودمٌ؛ إنَّها ليست الوسيلة، بل الغاية الوحيدة. تقول: «**الإنسان إنسان**»، محذِّرةً من أنَّ كاليائيف قد يَكتَشِف وهو يهرعُ باتجاه العربة أنَّه ربما «**لدى الدُّوق الأكبر عينان رقيقتان، ربما ستراه يبتسم لنفسه ويحكُّ**

أذنه. ربَّما - مَن يدري؟ سترى ندبة صغيرة على خدِّه حيث جرح نفسه وهو يحلق ذقنه، وإذا نَظَرَ إليك، في تلك اللحظة.....» يتلمَّس كاليائيف الإجابة، ويصرُّ على أنَّه لا يقتل رجلاً، بل الاستبداد، ومع ذلك يدرك بسرعة عدم كفاية هذا الرَّدِّ. كل ما يمكن أن يأمله، كما يقول لدورا، أنَّ كراهيته لكلِّ ما يمثِّله الدُّوق الأكبر سوف يعميه عن الرَّجل عندما يحين الوقت لإلقاء القنبلة.

ونكتشف أنَّ كراهيَّته عنيفة بما فيه الكفاية لتعميه عن الدُّوق الأكبر، ومع ذلك انتقائيَّة. وبينما يركض نحو العربة، يلتفُّ ليُلقي القنبلة من النَّافذة، يلمح كاليائيف طفلين، ابن شقيق الدُّوق وابنة أخيه، يجلسان قبالة بعضهما. وعندما أخبر رفاقه الذين يشعرون بالقلق عند عودتهم إلى منزلهم الآمن، كان الطفلان:

«يحدِّقان في الفراغ، ويحافظان على استقامتهما. وكم بديا حزينين! يرتديان أفضل ملابسهما وأيديهما مربوطة على أفخاذهما، وكل شيء سار بسرعة. هذان الوجهان الصغيران اللطيفان، وفي يدي ذلك الوزن البَشع. كان يجب أن أرميها عليهم. ببساطة! مباشرة عليهم. لا، أنا لَم أستطِع السَّماح لنفسي بذلك......»[51]

ولكن كما نتعلَّم من ستيبان، الذي يُنصِتُ بغضبٍ متزايد إلى قصَّة كاليائيف، فإنَّ الطِّفلين كان من الواجب قتلهما أيضاً. وبدلاً من إنقاذ روحي هذين الطفلين، يصرخ قائلاً: «إنَّ الجهود التي يبذلها كاليائيف للتَّمييز بين الأهداف البريئة والمُذنبة تَضمَنُ الحكم

على آلاف الأطفال الرُّوس بالموت جوعاً لسنوات قادمة.... الموت بقنبلة موتٌ مريحٌ بالمقارَنة مع ذلك». وبينما يُنصِتُ كاليائيف في صَمتٍ، يصرُّ ستيبان على أنَّنا لن ننتصر في الثَّورة إلَّا عندما «نتوقَّف عن التَّفكير العاطفي في الأطفال، ونصبح أسياد العالم». يحتجُّ كاليائيف بأنَّ مثل هذا المنطق لا يقلُّ استبداداً عن النِّظام الذي يَسعون إلى تدميره، ولكن رَدَّ دورا المُزدَري على ستيبان هو الذي يخترق قلب المواجهة: «عندما يأتي ذلك اليوم، ستكون الثَّورة مَكروهة ومَمقوتة من قِبَل الجنس البشري بالكامل....» وتتابع قائلةً إنَّ سبب هذه الكراهية الشَّاملة واضحٌ: «حتَّى في طريقة الهلاك، هنالك طريقٌ صائبٌ وطريقٌ خاطئ -وهناك حدود».[٥٢]

وعندما يصل خبر مرور عربة الدُّوق الأكبر مرَّةً أخرى في غضون أيام قليلة، يحصل كاليائيف على فرصةٍ ثانية. وهذه المرَّة ينجح: يفجِّر عربة الدُّوق الأكبر، الذي يسافر وحده، ثم يستسلم للشُّرطة. كل هذا يرتبط بشكلٍ وثيقٍ إلى السِّجلِّ التَّاريخي، وكذلك زيارة الدوقة الكبرى الأرملة لكاليائيف المسجون. جعلها كامو تخبر كاليائيف بأنَّها وصلت إلى مكان اغتيال زوجها بعد لحظاتٍ من انفجار القنبلة: «لقد وضعت في النعش كلَّ ما استطعت جمعه. يا لكمِّيَّات الدَّم!»، مع رَدِّ فعلٍ من حزنٍ شديد أو حتَّى من سادية أكبر، أخبرت كاليائيف أنَّ زوجها كان «نائماً قبل ساعتين فقط. فهو يجلس على كرسي وقدماه مرفوعتان على كرسيٍّ آخر، كما كان يفعل في أغلب الأحيان». أمَّا بالنِّسبة للطِّفلة التي عفا عنها كاليائيف في وقتٍ سابق، فتكشف الدُّوقة أنَّها طفلة شقيَّة وقاسية:

«عندما يُطلب منها إعطاءُ شيءٍ للفقراء، تَرفض. إنَّها لن تقترب منهم».

وفجأةً، تنهار تجريدات الاستبداد والبَراءة في التَّفاصيل الصعبة والمُتَّسخة للحياة اليوميَّة. اهتزَّ في البداية من كلام الدُّوقة الكبرى -الاختيار السَّيِّئ للكلمات، في الواقع، لأنَّنا نعرف دائماً أنَّ الطُّغاة والأطفال هم جميعهم بشرٌ أيضاً- يؤكِّد كاليائيف من جديد إيمانه بالقضيَّة التي قَتَلَ وسوف يَقتُلُ من أجلها. يناشد الدُّوقة الكبرى أن لا تَطلُبَ العَفو عنه عندما تهدِّده؛ في نهاية المسرحيَّة، عَلِمَ رفاقه أنَّه مَشَى بهدوءٍ وثباتٍ إلى السَّقَّالة. وكانت إحدى آخر إيماءاته هي **«التَّخلُّص من بقعة الطِّين التي استقرَّت على حذائه»** افعلُ رَجلٍ رَفَضَ أن يكون بطلاً، على ما يبدو، وأصَرَّ بدلاً من ذلك على البقاء إنساناً.

ولكن هل يتخلَّص كاليائيف أيضاً من ذنبه؟ هل نجح كاليائيف، بمبادلة حياته بحياة الدُّوق الأكبر من أجل خَلقِ عالَمٍ أفضل، مُبَرِّراً جريمة القتل العَمَد التي ارتكبها؟ وعكس إجابة الثَّوريِّين، يجيب كامو **«لا، ولكن»**. لقد رَفَضَ الادِّعاء بأنَّ الرَّغبة في فقدان حياة شخصٍ عند قتل شخصٍ آخر متكافئة أخلاقيًّا. وقد كتب كامو أنَّ منطق كاليائيف **«خاطئٌ، ولكنَّه مُحتَرَم»**.[٥٣]

ونستطيع القول إنَّ الاستعداد للموت على هذا النَّحو يشكِّل ضَرورة، ولكنَّه ليس مُبَرِّراً كافيًا لاغتيال طاغية. يقترح كامو أنَّه إذا كان للقتل السِّياسي أن يكون شرعيًّا، يجب أولاً تحقيق معايير معيَّنة

أخرى. ولا يجب أن يقبل القاتل المسؤوليَّة، وأن تكون الضَّحيَّة مُستَبِدَّة فحسب، بل يجب أن يقتصر الفعل الذي يُتَّخذ في حالة عدم وجود بدائل على الطَّرَف «المُذنِب» حصراً.[٥٤] ولا يجب إزهاق أرواح الأبرياء، ويجب على القاتل أن يتخلَّى عن حياته، كما يذكِّرنا كامو في مسرحيَّة «القَتَلَة العادلون» عام ١٩٥٠. ويصرُّ كامو على أنَّ:

«التَّمرُّد لا يمكن أن يؤدِّي، من دون أن يتوقف عن التَّمرُّد، إلى المواساة ووسائل الرَّاحة التي تتَّسم بها العقيدة».[٥٤]

كان جون فولي محقًّا حين أشار إلى أنَّ كاليائيف لا يبرز باستعداده للموت بقَدر ما يبرز بحاجته إلى تذليل الشُّكوك. وما يجعل كاليائيف ورفاقه استثنائيِّين إلى هذا الحَدِّ ليس إيمانهم بأهدافهم -أي فلَّاحون تمَّ إنقاذهم من البؤس والعبوديَّة، أو أمَّة انجرفت نحو مستقبلٍ أفضل- بل شكوكهم المستمرَّة حول شرعيَّة وسائلهم. إنَّ الجذور اللاتينيَّة لكلمة «نزيه جدًّا في أفعاله» تصف موقف كاليائيف على أفضل وجه، كما تصف منظور كامو الأخلاقي ذاته. بالنِّسبة إلى الرُّومان، كانت النَّزاهة، أو فعل ما هو صالح scrupulus حجراً صغيراً وحادًّا عالقا في نَعل المرء، ممَّا يجعل المشي عَمَلاً مُسَلِّمًا به دون أن نفكِّر فيه أبداً -ازعاجاً مستمرًّا.

ومع كلِّ خطوة، يذكِّرنا عدم انزعاجنا بأنَّنا اتَّخذنا للتَّوِّ خطوة. ومن المؤكَّد أنَّ كامو يقول إنَّ الثَّوري المُلتزم بالقتل كوسيلة لتحقيق غاية عظيمة وسعيدة لا بدَّ أن يُعرقَل، فكريًّا وأخلاقيًّا، قبل وقوع الفعل وبعده. فالقتل بسهولة ودون تفكير -الافتقار إلى

الخيال الأخلاقي، مثل بوتشو، لفهم ما يحدث عندما تأمر بقتل الآخرين- هو بالضَّبط ما كان يخشاه كامو أكثر من غيره. وأعلَنَ أنَّ كلَّ ما أتمنَّى القيام به هو «**تفنيد جريمة القتل المشروع، ووضع حَدٍّ واضحٍ لمشاريعه المجنونة**».[٥٥]

*****

يعتقد كامو أنَّ الفكر اليوناني كان قائماً على فكرة الحدود:

«لم يصل أيُّ شيء إلى حَدِّ التَّطرُّف، لا الدِّين ولا العقل، لأنَّ الفكر اليوناني لم يُنكِر أيَّ شيء، لا العقل ولا الدِّين. أعطى كل شيء نصيبه، موازنة الضَّوء مع الظِّلِّ. ولكنَّ أوروبا التي نعرفها، والمتلهِّفة إلى غزو الكلِّ، هي ابنة التَّجاوزات والإفراط... في جنوننا، ندفع الحدود الأبديَّة، وفي الوقت نفسه ينقضُّ علينا الظَّلام الدَّامس ليدمِّرنا. نيمسيس، إلهة الاعتدال، وليس الانتقام، تراقبنا. إنَّها تعاقب بلا رحمة كلَّ أولئك الذين يتجاوزون الحدود».[٥٦]

يربط سوفروسين، وهو النَّموذج اليوناني لضَبط النَّفس، بين التَّمرُّد والثَّورة. فكما يشير مصطلح ضبط النَّفس إلى التوتُّر المستمر بين قوَّتين متعارضتين -توتُّرٌ في اتِّجاهين في مركزهما مساحة للخلق والتَّقدُّم- فإنَّ فعل التَّمرُّد ينمو ويزدهر عند ضغطٍ مماثل. في حين أنَّ الشُّعراء اليونانيِّين المَلحَمِيِّين والمأساويِّين صوَّروا هذا التَّوتُّر من خلال شخصيَّتين متميِّزتين -بينيلوبي وهيلين في هوميروس، بروميثيوس وزيوس في إسخيلوس، أو أجاكس وأوديسيوس في

سوفوكليس- يدمجه ثوسيديدس في شخصيَّة واحدة، بريكليس. وطبقاً للمؤرِّخ فإنَّ الجنرال الأثيني كان يتمتَّع بمزيجٍ من الجرأة والحِكمَة أكثر من أيِّ زعيمٍ آخر. وما قاله عن أثينا في خطبته الجنائزيَّة كان في الواقع صورة شخصيَّة:

> «نحن قادرون في الوقت نفسه على خوض المجازفات وتقديرها مُسبقاً. وهناك آخرون شجعان بدافع الجهل؛ وعندما يتوقَّفون عن التَّفكير يبدؤون بالخوف. ولكنَّ الرجل الذي يمكن اعتباره شجاعاً حقًّا هو الذي يعرف جيِّداً معنى ما هو حُلوٌ في الحياة وما هو فظيعٌ، ثمَّ يخرج دون رادعٍ لتلبية ما سيأتي». [٥٧]

وفي حين لا يشير كامو أبداً إلى الخطاب، إلا أنَّه يعكس وربما يوضِّح فكرته عن التَّوتُّر الإبداعي. كان العالم، في نظر كامو، مسرحاً لنوعين من العبثيَّة: النَّوع الميتافيزيقي القائم على رفض العالم لإعطاء المعنى المطلوب للجنس البشري؛ والعبثيَّة السِّياسيَّة، النَّاتجة عن إصرار الدولة على إعطاء معنى للمعاناة غير المُبَرَّرَة التي تفرضها على مواطنيها. ويؤكِّد كامو أنَّ المتمرِّد يرفض كِلا النَّوعين من العبثيَّة. إنَّها لا تقول «لا» فقط لحاكمٍ ظالم، ولكن أيضاً أن تقول «لا» لعالَمٍ صامتٍ. منذ خطوته الأولى، يرفض المتمرِّد السَّماح لأيِّ شخصٍ بالمُساس بما هو عليه. إنَّه يقاتل من أجل سلامة جزءٍ واحدٍ من كيانه. إنَّه لا يحاول، في المقام الأوَّل، أن يغزو وينتصر، بل ببساطة أن يفرض. أن يفرض نفسه على عالمٍ خالٍ من المعنى: «فالمتمرِّد لا يطلب الحياة، بل أسبابا للعيش». [٥٨] ولكن أيضاً

فـرض نفسـه عـلى أولئـك الذيـن يسـعون إلى إنـكار إنسـانيَّته:

«إنَّه يواجه نظاماً من الأشياء التي تَقمعه بالإصرار على نوعٍ من الحَقِّ في أن لا يُقهَر أو يُضطَهَد بما يتجاوز الحَدَّ الذي يمكن أن يتحمَّله». [٥٩]

بيـد أنَّ الأمـر الأكثـر أهمِّيَّـة هـو أنَّ المتمـرِّد يسـعى إلى فـرض حَـدٍّ لنفسـه. التَّمـرُّد عمـلٌ دفاعـيٌّ، وليـس هجومـا؛ إنَّـه اتـزان؛ تكافـؤ، وليـس تهمـة مجنونـة ضـد الخصـم. في نهايـة المطـاف، مثـل مفهـوم فايـل عـن الاهتـمام، فهـو يقظـة نشـطة فيـما يتعلَّـق بإنسـانيَّة الآخريـن وكذلـك الـذَّات. ومثلـما لا يسـمح العَبَـث باليـأس، ناهيـك عـن العدميَّـة، فـإنَّ تصرُّفـات الطَّاغيـة لا تسـمح للشَّـخص بالتَّحـوُّل إلى مسـتبدٍّ في المقابل. المتمـرِّد لا ينكـر سـيِّده كإنسـان؛ إنَّـه يُنكـره بصفتـه سـيِّده. يُنكـر المتمـرِّد أولئـك الذيـن عاملـوه عـلى أنَّـه أقـلُّ من مُكافـئ لهـم، ولكنَّـه ينكـر أيضاً الإغـراء الحتمـي لتجريـد مضطهـده السَّـابق مـن الإنسـانيَّة:

«إنَّ العَبد يَهُبُّ في الحقيقة لنَصرة الجميع، في الوقت نفسه، وذلك حينما يعتقد بأنَّ هذا الأمر الصَّادر إليه يُنكر شيئاً لا يخصَّنَّه وحده فحسب، بل هو محلٌ مشتركٌ يجد فيه النَّاس جميعاً، حتَّى ذاك الذي يَشتم هذا العَبد ويضطهده، رابطة جاهزة». [٦٠]

والواقـع أنَّ فيسـبوك وتويـتر، اللذيـن كانـا يشـكِّلان عامـلاً حيويًّـا مهـمًّا لنجـاح الرَّبيـع العـربي في عـام ٢٠١١، لم يكونـا في واقـع الأمـر أكثـر مـن وسـيلة تكنولوجيَّـة للوصـول إلى أقـدم الغايـات البشريَّـة. وكـما أدرك كامـو، فـإنَّ التَّمـرُّد ينتقـل دومـاً مـن الاسـتجابة الفرديَّـة إلى

الاستجابة الجماعيَّة. وكما صاغ لحظة الوعي الجماعي هذه، يلعب التَّمرُّد الدَّور نفسه في نضالنا اليومي «**كما يفعل الكوجيتو في عالم الفكر.......... أنا أتمرَّد، إذن نحن موجودون**».[٦١]

إنَّ تصريح كامو لا يتمتَّع بالأناقة المنطقيَّة لصياغة ديكارت، ولكنَّ صداه يتردَّد مع الحقيقة العميقة التي طالما عرفناها: عبر الزَّمان والمكان، ففي التَّمرُّد:

> «يُجاوز الفرد ذاته في الآخرين، ومن وجهة النَّظر هذه، يُعتَبَر التَّضامن البشري تضامناً ماورائيًّا... [إنّه] البدهيَّة الأولى التي تنتشل الفرد من عزلته. إنَّها محل مشترك يرمي القيمة الأولى على البشر جميعاً».[٦٢]

ويستند هذا العمل الجماعي إلى صفاتنا الجديرة بالإعجاب، ولكنَّه يكشف أيضاً عن حالتنا المأساويَّة. وفي هذا الصَّدد، يشبه التَّمرُّد الحقيقي الأثينيِّين البيركليين: لا يمكن أن تدوم لحظة التوازن الدَّقيق بين الجرأة والحذر؛ وعاجلا أم آجلا، سوف تنهار إمَّا إلى طغيان أو رَداءة. لا شَكَّ أنَّ ثوسيديدس كان سيتعرَّف إلى أفكاره في كتاب كامو pensee de midi، أو أفكار الظهيرة، التي يقترح فيها « فلسفة الحدود ». واستناداً إلى الدَّليل على أنَّنا لا نستطيع أن نعرف كلَّ شيء، تخلص الفلسفة إلى أنَّه لا يمكننا أن نفعل ما نشاء أو ما نرضيه للآخرين. فالتَّمرُّد، على عكس الثَّورة، «**يطمح إلى القريب ولا يمكنه إلا أن يَعِدَ بكرامة مضمونة مقترنة بعدالة نسبيَّة. وهي تفترض الحَدَّ الذي يتأسَّس عنده مجتمع الإنسان**»، وبالتالي،

تـأتي الثَّـورة بسـهولة، بينـما التَّمـرُّد «**ليـس سـوى توتُّـر خالـص**». [٦٣]

والواقـع أنَّ هـذا التوتُّـر لا يمكـن أن يسـتمرَّ إلى مـا لا نهايـة ؛ عاجلاً أم آجـلاً، سـوف تنهـار المُثُـل العليـا، وسـيزداد خـداع القـادة، ويصـاب الأتبـاع بخيبـة أمـل. ومـع ذلـك، يؤكِّـد كامـو أنَّ هـذا التَّوتُّـر هـو أفضـل مـا يمكـن أن يحصـل للبشريَّـة. ويـرى مؤلِّـف كتـاب «**الإنسـان المتمـرِّد**» أنَّ أولئـك الذيـن يرغبـون في البقـاء في حـزب الإنسـانيَّة، لا خيـار لهـم سـوى أن يعيشـوا حياتهـم في ظـلِّ هـذا التَّوتُّـر. وفي حـين أنَّـه مـن الممكـن دائـماً أن تـبرِّرَ الغايـة الوسـيلة، فـإنَّ المتمـرِّد لا يفشـل أبـداً في الـرَّدِّ بـأنَّ الوسـيلة وحدهـا تـبرِّرُ الغايـة. وفي نهايـة مقالتـه، خلـص كامـو إلى أنَّ منطـق المتمرِّديـن هـو «**خدمـة العدالـة حتـى لا تزيـد مـن ظلـم الحالـة الإنسـانيَّة، والإصرار على لغـة واضحـة حتـى لا يزيـد مـن الكـذب العالمـي، والرِّهـان عـلى السَّـعادة، عـلى الرَّغـم مـن كل البـؤس البـشري**». وعندمـا ظهـر الكتـاب لأوَّل مـرَّة، رُفِضَـت هـذه العبـارة باعتبارهـا خرافـة سَـهلة تخفـي فراغـاً أخلاقيًّـا داخلهـا. وعـلى الرغـم مـن ذلـك فقـد أصبحنـا الآن أمـام حقيقـة مفادهـا أنَّـه لا يوجـد شيء سـهل عـلى الإطـلاق حسـب ادِّعـاء كامـو، ناهيـك عـن كونـه أجـوفَ. بـدلاً مـن ذلـك، فإنَّـه يعـترف بالشـكوك واليـأس التـي تمـلأ أيَّ جهـدٍ للتَّمـرُّد الحقيقـي. إنَّـه يتطلَّـب منَّـا أن نتعايـش مـع النتائـج المؤقَّتـة والمزاعـم النِّسـبيَّة، مـع البقـاء أحيـاءً حتـى النهايـة القصـوى: أن لا نسـمح أبـداً لتَّمرُّدنـا بالتَّحـوُّل إلى ثـورة.

*****

«خلال الأيّام الأولى للثّورة يجب أن تقتلوا، إنَّ إسقاطَ أوروبيٍّ يعني قَتلَ عصفورين بحجرٍ واحد، والقضاء على الظّالم والمُضطَهَد في الوقت نفسه: يبقى هناك رجلٌ ميِّت ورجلٌ حرٌّ؛ يشعر الناجي، للمرَّة الأولى، بتربة وطنيَّة تحت قدمه». في مقدِّمة كتاب فرانز فانون **مُعَذَّبو الأرض**، أوضح جان بول سارتر أنَّ العنفَ غيرَ المَضبوط، وليس حدوده، واليقينَ المطلقَ، وليس الشَّكَّ، هما السِّمتان السَّائدتان اليوم. نُشِر الكتاب في عام ١٩٦١، بعد مرور عام على وفاة كامو -صديقه السابق الذي أصبح خصمه- في حادث سيَّارة، استُقبِلَت نصيحة سارتر باحتفاء «المَشاريع المجنونة» نفسها التي كانت تلقي بظلِّها الثقيل على الكاتب الأسود.

كان كامو سيُصاب بالصَّدمة، ولكنَّه لم يندهش إزاء دفاع سارتر عن أولئك الذين قتلوا المدنيين كوسيلة للتحرُّر الوطني وتحقيق الذات. في كتاب **القتلة العادلون**، كان ستيبان فيدوروف قد مَنَحَ بالفعل صوتاً مسموعاً لهذا النَّوع من الثَّورة: «**لا حدود!**». قبل وقتٍ قصيرٍ من إطلاق جبهة التحرير الوطني (FLN) تمرُّدها في يوم جميع القدِّيسين في عام ١٩٥٤، كتب كامو في دفتر ملاحظاته:

«في اللحظة نفسها بعد بذل الكثير من الجهود، وَضعتُ الحدود، وإيماناً منِّي بأنَّني قادرٌ على التوفيق بين ما لا يمكن التوفيق بينه، انفَجَرت الحدود وسقطتُ سريعاً في تعاسة صامتة».[٦٤]

ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ كامو كان يصف حالته العقليَّة، التي أنهكتها الشُّكوك الفكريَّة والفنيَّة التي أثارتها ردَّة فعل اليسار الفرنسي الانتقاديَّة إزاء التَّمرُّد. وهناك أيضاً حياته المنزليَّة المريعة على نحوٍ متزايد، والتي كان له دورٌ كبيرٌ فيها: فقد عانت زوجته فرانسين من نوبات متكرِّرة من الاكتئاب الانتحاري، والتي تفاقمت بلا شَك بعلاقة كامو مع ماريا كاساريس، الممثِّلة التي لعبت دور البطولة في فيلم **القتلة العادلون**.

ومع ذلك، سواء عن قصد أو عن غير قصد، كان كامو أيضاً يعمل على تنظيف قماشٍ أكبر كانت خلفيَّته الجزائر مسقط رأسه، والتي تحوَّلت إلى ساحة لثورة لم يعترف أيٌّ من الجانبين بالحاجة إلى وَضع حدود. وبحلول نهاية عام ١٩٥٦، عندما أصبحت الجزائر ساحة معركة بين الجيش الفرنسي وجبهة التَّحرير الوطني الجزائريَّة، داس كلا الطرفين على قواعد الحرب وتخلَّوا عنها. ولأسباب استراتيجيَّة وتكتيكيَّة، أصبح الإرهاب هو النِّظام السَّائد في جبهة التَّحرير الوطني -وهي سياسة تستهدف حتماً السُّكان المدنيِّين. كما أشار أحد قادتها، رمضان عبان:

> «جثَّة واحدة في سترة تساوي دائماً أكثر من عشرين جثَّة في الزِّيِّ الرَّسمي». [٦٥]

تمَّ تبنِّي هذه السِّياسة في ٣٠ أيلول/ سبتمبر، عندما انفجرت قنابل زرعها عناصر من جبهة التَّحرير الوطني في حانتين شعبيَّتين في الجزائر العاصمة، ممَّا أسفَرَ عن مقتل وتشويه العشرات من

المدنيِّين الفرنسيِّين، بما في ذلك العديد من الأطفال. وفي المقابل، أصبح التَّعذيب ممارسة شائعة مع الجيش الفرنسي الذي كانت مهمَّته وضع حَدٍّ للتفجيرات وإخماد الثَّورة.[٦٦] وبَرَّرَ دُعاة الإرهاب والتَّعذيب ممارساتهم بأنَّها شَرٌّ لا بدَّ منه، ولكنَّها وسيلة ضروريَّة لتحقيق غايات خيِّرة؛ لكنَّ غاياتهم «الحَسَنَة» المُتعارِضَة كانت أوَّل مشكلة من بين العديد من المشاكل.

أعلَنَ كامو أنَّ **الإنسان المتمرِّد** كان علامة على جهوده «**لمواجهة واقع الحاضر**». وبعد نشر الكتاب، وصفه بأنَّه يتَّخذ «موقفاً من الأحداث الجارية». في الوقت الحاضر، كان «كامو» يعني الحرب الباردة؛ من خلال الأحداث الجارية، فَهِمَ صعود الشُّموليَّة. ونتيجة لذلك، كان سياق المقال عبارة عن عالَمٍ مُمَزَّقٍ بين الدِّيمقراطيَّات الليبراليَّة في الغرب والأنظمة الشِّيوعيَّة في الشَّرق. إلا أنَّ تحليله للثَّورة لم يقتصر على الاتِّحاد السوفييتي فحسب، بل شمل جبهة التّحرير الوطني أيضاً. كان كامو قد نَدَّدَ بلا كَلَلٍ بالسِّياسات الاستعماريَّة التي حَوَّلَت العرب والأمازيغ إلى غرباء في أرضهم: حَذَّر في عام ١٩٤٥ قائلاً:

«هؤلاء النَّاس ليسوا أدنى شأناً إلا فيما يتعلَّق بالظُّروف التي يتعيَّن عليهم أن يعيشوا في ظلِّها، وعلينا أن نتعلَّم منهم بقدر ما يتعلَّمون هم منَّا. والواقع أنَّ العديد من الفرنسيِّين في الجزائر وأماكن أخرى من العالم يتصوَّرون العرب باعتبارهم جماهير بلا شَكلٍ ولا اهتمامات».[٦٧]

ثم خاطَبَ رفاقه من ذوي الأقدام السُّود مُحَذِّراً ومعتبراً:

«عَـرَب الجزائـر ككتلـة، وكأمَّـة مـن القَتَلَـة. والغالبيَّـة العظمـى منهـم، الذيـن تعرَّضـوا لـكلِّ مـرضٍ محتمـل، عرفـوا نوعـاً مـن الضِّيـق يمكنهـم وحدهـم التَّعبيـر عنـه».[٦٨]

ولكـن لا أحـد كان يصغـي. فقبـل أن يلتـفَّ في صمتـه إزاء أهـوال الحـرب الأهليَّـة المُتَصاعـدة، اسـتمرَّ كامـو في طـرق الجرائـم التـي ترتكبهـا فرنسـا في إطـار جهودهـا المشـؤومة للإبقـاء عـلى وضعهـا الرَّاهـن الـذي دام قرنـاً مـن الزمـان في الجزائـر. في مقدِّمـة مقالاتـه الجزائريَّـة، التـي نُـشِرَت في أعقـاب معركـة الجزائـر، قـال كامـو بصراحـة: «**الانتقـام ضـدَّ السُّـكَّان المدنيِّـين وممارسـة التَّعذيـب هـي جرائـم نحـن متورِّطـون فيهـا جميعـاً**». إنَّ مسـؤوليَّة الفرنسـيِّين مـن الرِّجـال والنِّسـاء عـن مثـل هـذه الأفعـال «**هـي إهانـة يتعـيَّن علينـا أن نواجههـا مـن الآن فصاعـداً**». وفي غضـون ذلـك، أعلَـنَ، «**يجـب أن نرفـض أيَّ، وكلَّ المُـبَرِّرَات، حتـى تلـك المتعلِّقـة بالفعاليَّـة، لهـذه الأسـاليب**». وفي اللحظـة التـي نتظاهـر فيهـا بإمكانيَّـة تبريرهـا، «**لـن توجـد قواعـد أو قيـم، وسـتكون جميـع القضايـا متسـاوية، وسـتُكرِّس حـربٌ لا يحكمهـا القانـون انتصـار العدميَّـة**».[٦٩]

ومـا أثـار فـزع واسـتياء الأصدقـاء والأتبـاع السَّـابقين في اليسـار الفرنـسي، أنَّ كامـو لم يكـن أكثـر رفقـاً بجبهـة التَّحريـر الوطنـي. في حين أنَّـه ربَّـما كان سـاذجاً في قناعتـه بـأنَّ الحَلَّ السِّـياسي الـذي لا يرقى إلى الاسـتقلال الكامـل لا يـزال قائـماً في خمسـينيَّات القـرن العشريـن،

فقد تنبَّأ كامو بمستقبل الجزائر تحت قيادة جبهة التَّحرير الوطني. وأكَّد أنَّ الرَّغبة العربيَّة في الحرِّيَّة والمساواة كانت عادلة، ولكن الوسائل والأساليب التي اعتمدتها جبهة التَّحرير الوطني كانت جائرة وغير عادلة بشكلٍ قاتل. وكان عداء كامو الرَّاسخ تجاه جبهة التَّحرير الوطني مَدفوعاً باستعداد الحَركة لاستخدام جميع الوسائل لتحقيق غاياتها. لم يكن هدفها باستقلال الجزائر هو ما أدَّى، بالنِّسبة لكامو، إلى استبعاد جبهة التَّحرير الوطني كممثِّلٍ للشَّعب الجزائري. وبدلاً من ذلك، كما يشير ديفيد كارول، فإنَّ:

«طبيعة المنظَّمة ذاتها والحملة الإرهابيَّة التي شنَّتها ضدَّ مختلف فئات السُّكَّان المدنيِّين في الجزائر منذ عام ١٩٥٤ قد أفقَدَتها شرعيَّتها». [٧٠]

لا يمكن لأهداف جبهة التَّحرير الوطني، بصرف النَّظر عن مدى رغبتها في ذلك -وكان كامو محقًّا في خوفه من أمَّة محكوم عليها بدولة استبداديَّة شموليَّة يحكمها حزبٌ واحدٌ، أن تبرِّر أبداً نظام الرُّعب الذي أقاموه ضدَّ المدنيِّين من ذوي الأقدام السُّود والعرب. ماذا كان كاليائيف ليفعل؟ كانت الإجابة في رأي كامو بسيطة وواضحة: هو ورفاقه الثوريُّون «كانوا سيفضِّلون الموت -لقد قدَّموا لنا الدَّليل- على الانحطاط بأنفسهم» إلى مستوى قتل الأبرياء. [٧١] وقد يكون ازدهاراً رومانسيًّا، أو من المحتمل أن يكون مبدأً غير عمليٍّ؛ لكنَّه الأساس الوحيد لأخلاقيَّات تستحقُّ اسمها، وسيتَّفق معنا محمد البوعزيزي بشأن ذلك.



خَاتمة



خلال معظم فترة الخمسينيَّات من القرن الماضي، كافح كامو تحت وطأة سمعته العامَّة. كتب في مذكِّراته: «**أنا رجلٌ عادي، [و] القيم التي يجب أن أدافع عنها وأوضِّحها اليوم قيم عادية. إنَّها تتطلَّب موهبة أشكُّ في أنَّني أمتلكها**». وكما ظهرت ردَّة فعل التَّواضع الفكري هذه في مقابلةٍ قُدِّرَ أن تكون الأخيرة لكامو، أُجرِيَت قبل شهرٍ من وفاته. عندما أشار المُحاوِر إلى أنَّ كامو كان مُرشِداً لجيله، كان رَدُّه واضحاً وفوريًّا: «**أنا لا أتكلَّم باسم أحد: لديَّ صعوبة كافية في العثور على كلماتي الخاصَّة. أنا لا أُرشِدُ أحداً: أنا لا أعرف، أو أعرف إلى حَدٍّ ما، إلى أين أنا ذاهب**».[١]

لا شَكَّ أنَّ كامو صَقَلَ شخصيَّته العامَّة حتى عندما سَخِرَ من أوراق اعتماده أو أنكرها كشخصيَّة عامَّة. في مذكِّراته الخاصة، هناك أكثر من بضع لمحات من التَّواضع الزَّائف والمواقف العبثيَّة. ربما كان قد تأثَّر بالشهرة ولقاء المشاهير، لكنَّ كامو لم يَكُن مفكِّراً

عامًّا عَرضيًا. وبصفته صحفيًا ومُحَرِّراً، وروائيًا وكاتباً، ومسرحيًا ومخرجًا، سعى كامو باستمرار إلى جذب انتباه الجمهور. وبينما كان يشكُّ أحياناً في أنّه يستحقُّ كلَّ هذا الاهتمام، ولا سيما خلال العقد الأخير من حياته، إلا أنّه كان يُجرَح عادةً عندما يشاركه الآخرون هذه الشُّكوك. وقد كانت اللكمة التي تلقَّاها من سارتر في أثناء خلافهما على كتاب الإنسان المتمرِّد -مزيج الغرور الكئيب والضَّعف عادةً ما يثبِّط النَّاس عن إخبارك بالحقائق الصَّريحة- مؤلمة بشكلٍ عميقٍ لأنّها تحتوي على بعض الحقيقة.[٢]

ولكنَّ ذلك لا يقلِّلُ من مكانة كامو كرجلٍ أخلاقي. بل على العكس، كان لهذا العيب فضائله بجعله أقرب إلينا. فكثيراً ما كان كامو يشعر بعدم الارتياح إزاء نفسه كغيره من النَّاس معه. في كثيرٍ من الأحيان، كان كامو يتذمَّر مِراراً عندما ينظر إلى صورته العامَّة، «فالفضيلة ليست بغيضة. لكنَّ الخُطب عن الفضيلة. بدون شَكٍّ، لا يوجد فم في العالم، ناهيك عن فمي، يمكن أن يَنطِقَ بها. وعلى نحوٍ مماثل، كلَّما تدخَّل أحدٌ ما للحديث عن صراحتي، ارتجف شخصٌ ما بداخلي».[٣] وليس هناك سبب للشَّكِّ في صحَّة هذه التعبيرات المتكرِّرة والمؤلمة عن الشَّكِّ بالذَّات.

لو كان كامو حيًّا اليوم، لكان لا يزال يرتجف. وكثيرون جدًّا من الكتَّاب، بمن فيهم أنا نفسي، يذكِّرون الآخرين بأسباب إعجابهم بكامو. ولو كان فلوبير حيًّا اليوم لكان من الممكن أن يضيف إلى قاموسه للأفكار المتلقَّاة: «كامو: رجلٌ طيِّب في أوقات مظلمة». ولو كان على قيد الحياة اليوم، فربَّما كان ليرى كيف أخطأ

منذ ذلك الوقت في فهم هذه القضيَّة أو ذلك الحدَث. ولكنَّنا نحن الذين ما زلنا أحياءً اليوم: فالتوقُّف للحظة يذكِّرنا بمدى صعوبة أن نكون على صواب في ذلك الوقت، ومدى صعوبة أن نكون على صواب اليوم مع كامو أو بالتأكيد ضدَّه. يذكِّرنا كامو بهذه النُّقطة في رسالة كتبها الى أحد اصدقائه:

«يَوَدُّ المَرء أن يكون محبوباً، مَعروفاً، كما هو، ومن الجميع. لكن هذه رغبة مراهقة. عاجلاً أم آجلاً، يجب على المرء أن يشيخ، يوافق على أن يُحاكم، أو يُحكَم عليه، ويتلقَّى هدايا الحُبِّ... الأخلاق لا تساعد فقط، الحقيقة... هي البحث المستمرُّ عنها، وقرار سَردها عندما يراها المرء، على كل مستوى، ويعيشها، ويعطي معنىً، وتوجيهاً لمسيرة المرء. ولكن في عصر سوء النيَّة، فإنَّ الرَّجل الذي لا يريد التَّخلِّي عن التَّمييز بين الحقِّ والباطل محكومٌ عليه بالنَّفي إلى نوعٍ معيَّنٍ من المَنفى».[4]

قد يشير منتقدو كامو الى أنَّه نفسه قدَّم لنا، في أكثر من مناسبة، أسبابَ أهمِّيته. لكن ما الأمر؟ لم يكتسب هذا الحقَّ فحسب، بل وجد الكلمات الصَّحيحة أيضاً. والحقيقة أنَّ خطاب قبوله جائزة نوبل لم يشتمل إلَّا على قدرٍ ضئيلٍ من البَراعة والرَّوعة. وقد أعلن كامو أنَّ الكاتب لا بدَّ أن يَظَلَّ مخلصاً، ليس فقط لفنِّه، بل أيضاً لإخوانه من الرِّجال والنِّساء. الكاتب «لا يستطيع أن يَضَعَ نفسه في خدمة أولئك الذين يصنعون التَّاريخ؛ بدلاً من ذلك، إنَّه يخدم أولئك الذين يتحمَّلونه... ويكفي صمت سجينٍ مجهول، مَهجورٍ ومُهانٍ في الطَّرف الآخر من العالم، أن ينتزعه من مَنفاهُ في كل مرَّةٍ

يرفض فيها أن يَنسى، في حياته الخاصَّة التي ينعم فيها بالحرِّيَّة والامتياز. هذا الصَّمت يبثُّه من خلال فنِّه». وخَلُصَ كامو إلى أنَّ نُبلَ وظيفتنا سوف يتجذَّر إلى الأبد في حَدَثين يَصعُبُ الحفاظ عليهما: «رفض الكذب بشأن ما يعرفه المرء، ومقاوَمَة القمع والاضطهاد».

تساعد هذه الارتباطات المزدوجة في شرح تلك الصِّفات التي تتبَّعناها في هذا الكتاب: وضوح كامو في إدراك حالتنا العبثيَّة، وانتباهه لصمت العالم وسكَّانه، وإخلاصه لحالتنا وظروفنا المشتركة، وإصراره على القياس عندما نتمرَّد على أولئك الذين يُنكِرون إنسانيَّتنا المُشتركة.

ومع ذلك لم تكن هذه ارتباطاته الوحيدة. لقد وصف كامو في ستوكهولم المأزق الذي يعيشه الفنَّان بأنه عالقٌ «بين الجمال الذي لا يستطيع الاستغناء عنه، والمجتمع الذي لا يستطيع انتزاع نفسه منه». وباختصار، إنَّ جَمال هذا العالم، وليس مظالِمه وسوءاته فحسب، يتطلَّب اهتمامنا أيضاً. إنَّ كامو، الذي قُدِّم ككاتب «يتميَّز بالوضوح والجدِّيَّة، والذي يسلِّط الضوء على مشاكل الضَّمير البشري»، كان جادًّا أيضاً في احتجاجه. واعترف أمام الحضور: «لم أستَطِع قَطُّ أن أرفض النُّور، ومتعة الوجود، والحرِّيَّة التي ترعرعتُ فيها».

مثل تيَّار المحيط، تتدفَّق عبر كتابات كامو موضوعات الجمال والسَّعادة التي وجدها في الطَّبيعة. ومن الأمثلة على ذلك مقالته

«العودة إلى تيبازة». كتب كامو المقالة في عام ١٩٥٣، وكان وقتاً عَصيباً بشكلٍ خاص. لم يكن هناك فقط الخلاف العنيف مع سارتر حول **الإنسان المُتمرِّد**، بل كان كامو متخوِّفاً أيضاً من نُضوب احتياطياته الإبداعيَّة، الأمر الذي جعله يشعر بالخيبة والإحباط. طار إلى الجزائر العاصمة حيث استقبلته أمطار غزيرة لأيَّام عدَّة. ولكن بعد ذلك صَفَت السَّماء وذهب كامو إلى تيبازة، كانت تطغى عليه ذكريات زياراته السَّابقة -زياراته المليئة بالبَراءة والثِّقة التي فقدها منذ ذلك الحين.

وبينما كان يتسلَّق نحو الأنقاض الرُّومانيَّة، حمل كامو ندوب المعارك التي خاضها بالنِّيابة عن أولئك الذين لم يتمكَّنوا من خوضها: الأمازيغ الذين كانوا يتضوَّرون جوعاً، أصحاب الأقدام السُّود المضطهدين، ومقاتلي المقاوَمة الذين يتعذَّبون، والسُّجناء السِّياسيِّين المقموعين. لقد سمع أصوات أولئك «المُهانين»، لكنَّه بدأ أيضاً يسمع **«الأصوات غير المحسوسة التي شَكَّلَت الصَّمت»** الذي استقبله في البداية: نداءات الطُّيور المَحصورة في الأحراج، وخربشة السَّحالي على الحجارة السَّاخنة، وهَسهَسة النَّباتات **«والتنهُّدات الخفيفة المُبتَسَرة للبحر عند أقدام الصُّخور»**. وعلى الرغم من تدهور رئتيه، فقد صَعَدَ كامو على الطَّريق الصخري. وفيما كان يصعدُ **«سمعتُ موجات السَّعادة المتصاعدة في نفسي، ولهذا كان يلوح لي وكأنّني أعود مرَّةً أخرى إلى المرفأ للحظة واحدة من الزمن على الأقل، وأنَّ هذه اللحظة المُفعَمَة بالمشاعر لن تنتهي أبدًا»**.[٥]

ومن بين الأقواس المُتَداعية -التي كانت في الماضي تشكِّل خلفيَّة مغامرات الشباب مع أصدقائه- عرف كامو الأكبر سنًّا والأكثر انهماكاً حقيقةً بسيطةً للغاية. «**لقد اكتشفتُ هنا أيضاً الجمال القديم، والسماء الفتيَّة........ ولا بدَّ من القول أخيراً بأنَّها هي التي خلَّصتني من الشعور باليأس. ولقد عَرَفتُ أنَّ أطلال تيبازة هي أكثر فتوَّةً من كل أبنية مؤسساتنا الحديثة**». صحيحٌ أنَّ الظُّلم موجودٌ، لكنَّ الشَّمس هي أيضاً مَصدرُ القياس. والواقع أنَّ كامو قاسَ مصيره، فأدرَكَ أخيراً أنَّ «**ذكرى تلك السَّماء لم تتخلَّ عنِّي خلال سنوات جنوننا العصبيَّة**». وهذا ما خلَّصه حقيقةً من الشعور باليأس. «**[ففي] صميم الشِّتاء، يظلُّ في نفسي صيفٌ خَفيٌّ لا يُقهَر**».[٦]

وبالنسبة لهؤلاء الذين أصروا على نقاء الارتباطات السِّياسيَّة والحاجة الماسَّة إلى الالتزام الأخلاقي، كانت رحلات كامو الغنائيَّة في الطَّبيعة مزعجة للغاية. فقد كانوا يبدون تافهين في أفضل الأحوال؛ وفي أسوئها، رجعيِّين. من الواضح أنَّ جورج أورويل قد نجا من الانتقادات نفسها. وهذا أمرٌ مؤثِّرٌ حقيقةً؛ لأنَّ أوجُهَ التَّشابه العديدة بين الرَّجلين تثير الانتباه إلى حَدٍّ ما. فكلاهما كان مُناهِضاً عنيداً للفاشيَّة، ولكنَّهما كانا أيضاً مناهضين للاستبداد؛ فقد خاطر كلاهما بحياتهما في الكفاح ضدَّ الفاشيَّة (أورويل في إسبانيا، وكامو في فرنسا المُحتَلَّة)، وكلاهما كان صحفيًّا وكاتبَ مقالات وروائيًّا؛ وعلى الرغم من أنَّ الرَّجلين كانا مَكروهَين من جانب العديد من اليساريين الأوروبيِّين، فإنَّهما لم يتنازلا قَط عن وَلائهما لقيم الاشتراكيَّة الدِّيمقراطيَّة؛ كِلا الرَّجلين، المُعادِيَين

على قدم المساواة للسِّياسات الإمبرياليَّة لبلديهما، قد عاشا أيضاً في المستعمرات، ورفضا تبسيط واقعهما المُعَقَّد. لا شَكَّ أنَّ كلًّا من الرّجلين كان مُدَخِّناً شَرِهاً أيضاً، ومُصاباً بالسُّلِّ، وكلاهما ماتا في سِنِّ السَّادسة والأربعين، ومنذ ذلك الحين فقط، وللأسف، احتُفِيَ بِهِما كقدّيسين عَلمانيَّين.

ومع أنَّهما تمَّ تجاهلهما من قِبَل العديد من المُعلِّقين، إلا أنَّ كِلا الرَّجلين أصرَّا أيضاً على ضرورة الجمال. ففي مقالٍ نُشِرَ بعد فترةٍ وجيزةٍ من الحرب بعنوان «**بعض الأفكار عن العُلجوم المُشترك**»، تَحدَّثَ أورويل على مَباهج الطَّبيعة الخالدة والضروريَّة. وتساءَل فيها: «**هل من المُستَهجَن سياسيًّا... الإشارة دائماً إلى أنَّ الحياة تستحقُّ العيش بفضل أغنية الشحرور، أو شجرة الدردار الصفراء في أكتوبر، أو بعض المَظاهر الطبيعيَّة الأخرى التي لا تكلِّف مالاً، ولا تحتوي ما يسمِّيه محرِّرو الصُّحف اليساريَّة زاوية الطبقة؟**». وفي الواقع، يقدِّم أورويل مُرادفاً إنجليزيًّا للفلسفة «المتوسِّطيَّة» لكامو -نوعًا من أفكار كوتسفالدز:

> «أعتقد أنَّه عبر الإبقاء على حبِّ المرء الطُّفوليِّ لأشياء مثل الأشجار والسَّمك والفراشات و -بالعودة إلى مثاليَ الأوَّل العَلاجيم- يجعل من مستقبل المرء كريماً وسليماً أمراً أكثر احتمالاً، وأنَّه عبرَ الوَعظ بعقيدة أن لا شيء ينبغي الإعجاب به عدا الفولاذ والخرسانة، يقوم المرء فقط بالتأكيد على أنَّ البشر لن يكون لهم مَنفَذٌ لطاقتهم الفائضة سوى في الكراهية وعبادة القائد». [٧]

لَمْ تَظهر العَلاجيم في طفولة كامو، لكنَّ أعاجيب دنيويَّة أخرى ظهرت. والرِّمال والبحر، النور والحرارة، الرِّياح والنُّجوم: كانت مصادر سعادةٍ لا تَنضب. فقد لاحظ كامو أنَّ العبثيَّة قد تَنصِبُ لنا كميناً عند ناصية شارع أو على شاطئ مُشمِس. وكذلك الحال بالنِّسبة للجمال والسَّعادة التي ترافقها. وفي أغلب الأحيان، نُدرك أنَّنا لا نكون سعداء إلا عندما لا نكون كذلك. عندما يُطلق ميرسو النَّار على العربي، ينزع نفسه من العالم الذي كان جزءاً منه، وبالتَّالي في حالة وِفاقٍ معه. ومع انفجار المسدَّس، حَطَّم ميرسو «**الصَّمت الاستثنائي للشاطئ حيث كان سعيداً**».

ومثلما انتزع كاليائيف أيضاً نفسه من العالم. ولكن على عكس ميرسو، لقد فعل ذلك عمداً، مدركاً تماماً لتضحيته. عند بداية **القَتَلَة العادلون**، يُطري كاليائيف ودورا على الثياب التنكُّريَّة لبعضهما، والتي ارتدياها لتجنُّب لَفت انتباه الشُّرطة القيصريَّة. وعندما تخبر دورا كاليائيف بأنَّ لباس النبلاء يليق به، يضحك، ثم يردُّ الإطراء، ويخبرها كم هي جميلة في «**ثوبها التَّنكُّري اللافت**». لكنَّها ترفض الإطراء: فبعد كلِّ شيءٍ، يخطِّط الصَّديقان لاغتيال الدُّوق الأكبر، وهو عملٌ من شأنه أن يؤدِّي إلى موتهما. لكنَّ كاليائيف لن يَحصل على أيِّ شيءٍ من ذلك: «**دورا، هناك دائماً هذه النَّظرة الحزينة في عينيكِ. لكن يجب أن تكوني سعيدة... هناك الكثير من الجمال في هذا العالم، الكثير من البَهجة**».

وعند نهاية حياته، ظهر كامو في برنامج تلفزيوني، Gros Plan، ليتحدَّث عن حبِّه للمسرح. يمشي كامو بسهولة على

مـرَّ مـسرح أنطـوان حيـث كان يُخـرِجُ نسـخته المسرحيَّـة مـن روايـة المهووسـين لدوستويفسـكي، يخلـع كامـو معطفـه ويتَّجـه صـوب الكامـيرا. يعـترف بابتسـامة مؤذيـة: «**اليـوم، صـارت السَّـعادة نشـاطاً غريبـاً، والدَّليـل عـلى ذلـك أنَّنـا نميـل إلى الاختبـاء مـن الآخريـن عندمـا نمارسـها**». ثـمَّ يخلـص إلى نتيجتـه قائـلاً بأسـف: «**في رأيـي، يَلـزم أن يكـون المَـرء قويًّـا وسـعيداً لمسـاعدة التُّعسـاء**».[٨]

وخـلال زيارتـه إلى منطقـة القبائـل في أواخـر عـام ١٩٣٧، كتـب كامـو في مذكّراتـه: «**أن نُطالِـبَ بالسَّـعادة ونسـعى بصـبرٍ إليهـا........ أن نكـون سُـعداء مـع أصدقائنـا، في تناغُـمٍ مع العالَم، ونكسـب سـعادَتنا مـن خـلال اتِّبـاع مسـارٍ يقودنـا إلى المـوت على الرغـم مـن ذلـك**».[٩]

والسـعادة، بكلمـة واحـدة، واجـبٌ ومَطلَـب. إنَّ تحقيـق السَّـعادة ليـس بالمسـألة البسـيطة -وهـي حقيقـة عرفهـا الابيقوريُّـون القدمـاء ورَدَّدهـا كامـو. في مقالـه «أعـراس في تيبـازة»، أعلـن كامـو أنَّـه لا عـار عـلى الإنسـان أن يكـون سـعيداً. لكـنَّ كامـو لم يَخلـط بـين السَّـعادة والكسـل؛ إنَّهـا حالـة لا نحقِّقهـا مـن خـلال الإلهـاء أو التَّرفيـه، بـل مـن خـلال الاهتـمام وبَـذل الجهـد. وحـذَّرَ في المقـال نفسـه: «**ليـس سـهلاً أن يصـير المـرء مـا هـو عليـه، أن يعيـد اكتشـاف أعمـق مقاييسـه**».[١٠]

وعندمـا عـاد إلى تيبـازة بعـد خمسـة عـشر عامـاً، لم يَعُـد كامـو كاتبـاً مَغمـوراً يعيـش ظروفـاً قاسـية، بـل صـار مفكّـراً مَشـهوراً ومثيراً للجَـدَل، اتَّخـذ كامـو تدابـيره الخاصَّـة مـرَّةً أخـرى. كانـت المعـارك

السيَّاسية تُسبِّب خسائرَ فادحة، فذكَّرته تيبازة بمطالب أخرى. واختتم قائلاً:

«إنَّ التَّخلِّي عن الجمال والسَّعادة الحسِّيَّة المرتبطة به وخدمة التَّعاسة فقط، يستدعي النُّبل الذي أفتقده».[١١]

وبالطَّبع، ما يؤكِّده كامو ليس الحاجات الحسِّيَّة مقابل الأفعال الأخلاقيَّة، بل التَّوازن الضَّروري بين الاثنين. قياس، بكلمة واحدة. بالنِّسبة لكامو، يكمُنُ النُّبل الحقيقي في القبول الواضح للعالَم، وجماله وحدوده، وأفراحه ومتطلَّباته، وسكَّانه، وقَدَرنا المشترك.

منذ عهد الإغريق القدماء، شعرنا بوجود رابط بين العدالة والجمال -أو، بتعبيرٍ أقلَّ إيجازاً ولكنَّه أكثر دقَّةً، بين حالة المساواة بين البشر ومستوى التناظر بين الأشياء. قال الفيلسوف ستيوارت هامبشاير ذات يوم إنَّ العدالة التَّوزيعيَّة والجمال يتقاسمان، ولو على نحو تناظريٍّ، «التَّوازن ووَزن كِلا الجانبين».[١٢] بيد أنَّ هذه الأرضيَّة المشتركة قد تكون لها أُسُسٌ أعمق من القياس البسيط. فقد كتبت إلين سكاري، في مقالة كامويَّة عميقة، عن أنَّ انجذابنا الشَّديد نحو التَّناظر، أو الجمال، يدفع شغفنا بالمساواة؛ إنَّ رسوخنا في عالمٍ يَعتَمد جماله المُتصَوَّر على التَّوازن والتَّناسق يجعلنا متعطِّشين للعدالة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة. بالنِّسبة لتلك المجتمعات البشريَّة «الأصغر من أن يكون لديها وقت لخَلق العدالة، وكذلك في الفترات التي سُلِبَت فيها العدالة، فإنَّ الأشياء الجميلة... تُبرِزُ بشكلٍ ثابتٍ الخَيرَ

الواضح في المساواة والتَّوازن».[١٣] وليس فقط المرئيَّة منها، بل غير القابلة للتَّجزئة: نفهم، ولو بشكل غامض، أن الحياة حيث يوجد أحدهم، ولكن دون الآخر، هي حياة غير متحقِّقة.

وعلاوةً على ذلك، يَهزم الجمال، ولو لفترة قصيرة، الهموم والانشغالات الأنانيَّة التي تحكم حياتنا غالباً. وسواءٌ امتلأنا رهبةً، أو محبَّة، نسينا أنفسنا - وهذا شرطٌ أساسيٌّ لفسح المجال للآخرين. بالنِّسبة لسيمون فايل، كان هذا عمل الانتباه: من أجل أن نرى حقًّا، ونَنفتح على الجمال والعدالة، يجب أن نُعَلِّق تفكيرنا، **«ونتركه مُنفَصِلاً، وفارغاً، وجاهزاً لأن تخترقه الأشياء».**[١٤] لقد كانت تلك اللحظات بين أطلال تيبارة، التي امتدَّت على رمال شاطئ الجزائر العاصمة، وتسلُّق جبال منطقة القبائل؛ اللحظات التي كان فيها وحيداً وساد الصَّمت، لحظات كانت بالنِّسبة إلى كامو تبرِّر إخلاصه لقضيَّة العدالة مَرَّةً أخرى.

*****

ذكر كامو في مقالٍ مبكِّر بعنوان: «**بين نعم و لا**»، كتبه عندما لم يكن يمتلك أكثر قليلاً من شهادة جامعيَّة ودون عَمَل أو وظيفة تَلوح في الأفق، قال: «**عندما نُجَرَّد إلى نقطة معيَّنة، لا شيء يقودنا إلى أيِّ مكانٍ بعد ذلك، الأمل واليأس لا أساسَ لهما على حَدٍّ سواء، ويمكن تلخيص الحياة كلِّها في صورة**».[١٥]

وقد تكون الصُّورة بالأبيض والأسود بالنِّسبة لأولئك الذين وُلِدوا بلا ذكريات عن النِّصف الأوَّل من القرن العشرين. وهذا

هو الحال، بالتأكيد، مع كامو. لا شَكَّ أنَّ أشهر صورٍ كامو هي بالأبيض والأسود. ياقة معطفٍ مقلوبة وسيجارة معلَّقة بين شفتيه أو أصابعه، أو جالساً خلف مكتب، أو مستنداً إلى الحائط، أو يقرأ صحيفة؛ أو مُحَدِّقاً باهتمام في صديقٍ أو عشيقة، خطوط وجهه إمَّا مُجَعَّدَة أو مُبتَسِمَة.

وبطريقة ما، تبدو هذه الصُّور بالأبيض والأسود مناسبة. وبالنِّسبة للمصوِّر روبرت فرانك، كانت هذه الألوان الوحيدة للتَّصوير الفوتوغرافي آنذاك. «**بالنِّسبة لي، إنَّها ترمز إلى بدائل الأمل واليأس اللذين يخضع لهما الجنس البشري إلى الأبد**». وربما وافق كامو على ذلك، مُذَكِّراً إيَّانا طوال الوقت أنّه بينما لا يوجد لدينا سببٌ للأمل، يجب أن لا نَيأس أيضاً. ولكنَّ الصُّورة التي كان يريدنا أن نأخذها، ربَّما، ليست الصُّورة بالأبيض والأسود التي التقطها كارتييه بريسون. بل كانت صورةً نادرة التُقِطَت لمجلَّة أسبوعيَّة فرنسيَّة، لكامو وصديقه المقرَّب ميشيل غاليمار قبل وقت قصيرٍ من وقوع حادث السَّيارة الذي أودى بحياتهما. في صورة غارقة بألوان البحر الأبيض المتوسِّط، يجلس الرجلان في شرفة مقهى على طاولة مغطَّاة بأطباق وزجاجات. يظهر غاليمار في منتصف جملته، وترتسم على وجهه ابتسامة حمراء خجولة، في حين كان كامو، واضعاً إحدى ذراعيه فوق كتف صديقه والأخرى تحت ذقنه، ينظر قليلاً إلى يمين الكاميرا، ووجهه المُشمِس مُشرِقٌ بابتسامةٍ عريضة. عند النظر إلى الصُّورة، يخطر في ذهني مقطعٌ من مقال «أعراس في تيبازة»:

«كلُّ شيءٍ هنا يتركني بكراً، فأنا لا أتخلّى عن شيءٍ من ذاتي، ولا أتحجّب بأيِّ قناع: يكفيني أن أتعلَّمَ بصبرٍ علم الحياة الصَّعب الذي يفوقُ كلَّ فنون الحياة».[١٦]

يعطينا قلم كامو، وليس الكاميرا، صورةً ثانية، لا تقلُّ زَهاءً في ألوانها. يحدث ذلك في رواية **الرجل الأول**، في فصلٍ يتذكَّر فيه كامو الألعاب التي لَعِبَها عندما كان طفلاً في الجزائر العاصمة. خلال الأيّام العاصفة في المدرسة، جَمَعَ هو وأصدقاؤه أغصان النَّخيل، وهَرعوا إلى شرفة المدرسة المطلَّة على السهول الصحراويَّة، وواجهوا الريح وهم يمسكون الأغصان. «**كان الغصن يلتصق عليه فوراً**»، تذكَّر كامو متنهِّداً، «**إنَّها رائحة التراب والقشِّ**». ويشير إلى أنَّ الفائز في السباق «**كان أوَّل من يصل إلى نهاية الشرفة دون أن يَدَعَ الريح تنتزع الغصن من يديه، ثمَّ يقف منتصباً مُمسكاً بغصن النخيل على طول ذراعه... يكافح منتصراً قدرَ الإمكان ضدَّ قوَّة الريح الهائجة**».[١٧]

وبهذه الصُّورة سأتصوَّر دائماً كامو سعيداً.



مصادر المقدمة

١ ـ Albert Camus, Notebooks ١٩٥٩ ـ١٩٥١, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ٣١ ,٢٠٠٨).
٢ ـ Albert Camus, Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ٦٦ ,١٩٦٨.)
٣ ـ Ibid., ١٦٥ –١٦٤.
٤ ـ Ibid., ١٦٩ –١٦٨.
٥ ـ Le Figaro, December ٢٠٠٧ ,٥.
٦ ـ كانت الصّحافة الفرنسيّة غارقة في تغطية مستجدّات هذه القضيّة، ابتداءً من أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٩ راجع كمثال:
"Le fils d'Albert Camus refuse le transfert de son père au Panthéon," Le Monde, November ٢٠٠٩ ,٢١
٧ ـ شهد صيف عام ٢٠١٢ منافسة حامية أخرى حول تراث كامو. حيث انهارت خطط الاحتفال بالذّكرى المائوية الكبرى في مقاطعة إيكس أون بروفانس عندما انهارت مدينة إيكس ومعها كاثرين كامو بسبب طبيعة المَعروضات. انتقد عمدة المدينة، الذي يمثّل مجموعة كبيرة من «ذوي الأقدام السوداء» الذين استقرُّوا في إيكس بعد عام ١٩٦٢، القيّم الأصلي على المعرض، المؤرّخ بنيامين ستورا، الذي ينتقد بشدّة سياسة المجتمع الجزائري الفرنسي. كما أدّى ترشيح الفيلسوف ميشيل أونفراي لمنصب أمين الصّندوق إلى جَدَل

سياسي عندما رفضت الحكومة الاشتراكية، التي دَعَمَت ستورا، تقديم الدّعم له.

٨ ـ Alix de Saint- André, Papa est au Panthéon (Paris: Gallimard, ٩٢ ,٢٠٠١.)

٩ ـ Assia Djebar, Le Blanc de l'Algérie (Paris: Albin Michel, ١٩٩٥).

١٠ – Djemaï Abdelkader, "J'ai grandi au milieu des clochers," Le Monde, December ٢٠٠٩ ,١٧.

١١ – بالنّسبة لحياة كامو الخاصّة، فقد تجنَّبَ مُعجَبوه ومُحِبُّوه في الغالب مناقشة العديد من علاقاته العاطفية خارج إطار الزواج، وأشهرها قصّة علاقته مع الممثّلة ماريا كاساريس، التي لَعِبَت بلا شَكّ دوراً في تفاقم حالة الاكتئاب عند زوجة كامو، ومحاولاتها العديدة للانتحار. فعلى سبيل المثال، يتجاهل تقرير ميشيل أونفرا الأخير مسؤوليّة فرانسين كامو عن اكتئابها المُتكَرِّر، وخَلُصَ إلى أنَّ اتّهامات عائلتها ضدَّ كامو جَعَلَت منه «كَبش فداء سَهلاً». انظر كتابه:

L'Ordre libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: .٤٧٨,٢٠١٢),Flammarion

كاتبة سيرة ذاتية حديثة أخرى لكامو، أليزابيث هاوز، تقدِّم صورة أكثر دقَّة وبصيرةً لكامو ولدور النّساء في حياته. انظر:

Elizabeth Hawes, Camus: A Romance (New York: Grove Press, ٢٢٨–٢١٣ ,٢٠٠٩.)

١٢ – Hawes, Camus: A Romance, ٢١٧.

١٣ – Tony Judt, The Burden of Responsibility (Chicago: University of Chicago Press, ٢٥ ,(١٩٩٨.

١٤ – Ibid., ١٢٢.

١٥ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ١٦١ –١٦٠.

١٦ – The Myth of Sisyphus and Other Essays, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage ٣ ,)١٩٩١.

١٧ – The Oresteia, trans. Robert Fagles (New York: Penguin, ١٠٩ ,(١٩٧٥.

١٨ – Martha Nussbaum, The Fragility of Goodness (Cambridge:

Cambridge University Press, ٤٥ ,) ١٩٨٦.

١٩ – Ibid., ١٥٠ –٤٩.

٢٠ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ١٦٩.

مصادر الفصل الأول

١ – Albert Camus, Essais, ed. Roger Quilliot (Paris: Gallimard, ٩٩ ,) ١٩٦٥.

٢ – Oliver Todd, Albert Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ٢٨١ ,) ١٩٩٦.

٣ – Albert Camus, The Myth of Sisyphus and Other Essays, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage, ٦ ,) ١٩٩١.

٤ – Camus, Essais, ١٠٠.

٥ – Robert Solomon, Dark Feelings, Grim Thoughts (New York: Oxford University Press, ٣٧ ,) ٢٠٠٦.

٦ – Thomas Nagel, The View from Nowhere (New York: Oxford University Press, ٢١٤ ,) ١٩٨٦.

٧ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٢.

٨ – Sarah Bakewell, How to Live: Or, A Life of Montaigne (New York: Other Press, ٣٧ ,) ٢٠١٠.

٩ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٢١.

١٠ – Ibid., ٣٩.

١١ – Ibid., ٤١.

١٢ – Ibid., ٨٠.

١٣ – Ibid., ٥٣.

١٤ – Albert Camus, Notebooks: ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody and Justin O'Brien (New York: Marlowe and Co., ٢٧ ,) ١٩٩٨.

١٥ – Letter from Albert Camus to Jean Grenier, February ,٢ ١٩٣٩, in Albert Camus and Jean Grenier: Correspondence,

١٩٦٠ –١٩٣٢, trans. Jan F. Rigaud (Lincoln: University of Nebraska Press, ٢٠ ,)٢٠٠٣.

١٦ – Camus, Essais, ٢٢ –١٤١٧.

١٧ – Todd, Camus, ٢٥٢..

١٨ – Ibid., ٢١٤.

١٩ – Albert Camus, Le Soir républicain, November ١٩٣٩ ,٦, reprinted in Essais, ١٣٨٠.

٢٠ – Camus, Notebooks, ١٥٢ –١٥١.

٢١ – Camus, Le Soir républicain, November ١٩٣٩ ,٦, reprinted in Essais, ١٣٨٠ ,١٣٧٨.

٢٢ – Camus, Notebooks, ١٧٥ ,١٧٩.

٢٣ – Alan Riding, And the Show Went On (New York: Knopf, ٢٠١٠).

٢٤ – Alistaire Horne, The Fall of France (New York: Penguin, ١٩٧٧).

٢٥ – Hanna Diamond, Fleeing Hitler: France ١٩٤٠ (Oxford: Oxford University Press, ٢ ,(٢٠٠٧.

٢٦ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ٤ ,(١٩٩١.

٢٧ –

يرجع ذلك جزئيًا إلى الاستخدام الواسع للكتاب في مدارس الدّولة، حيث يتم بيع نحو ١٣٠ ألف نسخة من كتاب «الغريب».

" L'Etranger كل عام في فرنسا. انظر: "Le Choc des Titans," at Marianne www.marianne.net/Le-choc-des-Titans_a٢٢٥٠٧٠.html.

٢٨ – Albert Camus, The Stranger, trans. Matthew Ward (New York: Vintage, ٢٤ ,)١٩٨٩.

٢٩ – Ibid., ٣٥.

٣٠ – Ibid., ٥٩.

٣١ – Jean- Jacques Rousseau, "Discourse on the Origin and Foundations of In e qual ity Among Men," in The First and Second Discourses, trans. Roger Masters and Judith Masters (New York: St. Martin's Press, ١١٧ ,(١٩٦٤.

٣٢ – Camus, The Stranger, ٨٠ ,٩٧.

٣٣ – Todd, Camus, ٢٥٣.

٣٤ – Todd, Camus, ٢٥٦.

٣٥ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٣٠.

٣٦ – Albert Camus, The First Man, trans. David Hapgood (New York: Knopf, ٢٦٨ ,٩٦ –٩٥ ,(١٩٩٥.

٣٧ – Camus, The Myth of Sisyphus, v.

٣٨ – Ibid., ١٢.

٣٩ – Ibid., ١٤.

٤٠ – Camus, Notebooks, ١٨٢.

٤١ – Henry Bordeaux: Richard Vinen, The Unfree French (New Haven: Yale University Press, ٥٤ ,(٢٠٠٧.

٤٢ – Todd, Camus, ٢٦٠ –٢٥٩.

٤٣ – Camus, Notebooks, ١٨٣ –١٨٢.

٤٤ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١٣٨.

٤٥ – Robert Graves, The Greek Myths (Penguin: New York, ١٩٧٥), vol. ٢٢٠ –٢١٦ ,١.

٤٦ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١٣٠.

٤٧ – Ibid., ١١٩.

٤٨ – R.G. Bury translation and J. Garrett commentary of the text at http:// people .wku .edu /jan .garrett /٣٠٢ /critias .htm

٤٩ – Homer, The Iliad, trans. Robert Fitzgerald (New York: Anchor, ١٩٨٧), Bk. ٦, ll.١٧٣ –١٦٨.

٥٠ – Camus, Notebooks, ١٨٦.

٥١ – "The Minotaur, Or the Stop in Oran," in The Myth of

Sisyphus and Other Essays, ١٦٥.

٥٢ – Todd, Camus, ٢٧١.

٥٣ – Herbert Lottman, Albert Camus (Corte Madera, CA: Gingko Press, ٢٥٤ ,)١٩٩٧.

٥٤ – Camus, Notebooks, ١٨٩.

٥٥ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١١٩.

٥٦ – Richard Taylor :"The Meaning of Life," in The Meaning of Life, ed. E. D. Klemke (New York: Oxford University Press, ١٥٠ –١٤١ ,(١٩٨١.

٥٧ – Ibid., ١٤٨.

٥٨ – Lottman, Camus, ٢٧٢.

٥٩ – Letter to Christiane Galindo, quoted in Todd, Camus, ٣٠٣; Camus, Notebooks, ٢٣.

٦٠ – Camus, Notebooks, ٢٤.

٦١ – Ibid., ٢٥.

٦٢ – Ibid.

٦٣ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٢٧.

٦٤ – Albert Camus, Oeuvres Complètes, ed., Jacqueline Levi- Valensi (Paris: Gallimard, ٢٠٠٨), vol. ١٢٥٩ ,١.

٦٥ – Todd, Camus, ٣٠٤.

٦٦ – Ibid., ٣٠٨.

٦٧ – Jean- Paul Sartre, "A Commentary on The Stranger," in Existentialism Is a Humanism, trans. Carol Macomber (New Haven: Yale University Press, ٧٩ –٧٨ ,(٢٠٠٧.

٦٨ – Camus, The Myth of Sisyphus, ١٥.

٦٩ – Colin Wilson, Anti- Sartre (London: Borgos Press, ١٠ ,)١٩٨١.

٧٠ – Sartre, "A Commentary on The Stranger," ٩١ –٩٠.

٧١ – Camus, The Stranger, ١٠١.

٧٢ – Ibid., ١٢٢.

٧٣ – Stendhal, Scarlet and Black, trans. Margaret Shaw (New York: Penguin, ٥٠٢ ,(١٩٥٣.

٧٤ – Taylor, "The Meaning of Life," ٣٢.

٧٥ – A. J. Ayer, "Albert Camus," Horizon ١٥٩ :(١٩٤٦) ١٣.

٧٦ – Ibid., ١٦٨.

٧٧ – Ibid., ١٦٠.

٧٨ – A. J. Ayer, Part of My Life (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, ٢٨٤ ,(١٩٧٧.

٧٩ – Thomas Nagel, "The Absurd," Journal of Philosophy ٦٣, no.٧١٦ :(١٩٧١) ٢٠.

٨٠ – Nagel, "The Absurd," ٧١٨.

٨١ – Ibid.

٨٢ – Ibid., ٧٢٠.

٨٣ – Ibid., ٧٢٢.

٨٤ – Ibid., ٧٢٧.

٨٥ – Taylor, "The Meaning of Life," ١٠٢.

٨٦ – Jeffrey Gordon, "Nagel or Camus on the Absurd?" Philosophy and Phenomenological Research ٤٥, no.:(١٩٨٤) ١ ١٦.

٨٧ – Camus, The Myth of Sisyphus, ٥٥.

٨٨ – Solomon, Dark Feelings, Grim Thoughts, ٤٥.

٨٩ – Iris Murdoch, The Sovereignity of Good (London: Routledge, ٦٥ ,)١٩٧٠.

٩٠ – Robert Alter, The Wisdom Books (New York: Vintage, ٢٠١١), passim.

٩١ – Jennifer Hecht, Doubt: A History (New York: Harper, ٧١ ,(٢٠٠٤.

٩٢ – Jack Miles, God: A Biography (New York: Vintage, ,(١٩٩٤

١١.

٩٣ – Patrick Gerard Henry, We Only Know Men (Washington, DC: Catholic University Press, ١١٣ ,(٢٠٠٧.

٩٤ – Camus, Notebooks, ٤٢.

٩٥ – Camus, The Myth of Sisyphus, vi.

٩٦ – Camus, Notebooks, ٢٤.

٩٧ – Philip Haillie, Lest Innocent Blood Be Shed (New York: Harper, ١٠٣ ,) ١٩٩٤.

٩٨ – Camus, Notebooks, ٩٣.

مصادر الفصل الثاني

١ –The Confessions of Saint Augustine, trans. Rex Warner (New York: Penguin, ٢٠ ,(١٩٦٣.

٢ – Albert Camus, The First Man (New York: Knopf, ١٩٩٤), trans. David Hapgood, ٢٧.

٣ – Max Picard, The World of Silence, trans. Stanley Godman (Chicago: Henry Regnery, ١ ,(١٩٥٢.

٤ – Camus, The First Man, ٩٨.

٥ – Ibid., ٩٧.

٦ – Albert Camus, "Between Yes and No," in Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ٣٨ ,٣٢ ,(١٩٦٨.

٧ – Ibid., ٣٤ –٣٣.

٨ – "Preface to the Wrong and the Right Side," in Lyrical and Critical Essays, ١٦.

٩ – Camus, The First Man, ٣٠٠.

١٠ – Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ١, ed. Jacqueline Lèvi_ Valensi(Paris: Gallimard, ١٤٣٦ ,(٢٠٠٦.

١١ – Ibid., ١٠٩٨.

١٢ – Albert Camus, "Le Vent à Djémila," in Oeuvres complètes, ١:١١١.

١٣ – Ibid., ١١٢.

١٤ – Ibid.

١٥ – Stuart Sim, Manifesto for Silence (Edinburgh: Edinburgh University Press, ٣٩ ,(٢٠٠٧.

١٦ – Albert Camus, "Summer in Algiers," in Lyrical and Critical Essays, ٩٠.

١٧ – Cahiers Albert Camus ٣: Fragments d'un combat: –١٩٣٨ ١٩٤٠, vol.١, ed. Jacqueline Lévi- Valensi (Paris: Gallimard, ٢٨٨ ,(١٩٧٨.

١٨ – Camus, Fragments d'un combat, ١:٢٨٩.

١٩ – Albert Camus, Essais, ed. Roger Quilliot (Paris: Gallimard, ٩١٠ ,(١٩٦٥.

٢٠ – Ibid., ٩١٥.

٢١ – Camus, Fragments d'un combat, ١:٢٨٨.

٢٢ – Ibid., ٣١٤.

٢٣ – Ibid., ٣٣٦ –٣٣٥.

٢٤ – Ibid., ٣٠٠.

٢٥ – Camus, The First Man, ١٨٦.

٢٦ – Ibid., ١٩٣ –١٩٢.

٢٧ – Albert Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ٢٠ ,(٢٠٠٨.

٢٨ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ٢٣٦ ,(١٩٩٢.

٢٩ – John Foley, Albert Camus: From the Absurd to Revolt (Montreal: McGill- Queen's University Press, ١١٧ ,(٢٠٠٨.

٣٠ – Ibid.

٣١ – Camus, Notebooks: ٥١/٣٠ ,١٩٥٩ –١٩٥١.

٣٢ – Ibid., ٥٠.
٣٣ – Ibid., ٥٧ –٥٦.
٣٤ – Ibid. ٤٠.
٣٥ – Albert Camus, Exile and the Kingdom, trans. Carol Cosman (New York: Vintage, ٥٠ ,(٢٠٠٧.
٣٦ – Ibid., ٥٢.
٣٧ – Ibid., ٦٠.
٣٨ – Ibid.
٣٩ – Olivier Todd, Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ,(١٩٩٦ ٣٤٦/٣٠
٤٠ – Vercors, The Silence of the Sea, trans. Cyril Connolly (New York: Berg, ٧٤ ,(١٩٩١.
٤١ – Picard, World of Silence, ١٣.
٤٢ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:١٣٥٨.
٤٣ – Camus, Exile and the Kingdom, ٦٥.
٤٤ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:٣٧٢.
٤٥ – Ibid., ٤:٣٧٥.
٤٦ – Ibid., ٤:٣٧٦.
٤٧ – Todd, Camus, ٦٣٣.
٤٨ – Le Monde, ١٤ décembre ١٩٥٧, reprinted in Camus, Essais, ١٨٨٢ –١٨٨١.
٤٩ – Camus, Oeuvres Complètes ٦ –٤:١٤٠٥. I am guilty of having relied on this mistranslation in my previous book on Camus.
٥٠ – Albert Camus, "Letters to a German Friend," in Re sis tance, Rebellion and Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ٢١ ,(١٩٦٣.
٥١ – Camus, "Between Yes and No," ٣٨ –٣٧.
٥٢ – Camus, Lyrical and Critical Essays, ١٧٠ –١٦٩.

٥٣ – Camus, Essais, ١٤٩٠.
٥٤ – Albert Camus, The Myth of Sisyphus, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage, ١٣٧ ,(١٩٩١.
٥٥ – Camus, The Rebel, ٦٦.
٥٦ – Michel Onfray, L'Ordre Libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٦٨ ,(٢٠١٢.
٥٧ – Camus, The Rebel, ٧٦.
٥٨ – Friedrich Nietz sche, The Gay Science, trans. Walter Kaufman (New York: Vintage, ٢٧٢ ,(١٩٧٤.
٥٩ – Camus, Notebooks ١١٦ ,١٩٥٩ –١٩٥١.
٦٠ – The photo is reproduced in Catherine Camus, ed., Albert Camus: Solitaire et solidaire (Paris: Lafon, ٣٠ ,(٢٠٠٩.
٦١ – Erich Heller, The Importance of Nietz sche (Chicago: University of Chicago Press, ١٨٤ ,(١٩٨٨.
٦٢ – Camus, Notebooks ١٧٦ ,١٩٥٩ –١٩٥١.
٦٣ – Ibid., ٢٤٣.

مصادر الفصل الثالث

١ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ٣٠٠ ,(١٩٩١.
٢ – Ronald Aronson, Camus and Sartre: The Story of a Friendship and the Quarrel that Ended It (Chicago: University of Chicago Press, ١٤٧ ,(٢٠٠٤.
٣ – Albert Camus, Notebooks: ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody and Justin O'Brien (New York: Marlowe and Co., ١٣ ,(١٩٩٨.
٤ – Camus, The Rebel, ٣٠٦. Camus fi rst presents this sentiment in his essay "Helen's Exile," published in ١٩٤٨.
٥ – Paul Archambault, Camus' Hellenic Sources (Chapel Hill:

University of North Carolina Press, ١١ ,(١٩٧٢.

٦ – Bernard Williams, Shame and Necessity (Berkeley: University of California Press, ١٩ ,(١٩٩٣.

٧ – Albert Camus, "Prometheus in the Underworld," in Lyrical and Critical Essays, ١٤١.

٨ –Herbert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ١٠١ ,(١٩٩٧.

٩ – Camus, Notebooks ٨٤ ,١٩٥١ –١٩٣٥.

١٠ – Ibid., ٨٥.

١١ – Albert Camus, "Nuptials at Tipasa," in Lyrical and Critical Essays, ٦٧.

١٢ – Ibid., ٦٨.

١٣ – "Camus, Audisio et la Méditerranée," in Albert Camus et la pensée du Midi, ed. Jean– François Mattéi (Nice: Editions Ovadia, ١٣٤ –١٢٣ ,(٢٠٠٨. Peter Dunwoodie, "From Noces to L'Etranger," in The Cambridge Companion to Camus, ed. Edward Hughes (Cambridge: Cambridge University Press, ١٦٤ –١٤٧ ,(٢٠٠٧.

١٤ – Albert Camus, "The New Mediterranean Culture," in Lyrical and Critical Essays, ١٩١.

١٥ – Conor Cruise O'Brien, Albert Camus of Eu rope and Africa (New York: Viking, ٩ ,(١٩٧٠.

١٦ – Neil Foxlee, "The New Mediterranean Culture": A Text and Its Contexts (Bern: Peter Lang, ٢٠١٠).

١٧ – Lottman, Camus, ٥٩.

١٨ – Albert Camus, Cahiers Albert Camus ٣: Fragments d'un

combat, ١٩٤٠ –١٩٣٨ v.١, ed. Jacqueline Lévi- Valensi (Paris: Gallimard, ٢٧٩ –٢٧٨ ,(١٩٧٨.

١٩ – Ibid., ٢٨٩.

٢٠ – Ibid., ٢٨٨.

٢١ – Lottman, Camus, ٥٩.

٢٢ – Camus, "Prometheus in the Underworld," ١٣٩ –١٣٨.

٢٣ – Ibid., ١٣٩.

٢٤ – Ibid., ١٤٠.

٢٥ – Lottman, Camus, ٦٤٥.

٢٦ – Olivier Todd, Albert Camus: Une vie (Paris: Gallimard, ٥٢٥ ,(١٩٩٦.

٢٧ – Lottman, Camus, ٣٩٥.

٢٨ – Simone Weil, "The Iliad, or the Poem of Force," in Simone Weil: An Anthology, ed. Sian Miles (New York: Weidenfeld and Nicolson, ١٧١ ,(١٩٨٦.

٢٩ – Ibid., ١٧٥.

٣٠ – Ibid.

٣١ – Williams, Shame and Necessity, ١٥١.

٣٢ – Albert Camus, The Plague, trans., Stuart Gilbert (New York: Vintage, ١٢٧ ,(١٩٩١.

٣٣ – Albert Camus, Camus at Combat, ed. Jacqueline Lévi- Valensi (Prince ton: Prince ton University Press, ,٢٠٥ ,(٢٠٠٦ ٢٠٠.

٣٤ – Ibid.

٣٥ – Ibid.

٣٦ – Ibid., ٢١٦.

٣٧ – Ibid.

٣٨ – Albert Camus, "On the Future of Tragedy," in Lyrical and Critical Essays, ٣١٠.

٣٩ – Ibid.

٤٠ – Albert Camus, "L'Algèrie déchirée," in Essais, ed. Roger Quilliot (Paris: Gallimard, ٩٨٥ ,(١٩٦٥.

٤١ – Philippe Vanney, "Sur l'idée de trêve dans l'oeuvre politique d'Albert Camus," in Albert Camus: Les Extremes et l'équilibre, ed. David Walker (Amsterdam: Rodopi, ,(١٩٩٤ ١٢٨ –١١٥.

٤٢ – Albert Camus, "Appeal for a Civilian Truce," in Re sis tance, Rebellion, Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ١٣١ ,(١٩٦٣.

٤٣ – Aurelain Craiutu, A Virtue for Courageous Minds: Moderation in French Po liti cal Thought, ١٨٣٠ –١٧٤٨ (Prince ton: Prince ton University Press, ١٥ ,(٢٠١٢.

٤٤ – Ibid., ٢١.

٤٥ – Michel Onfray, L'Ordre Libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٢٠١٢).

٤٦ – Archambault, Camus' Hellenic Sources, ٤٤.

٤٧ – Martha Nussbaum, The Fragility of Goodness (Cambridge: Cambridge University Press, ٣٢ ,(١٩٨٦.

٤٨ – Ibid.

٤٩ – Ibid., ٥٠.

٥٠ – Aeschylus, Seven Against Thebes, trans. Anthony Hecht and Helen Bacon (Oxford: Oxford University Press, ,(١٩٧٣ ٦٧.

٥١ – David Carroll, Albert Camus the Algerian (New York: Columbia University Press, ١٣٨ –١٣٧ ,(٢٠٠٧.

٥٢ – Camus, The Rebel, ٢٧.

٥٣ – Nussbaum, The Fragility of Goodness, ٤٥.

مصادر الفصل الرابع

١ – Albert Camus, The First Man, trans. David Hapgood (New York: Knopf, ٦٦ –٦٤ ,(١٩٩٤.

٢ – Ibid., ٨٢.

٣ – Albert Camus, "Refl ections on the Guillotine," in Re sis tance, Rebellion and Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ١٣٢ ,(١٩٦٣.

٤ – André Comte– Sponville, Petit traité des grandes vertues (Paris: PUF, ٢٨ ,(١٩٩٥.

٥ – Ibid., ٣٠.

٦ – Albert Camus, Actuelles II, Ouevres complètes, vol. ٢ (Paris: Gallimard, ٤٠١ ,(٢٠٠٨.

٧ – Albert Camus, "Letters to a German Friend," in Re sis tance, Rebellion and Death, trans. O'Brien, ٧.

٨ – Ibid., ٢١.

٩ – Albert Camus, Camus at Combat, ed. Jacqueline Lévi– Valensi (Prince ton: Prince ton University Press, ٤ ,(٢٠٠٧.

١٠ – Ibid., ٦.

١١ – Comte– Sponville, Petit traité des grandes vertues, ٢٩.

١٢ – Camus, "Letters to a German Friend," ٢٤.

١٣ – Comte– Sponville, Petit traité des grandes vertues, ٢٩

١٤ – Camus, Ouevres complètes, ٢:٤٠٢.

١٥ – Albert Camus, Notebooks: ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody and Justin O'Brien (New York: Marlowe and Co., ٢٠٢ ,(١٩٩٨.

١٦ – Olivier Todd, Albert Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ٥٠٧ ,(١٩٩٦.

١٧ – Michele de Montaigne, The Complete Essays of Montaigne,

trans. Donald Frame (Palo Alto: Stanford University Press, ٦٢ –٦٠ ,(١٩٥٨.

١٨ – Ibid., ٣٢٣.

١٩ – See Sarah Bakewell, How to Live: Or, a Life of Montaigne (New York: Other Press, ٢٠٥ ,(٢٠١٠.

٢٠ – Montaigne, Essays, ٣١٦ –٣١٥.

٢١ – Henri Alleg, The Question, trans. John Calder (Lincoln: University of Nebraska Press, ٤٤ ,(٢٠٠٦.

٢٢ – Ibid., ٣٤.

٢٣ – Or nearly unique: General Jacques Massu also chose to undergo torture for the same reasons as Bigeard. Remarkably, in ٢٠٠١, in the wake of the revelation made in Le Monde by Louisette Ighilahriz, who was tortured by Massu's men, Massu not only apologized publicly, but also admitted that torture was never "indispensable."

٢٤ –Agnès Spiquel and Philippe Vanney, "Notice," in Ouevres complètes, ٤:١٤١٥.

٢٥ – Simone de Beauvoir, The Force of Circumstance, trans. Richard Howard (New York: Putnam, ٣٩٦ ,٣٩٢ –٣٩١ ,(١٩٦٥.

٢٦ –Ronald Aronson, Camus and Sartre: The Story of a Friendship and the Quarrel that Ended It (Chicago: University of Chicago Press, ٢١١ ,(٢٠٠٤.

٢٧ – Montaigne, Essays, ٣٢٤.

٢٨ – Ibid., ٣١٣.

٢٩ – Ibid., ٥١٨.

٣٠ – Ibid., ٦٠١ –٦٠٠.

٣١ – Camus, Ouevres complètes, ٤:٢٩٨.

٣٢ – Albert Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ٦٨ ,(٢٠٠٨.

٣٣ –Alleg, The Question, xvi.

٣٤ – Camus, Ouevres complètes, ٣:١٠٢٥.

٣٥ – Ibid.٤:٢٩٩.

٣٦ – Ibid., ٣٦٣.

٣٧ – Albert Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١ trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ١٤٤ ,(٢٠٠٨.

٣٨ – Camus, Notebooks ٥٨ ,١٩٥٩ –١٩٥١.

٣٩ – Camus, "Refl ections," ١٣٣.

٤٠ – Eve Morisi, ed., Albert Camus contre la peine de mort (Paris: Gallimard, ٢٠١١).

٤١ – Ibid., ٢٤٤.

٤٢ – Ibid., ٢٤٦.

٤٣ – Albert Camus and Jean Grenier: Correspondence –١٩٣٢ ١٩٦٠, trans. Jan Rigaud (Lincoln: University of Nebraska Press, ١١٢ ,(١٩٨١.

٤٤ – Elaine Scarry, The Body in Pain (Oxford: Oxford University Press, ٢٩ ,(١٩٨٥.

٤٥ –Ibid., ٥ –٤.

٤٦ – Camus, Notebooks ١٨٢ ,١٩٥١ –١٩٣٥.

٤٧ – Camus, Camus at Combat, ٢٥٩ –٢٥٨.

٤٨ –Ibid., ٢٦٠.

٤٩ – Camus, "Refl ections," ١٣٧.

٥٠ – Camus, Ouevres complètes, ٤:١٢٩.

٥١ – Ibid., ١٤١.

٥٢ – Ibid., ١٥٥.

٥٣ – Ibid., ١٣١.

٥٤ – Ibid., ١٣٥.

٥٥ – Albert Camus, Essais, ed. Rogert Quilliot (Paris: Gallimard, ١٤٦٩ ,(١٩٦٥.

٥٦ – Ibid.

٥٧ – Ibid., ١٤٧٠.

٥٨ – Camus, Camus at Combat, ٢١ –٢٠.

٥٩ – Camus, Essais, ١٤٦٩.

٦٠ – Camus, Camus at Combat, ١٦٥.

٦١ – Ibid., ١٦٩ –١٦٨.

٦٢ – Todd, Camus, ٣٧٤.

٦٣ – Morisi, Albert Camus contre la peine de mort, ١٩٦ –١٩٥.

٦٤ – Gisèle Halimi, Le Lait d'orager (Paris: Pocket, ,(٢٠٠١ ١٨١.

٦٥ – Morisi, Albert Camus contre la peine de mort, ١٩٨ –١٩٧.

٦٦ – Ibid., ٢٠٢ –٢٠١.

٦٧ – Ibid., ٢٠٤.

٦٨ – Albert Camus, Cahiers Albert Camus ٣: Fragments d'un combat, ١٩٤٠ –١٩٣٨, ed. Jacqueline Lévi- Valensi (Paris: Gallimard, ١٩٧٨), v.٣٦٨ ,٢.

٦٩ – Morisi, Albert Camus contre la peine de mort, ٢٠٥.

٧٠ – Halimi, Le Lait d'orager, ١٧٧.

٧١ –Herbert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ٦٥٣ –٦٥٢ ,(١٩٩٧.

٧٢ – Camus, The First Man, ٢٧.

٧٣ – Ibid., ٦١.

مصادر الفصل الخامس

١ – Albert Camus, The Myth of Sisyphus, trans. Justin O'Brien (New York: Vintage, ٥٥ ,(١٩٩١.

٢ – Tahar Ben Jelloun, Par le feu (Paris: Gallimard, ٢٠١١).

٣ – Akram Belkaïd, "Mohamed Bouazizi parle encore aux Tunisiens," Slate Afrique, December ٢٠١١ ,١٨.

٤ – Albert Camus, The Rebel, trans. Anthony Bower (New York: Vintage, ١٠ ,(١٩٩١.
٥ – Ibid., ٤ –٣.
٦ – Ibid., ٣.
٧ – Albert Camus, Camus at Combat, ed. Jacqueline Lévi-Valensi (Prince ton: Prince ton University Press, ٢٥٩ ,(٢٠٠٧.
٨ – Ibid., ٢٣٧ –٢٣٦.
٩ –John Foley, Albert Camus (Montreal: McGill- Queen's Press, ٣٩ ,(٢٠٠٨.
١٠ – Maurice Merleau- Ponty, Humanism and Terror (Boston: Beacon Press, ١٥٣ ,(١٩٦٩.
١١ – Olivier Todd, Albert Camus: Une Vie (Paris: Gallimard, ٤٤٦ –٤٤٥ ,(١٩٩٦.
١٢ – Albert Camus, Essais, ed. Rogert Quilliot (Paris: Gallimard, ٣٥٦ –٣٥٥ ,(١٩٦٥.
١٣ –Robert Solomon, Dark Feelings, Grim Thoughts (Oxford: Oxford University Press, ١٨٩ ,(٢٠٠٦.
١٤ – Camus, The Rebel, ١٠.
١٥ – Hannah Arendt, Between Past and Future (New York: Penguin, ٧٨ ,(٢٠٠٦.
١٦ – Camus, The Rebel, ٢٠٧.
١٧ – Ibid., ٢٢٦.
١٨ – Camus, Camus at Combat, ٤٢.
١٩ – John Sweets, The Politics of Re sis tance in France, ١٩٤٤ –١٩٤٠ (DeKalb: Northern Illinois University Press, ٢١٨ ,(١٩٧٦.
٢٠ –http:// blogs .mediapart .fr /mot -cle /conseil -national -de -la -resistance /.
٢١ – Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ٣, ed. Raymond

Gay- Crosier (Paris: Gallimard, ١٠٩٩ ,(٢٠٠٨.
٢٢ – Camus, Camus at Combat, ٥٥.
٢٣ – Michel Onfray, L'Ordre Libertaire: La vie philosophique d'Albert Camus (Paris: Flammarion, ٣١٧ ,(٢٠١٢.
٢٤ – Camus, Essais, ٣٥٧.
٢٥ – Camus, Camus at Combat, ١٠٧.
٢٦ – Ibid., ٢٦٧.
٢٧ – Albert Camus, American Journals, trans. Hugh Levick (New York: Paragon House, ٥١ ,(١٩٨٧.
٢٨ – Ibid., ٤٢.
٢٩ – Ibid.
٣٠ – Ibid., ٤٩.
٣١ – Elizabeth Hawes, Camus, a Romance (New York: Grove Press, ١٠١ ,(٢٠٠٩.
٣٢ – Camus, American Journals, ٤٩.
٣٣ – Camus, The Rebel, ٢٠٦.
٣٤ – Ibid., ٢٠٥.
٣٥ – Tony Judt, The Burden of Responsibility (Chicago: University of Chicago Press, ١١٦ ,(١٩٩٨.
٣٦ – Ibid., ١٠٤.
٣٧ – Camus, Camus at Combat, ٢٦١ –٢٦٠.
٣٨ – Roberto Calasso, The Marriage of Cadmus and Harmony (New York: Knopf, ١٢٥ ,(١٩٩٣.
٣٩ – Herodotus, The History, trans. David Grene (Chicago: University of Chicago Press, ٤٧٢ ,(١٩٨٧.
٤٠ – Camus, The Rebel, ٢٧.
٤١ – Camus, Notebooks ١٩٥١ –١٩٣٥, trans. Philip Thody (New York: Marlowe & Co, ١٩٣ ,(١٩٩٨.
٤٢ – Thucydides, History of the Peloponnesian War, trans.

Rex Warner (New York: Penguin, ٤٨ ,(١٩٨٨.
٤٣ – Victor Davis Hanson, A War Like No Other (New York: Random House, ٧٨ –٧٧ ,(٢٠٠٥.
٤٤ –Thucydides, History of the Peloponnesian War, ٤٠٢.
٤٥ – Ibid., ٤٠٧.
٤٦ – Albert Camus, Re sis tance, Rebellion and Death, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, ٤ –٣ ,(١٩٦٣.
٤٧ – Catherine Camus, ed., Albert Camus: Solitaire et solidaire (Paris: Lafon, ١٢٥ –١٢٢ ,(٢٠٠٩.
٤٨ – The critic was the writer (and friend of Camus) Nicola Chiaromonte. See Hebert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ٥٠٢ ,(١٩٩٧.
٤٩ – "Camus and the Theatre," in The Cambridge Companion to Camus, ed. Edward Hughes (Cambridge: Cambridge University Press, ٧١ ,(٢٠٠٧.
٥٠ – Camus' preface to Caligula and Three Other Plays, trans. Stuart Gilbert (New York: Vintage, ١٩٥٨).
٥١ – Ibid., ٢٤٥.
٥٢ – Ibid., ٢٥٤.
٥٣ – Ibid., ٢٥٨ ,٢٥٦.
٥٤ – Foley, Albert Camus: From the Absurd to Revolt, ٢١٧.
٥٥ – "Albert Camus and Po liti cal Violence," in Albert Camus in the ٢١st Century, ed. Christine Margerrison, Mark Orme, and Lissa Lincoln (Amsterdam: Rodopi, ٢١٩ ,(٢٠٠٨.
٥٦ – Camus, The Rebel, ١٧٠.
٥٧ – Camus, Oeuvres completes, ٣:٣٧٥.
٥٨ – Albert Camus, Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ١٤٩ –١٤٨ ,(١٩٦٨.
٥٩ – Thucydides, The History of the Peloponnesian War, ١٤٧.

٦٠ – Camus, The Rebel, ١٠١.

٦١ – Ibid., ١٣.

٦٢ – Ibid., ١٦.

٦٣ – Ibid., ٢٢.

٦٤ – Ibid., ١٦.

٦٥ – Ibid., ٢٩٠ –٢٨٩.

٦٦ – Camus, Notebooks ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom (Chicago: Ivan Dee, ١٠٢ ,(٢٠٠٨.

٦٧ – Alastair Horne, A Savage War of Peace (New York: Penguin, ١٣٢ ,(١٩٨٥.

٦٨ – Gillo Pontecorvo's documentary The Battle of Algiers.

٦٩ – Camus, Camus at Combat, ٢٠٠.

٧٠ –Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ٤, ed. Raymond Gay– Crosier (Paris: Gallimard, ٣٠١ ,(٢٠٠٨.

٧١ – Ibid., ٢٩٩.

٦٧ – David Carroll, Albert Camus the Algerian: Colonialism, Terrorism, Justice (New York: Columbia University Press, ١٠٩ ,(٢٠٠٧. Carroll's sharp and astute book has helped shape my own understanding of Camus' attitude toward the FLN.

٧٣ – Camus, Oeuvres complètes, ٤:٣٠٠.

مصادر الخاتمة

١ – Albert Camus, Oeuvres complètes, vol. ٤, ed. Raymond Gay– Crosier (Paris: Gallimard, ٦٦١ ,(٢٠٠٨.

٢ – Ronald Aronson, Camus and Sartre: The Story of a Friendship and the Quarrel that Ended It (Chicago: University of Chicago Press, ١٤٧ ,(٢٠٠٤.

٣ – Albert Camus, Notebooks, ١٩٥٩ –١٩٥١, trans. Ryan Bloom

(Chicago: Ivan Dee, ٧٢ ,(٢٠٠٨.
٤ - Herbert Lottman, Albert Camus (Madera, CA: Gingko Press, ٦٠٦ ,(١٩٩٧.
٥ - Albert Camus, Lyrical and Critical Essays, trans. Ellen Kennedy (New York: Knopf, ١٦٨ -١٦٧ ,(١٩٦٨.
٦ - Ibid., ١٦٩ -١٦٨.
٧ - The Orwell Reader, ed. Richard Rovere (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, ٣٨٦ ,(١٩٥٦.
٨ - Camus, Oeuvres complètes, ٤:٦٠٣.
٩ - Camus, Notebooks, ٧٣ ,١٩٥٩ -١٩٥١.
١٠ - Camus, Lyrical and Critical Essays, ٦٧.
١١ - Ibid., ١٦٥.
١٢ - Elaine Scarry, On Beauty and Being Just (Prince ton: Prince ton University Press, ٩٤ ,(١٩٩٩.
١٣ - Ibid., ٩٧.
١٤ - Simone Weil: An Anthology, ed. Sian Reynolds (New York: Atheneum, ٦ ,(١٩٨٦.
١٥ - Camus, Lyrical and Critical Essays, ٣٧.
١٦ - Ibid., ٦٩. The photograph is reproduced in Catherine Camus, ed., Albert Camus: Solitaire et Solidaire (Paris: Lafon, ٢٠٢ ,(٢٠٠٩.
١٧ - Albert Camus, The First Man, trans. David Hapgood (New York: Knopf, .٢٤٣ ,(١٩٩٤





في العنوان الجميل والمكتوب بشكل مميز [حياةٌ تستحقُ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى] ، يوضح المؤرخ روبرت زارِتسكي سعي كامو طوال حياته في تسليط الضوء على محاولته البائسة لإيجاد الوحدة والمعنى، وإرثها الخالد، بأسلوب رائعٍ ومجملٍ".

ماريا بوبوفا - *Brain Pickings*

من المحدود للغاية التفكير في ألبير كامو على أنه فيلسوف عبثيٌّ. فبينما لم يتدرب كامو أبدًا على أن يكون فيلسوفًا، يوضح زارِتسكي بأن كامو كان إنسانًا ذا مبادئ عالية، ومدافعًا قويًّا عن العدالة، ولا يزال صداه يدوي في أرجاء الفكر.

مجلة - *Christian Century*

كتاب [حياةٌ تستحقُ أن تُعاش: ألبير كامو والبحث عن المعنى] استكشاف رائع وموجز لأفكار كامو، وقدرته المستمرة على إثارة قلقنا وإلهامنا حتى يومنا هذا .

سارة باكويل - مؤلفة كتاب "كيف تعيش الحياة"

بعض الكتاب محظوظون بما يكفي لتذكرهم بعد 50 عامًا من وفاتهم، وقليل منهم محبوبون. ولكن ما هو نادر، هو بقاء كاتب مات منذ زمن طويلٍ مثيرًا للجدل. ألبير كامو هو أحد هذه النوادر، إذ لا يزال لديه القدرة على إشعال التوجهات السياسيَّة من خلال دمجه العميق لتاريخ القرن العشرين بعمق في كتاباته. سيجد القرّاء الجدد لكامو في كتاب زارِتسكي مصدرًا مطّلعًا ومثيرًا للإعجاب بحرارة .

أدم كيرش - موقع *Daily Beast*



Designed by: Maher Adnan





دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
009647700492576 - 009647711002790
Email: darstoor@gmail.com